الأدب الحديث فى نجد

تأليف الشيخ

محمد بن سعد بن حسين

المدرس بالمعهد العلمى بالرياض

بتحقيق وتعليق

الدكتور عبد السلام سرحان

الأستاذ بجامعة الأزهر

الطبعة الأولى

مطبعة الفجالة الجديدة

٣٨ شارع القويسنى خلف مدرسة التجارة بالظاهر

تقديم الكتاب

دكتور
عبد السلام سرحان
أستاذ الأدب بجامعة الأزهر ـ كلية اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله .. تتروَّح بها الأرواحُ السابحة ، وتتفوَّح منها العطورُ الفائحة ، وتراح إليها النفوس المرحة ، وتتفتح معها القلوب الفرحة .. بالطاقات المُزْدَهِرَةِ في رياض الكون الفسيح .

والصلاة والسلام على رَوْحِ الإنسانية وريحانها ، وَمِصْبَاح الإيمانية وتبيانها ، وباعث الإسلامية ورائدها ، ونافث الروحانية وقائدها .. سيد العرب والعجم ، وخير من سارت به على الترب قَدَم .. مُحَمَّدِ بن عبد الله .. أفضل أنبياء الله ، وأكرم رسل الله على الله .

وعلى آله وأصحابه ، وأنصاره وأحبابه .. الذين « آزَرُوهُ ونَصَرُوهُ واتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ ، أُولَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ » .

وبعد : ـ فقد تأذَّن المولى تبارك وتعالى .. منذ عام مضى .. أن أتصفح هذه الأمالى الطريفة ، وأسبح مع تلك المحاضرات الوارفة ، وأن تتملأ عيناى منها ، وتَسَّمَّعَ أذناى لها ، فى خلال زيارة أبوية حانية .. لابننا العزيز البارّ ، وتلميذنا النجيب البهْزَر [1] ، الأديب الفذّ ، والمُحَاضِرِ الجِهْبِذ [2] ، والشاعر

---

(١) البهزر ـ بوزن جعفر ـ : الحصيف العاقل ، والشريف .

(٢) الجهبذ : الناقد الخبير .

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد :

فهذه مجموعةُ محاضراتٍ ألقيتُها في مواسمَ مختلفة ، وفي سنواتٍ متعددة يجمعها موضوع واحد هو :—

« الأدب الحديث في نجد »

أقدمها لك أيها القارئ كما هي دون تبديل أو تعديل ، وإن كانت النفس تُنَازِعُ إلى إضافة أشياء وأشياء ، لكن أتمنى على الله أن يتيح لي فرصة لِأُتِمَّ ما بَدَأْتُ ، وإن كان في هذا الكتاب ـ والحمد لله ـ ما تقَرُّ به عين طالب الأدب .

وما توفيقي إلا بالله ؟

محمد بن سعد بن حسين

المحاضرة الأولى

الشعر والشعراء فى نجد

من منتصف القرن الثانى عشر إلى منتصف هذا القرن

بسم الله الرحمن الرحيم

[جغرافيـة نجد] :

قال الألوسى فى كتابه « تاريخ نجد »(ا) :

« ... وبعض المتأخرين قال : إن نجـداً قطعـة عظيمة من جزيرة العرب تُحَدُّ شمالاً : ببَرِّ الشام ، وشرقاً : بعراق العرب والأحساء ، وجنوباً: بالأحقاف وغرباً : بالحجاز ، ففى تحديد « نجد » أقوال كثيرة متقاربة المعنى » .

« ... وعلى كل الأقوال نعـرف أن نجـداً من أحسن أقطار الأرض العربيةوأعدلها مزاجاً ، وأرقها هواء ، وأعذبها ماء ، وأخصبها أرضاً وأنضرها إزهاراً ونباتاً ، .. و [أن] أوديته كالرياض ، وأغواره كالحياض .

ولم يزل الشعراء قديمـاً وحديثـاً يترنمون بذكره، ويلهجون بوصف بلاده وأقطاره ، ويعطِّرُون الأندية بنشر خُزَامَاهُ وَعِطْرِه »[1] .

وقال الأستاذ عبد الله [بن] عبد الجبار (ب) :

« نجد : هضبة مرتفعة مترامية الأطراف .. تشمل صحراء العرب الوُسطى ويحدها غرباً : الحجاز ، وشرقاً : الأحساء ، وتمتد جنوباً إلى وادى الدَّوَاسِر،

(ا) الطبعة الثانية ١٣٤٧ ص ٩

(١) النشر : الرائحة ، والخزامى : نبت طيب الرائحة .

(ب) التيارات الأدبية فى قلب جزيرة العرب الطبعة الأولى ص (٤٥)

ويبلغ امتداد نجد من « قَرِيَّاتِ المِلْح » شمالا إلى « وادى الدَّواسر » ـ نحو « ٨٠٠ ميل » وتتدرج نجد فى الانحدار العام فى اتجاهين ـ أحدهما .. ناحية الشمال الشرقى ، والآخر نحو الجنوب الشرقى ، وتَقْسِمُ نجداً سلسلةٌ من الجبال .. تسمى « العارض » تتجه من الشمال إلى الجنوب بشكل قَوْسِيٍّ .

وبعد منطقة « سُدَيْر » تنقسم هذه السلسلة إلى شُعبتين : إحداهما تتجه إلى الجنوبِ الشرقى .. إلى أن تغور فى وسط الصحراء ، وتسمى « الْعُرْمَةَ » والثانية تتجه إلى الجنوب الغربى ، وتُسمى « طُوَيْقَ » ويبلغ معدل ارتفاع جبال « طُوَيْقَ » عن سطح البقاع المجاورة له نحو « ٦٠٠ قدم » وتقع منطقة جبل « شَمَّرَ » بين الحافَّة الجَنوبية للنُّفُودِ العظمى من الشمال ، ووادى الرُّمَّةِ من الجنوب ، وبين واحة « تَيْمَاء » وغُوطَةِ « الْجَوْفِ » من الغرب و« الدَّهْنَاء » من الشرق ، وهى مؤلفة من جبلَيْ « أَجَأٍ وَسَلْمَى » ، وتمتد سلسلة جبلى أَجَأٍ وَسَلْمَى من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى فى وسط منطقة « شَمَّرَ » وتبلغ مساحة هذه السلسلة نحو « ١٠٠ ميل » طولا ، و « ٢٠ ميلا عَرْضاً ، ويبلغ أقصى ارتفاع فى جبل «أَجَأٍ» ـ عند جبل « الْفَرْع » ـ حوالى « ٥٥٠٠ قدم » عن سطح البحر ، أما جبل « سَلْمَى » فإنه لا يرتفع أكثر من « ١٠٠ متر » عن سطح البحر .

هذه أسطر فى تحديد « نَجْدَ » ووصفها العام ، ولعل فيها الكفاية لمن لا يريد التفصيل .

وقبل أن نأخذ فى الحديث عن أدب نجد وأدبائها يحسن بنا أن نقدم طرفاً من أخبار نجد وتاريخها الحاضر .. عسى أن يساعد ذلك على فهم طبيعة أدب وأدباء هذه الفترة المتأخرة من حياة نجد .

مقدمة تاريخية :

نَجْد ـ أيها السادة الكرام ـ : اسم خالد يصحبه فى مِسْمَع كل إنسان نغم جميل . يوحى بصور مختلفة من الحياة المتقلبة .

وإنك لتسمع أول ما تسمع معها صوتَ البطل وهو يطلب المنازلة ، « وَصَلِيلُ البِيْضِ تُقْرَعُ بالذكور »[1] فى الذود بها عن الجار والذمار ، وحَمْحَمَةَ الحصان فى أُتُونِ المعركة[2] ، وأطرافَ رماح الأبطال ونِبالَهُمْ تنهش جسمه .

وتسمع معه رُغَاء الإبل ، وثُغَاء الغنم ، وهى تُنْحَرُ للضيوف . وتسمع معه أَنَّةَ الباكى وزفرة الشاكى . . من لوعة الحب ولواعج الشوق ، وما إلى ذلك من صور الحياة الجاهلية .

ثم يزداد جمال النغم لا زدياد جمال الصورة فتسمع (لا إله إلا الله) تُرَدِّدُ أصداءها جبالُ نجد ، وخالِدُ بن الوليد يعلنها فى هذه البقاع .

ثم تسمع صوت ذى الرُّمَّةِ[3] ، وقد وقف ناقته على رَبْعِ « مىٍّ » ليُسْقِيهِ من دمعه الذى لا يَغِيض .

---

(١) شطر بيت لمهلهل بن ربيعة أخى كليب وائل ـ ونصه :

ولولا الريح أسمع من بحجر ... صليل البيض تقرع بالذكور

وهو من قصيدته المشهورة التى أولها :

أليلتنا بذى حسم أنيرى ... إذا أنت انثنيت فلا تحورى

(٢) الأتون ـ بتشديد الياء وتخفيفها ـ : الموقد .

(٣) خالد بن الوليد بن المغيرة . . البطل الإسلامى المشهور ، ويدير

ولن تعدم أنين المجنون وصوت المضرس وقد تنكرت له معالم ربع أسماء بعد انتهاء الوسمى، وارتحالها من الوادى[١] .

ولكن لا يكاد ينقضى العصر العباسى الأول حتى يضعف النغم إلى حد الاختناق ، فتصحبه صورة مظلمة قاتمة مجهولة الكنه والكيف ، تظلل منبت العرب ، ومهد لغتهم ، وآدابهم .. ردحا من الزمن[٢] إلى أن يأتى منصف القرن الثانى عشر فيفلت بعده النغم من عقاله ، ويعود إلى حيويته وجماله وتصحبه صورة كلها حسن وإضاءة وإشراق .

إنها صورة الحق والإسلام حيث يعود صوت (لا إله إلا الله) ويمتد صداها إلى تلك الجبال الظامئة إلى لقائه .

تلكم هى نجد أيها السادة الكرام .. منبع البطولات والأمجاد ، ومنبت الفضائل والمكارم ، وموطن الأدب والجمال ، ومصدر النور والإشراق .

فهل تعرف ذلك الرجل الذى أعاد إلى نجد صورتها الجميلة المشرقة ؟ ؟

إنه الإمام محمد بن عبد الوهاب[٣] .

المؤلف : أيام حروب الردة ، وذو الرمة - بضم الراء مشددة - : هو غيلان ابن عقبة الشاعر الراجز المشهور ، وقد توفى خالد سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) ، وذو الرمة سنة ١١٧ هـ (٧٣٥ م) . ، أما « مى » فمحبوبة ذى الرمة .

(١) المجنون : هو قيس بن الملوح المشهور بمجنون ليلى ، وهى ليلى بنت سعد العامرية ، وقد توفى سنة ٨٠هـ/٧٠٠م ، أما المضرس فهو ابن ربعى الأسدى وأسماء محبوبته .

(٢) ردحا من الزمن : أى : طويلا منه .

(٣) المولود سنة ١١١٥ هـ / ١٧٠٣ م ، والمتوفى سنة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩٢م ، وكان مولده بالعيينة من أعمال نجد ، ونشأ فيها وتعلم الفقه والأصول والأحاديث بين أفنائها ، ثم رحل إلى الحجاز مرتين ، ومكث فى المدينة مدة أخذ فيها عن بعض علمائها الأعلام ، ثم انتقل إلى البصرة ، وعومل فيها معاملة آذته فعاد إلى

. . . .

نجد وسكن فى حريملة ، ثم عاد إلى العيينة وأظله أميرها عثمان بن معمر بالإكبار والإجلال ، ثم خذله وطرده ، فلجأ إلى الدرعية سنة ١١٥٧ هـ / ١٧٥١ م حيث استقبله أميرها محمد بن سعود بالإكرام والترحاب .

والإمام محمد عبد الوهاب بن سليمان التميمى النجدى هو إمام حنابلة نجد وزعيم الدعوة الوهابية فى الجزيرة العربية ، وقد آزره ونصره أمراء آل سعود وخاصة الملك عبدالعزيز بن محمد بن سعود ، وأبناؤه وإخوته الملك سعود ثم الملك فيصل ، وبفضلهم عمت دعوته أرض الجزيرة كلها ، وأصبحت المذهب الرسمى للملكة العربية السعودية حتى اليوم ، وقد أظهرها عام ١١٤٣ هـ / ١٧٣٠ م .

وقد توفى فى الدرعية بنجد ، واحتل أبناؤه من بعده أعظم المكانات فى الدولة السعودية ويعرفون الآن بآل الشيخ ، ومنزلتهم مرموقة ، ودرجاتهم محفوظة ، والتعليم الدينى واللغوى تحت إشرافهم وتوجيهاتهم المباشرة فى كليات التعليم العالى بالرياض ، أما التعليم المدنى فخاضع لتخطيطهم الدينى ، ويسير على مناهج إسلامية واضحة ، وينتظر أن يتقدم التعليم تحت رعايتهم خطوات جبارة بفضل جهودهم المخلصة ، ومعاونة المملكة العربية السعودية تحت رعاية الملك فيصل حفظه الله ورعاه .

وقد ترك الإمام محمد بن عبد الوهاب كثيراً من الكتب والمؤلفات ، ومن أشهرها :

١ ـ كتاب التوحيد وحق الله على العبيد
٢ ـ رسالة كشف الشبهات
٣ ـ تفسير الفاتحة
٤ ـ أصول الإيمان
٥ ـ تفسير شهادة أن لا إله إلا الله
٦ ـ معرفة العبد ربه ودينه ونبيه .
٧ ـ معنى الكلمة الطيبة .
٨ ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

كانت نجدُ في منتصف القرن الثاني عشر قد عادت إلى جاهليتها الأولى حيث أصبحت خَلاَءً من الإسلام ... إلا من بعض مظاهره الشكلية التي لاَ تُسْمِنُ ولاَ تُغْنِي مِنْ جُوعٍ .

ولو أردنا أن نصف لك حال هذه البلاد وما كانت عليه من الفوضى والاضطراب في جميع مناحي الحياة ، لاحتجنا في ذلك إلى عدة محاضرات .

ولم تكن البلاد المجاورة لها بأحسن منها حالا ، بل إن أكثر بلدان العالم الإسلامي كانت أسوأ حالا منها ، فلقد أصبح المسلمون في جميع أقطارهم

---

٩ ـ مفيد المستفيد .

١٠ ـ رسالة في التقليد وأنه جائز لا واجب .

١١ ـ كتاب الكبائر .

وله رسائل إلى أهل البلاد النجدية والأقطار الإسلامية ، وأكثر كتبه ومؤلفاته مطبوع طبعا متقنا على نفقة الحكومة السعودية .

وسيتحدث المؤلف عن الإمام محمد بن عبد الوهاب ـ مرة أخرى ـ حديثا مبسوطا في آخر الكتاب ، وكلماته وعباراته هنا وهناك تدل على مدى اقتناعه بدعوته ، وتفهمه لها ، وحدبه عليها ، وإعجابه بها ، وانتمائه إليها .. عن فهم وفقه وإدراك .

هذا والمملكة السعودية الآن تعد مثالا يحتذى في تنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية ـ خاصة الحدود ـ ولذلك يعم الأمن ربوعها ، ويتفيأ سكانها وزوارها ظلالا وارفة من الهدوء والدعة والاطمئنان .

وحبذا لو نسجت الدول الإسلامية كلها على هذا المنوال ، ونهجت هذا النهج ونفذت أحكام شريعة الله على المارقين والمنحرفين ـ إذن لواتانا نصر الله والفتح ، وانخذل أعداؤنا أعظم الخذلان « ولينصرن الله من ينصره » .

يعيشون فى اضطراب وقلق اجتماعى وسياسى ، فاشتدت الحاجة إلى مصلح حكيم أمين ، ليجدد لهـذه الأمة دينها وينظم أحوالها تنظيما محـكماً مَبْنِياً على أسس متينة ، من الحـكمة والحُنْـكَةِ والإخلاص .

وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، هو ذلك المجدِّدَ المنتظرَ ، فلقد قام فى عام ١١٥٥ هـ من بلدة « العُيَيْنَةِ » مَسْقَطِ رأسـه ـ على المشهور ـ بأول ثورة إسلامية عربية فى تاريخ النهضة الحديثة العربية .

فـكان بذلك أول زعيم إسـلامى عربى قاد أول ثورة إسلامية عربيـة ، ضد الجهل والفساد بأنواعهما ، وكان بدء الدعوة فى منتصف القرن الثانى عشر فى بلدة « العيينة » كما مر .

وكان الأمير عثمان بن مُعَمَّر أوَّلَ مناصر للدعوة ، وأوَّلَ من باشر مع الإمام إزالة معالم الوثنيـة من أشجارٍ وقبابٍ ـ حتى كاد أن يفوز براية النصر والزعامة ، لولا أنه فضَّلَ العاجل على الآجل ، فأخرج الشيخ من « العيينة » مطروداً .. بل لقد حاول قتله ، إلا أن الله أبطل كيده ، فوصل إلى « الدِّرْعِيَّةِ » فاستقبله الأنْصار ، وكان ما كان من أمر اتفاقه مع الأمير محمد بن سعود أمير « الدِّرْعِيَّة » فنُصِبَتْ راية الجهـاد ، وأَخَذَ المهاجرون والمؤيدون يتوافدون من كل مكان ، فلما أحسوا فيهم القُوَّة ساروا يقودهم الأمير المؤمن لقتال المعاندين الظالمين .

وقد كان من ألد أولئك الخصوم وأصلبهم ، أميرُ الرياض ، دهَّام بن دَوَّاس الذى استمرت الحرب بينهم وبينـه ثلاثين عاماً انتهت على يد الأمير عبد العزيز بن الإمام محمـد بن سعود الذى كان يتولى قيادة الجيوش المجاهدة فى حياة أبيه ، وعلى يده بدأ نشر الدعوة عملياً وقد بويع بالإمامة بعد وفاة أبيـه

عام ١١٧٩ ﻫ فواصل الجهاد بهمة عالية وعزم أكيد ، حتى أخضع كثيراً من البُلدان ، وقضى على ذلك الخصم العنيد دَهَّام بن دَوَّاس ـ كما مر .

وفى آخر حياة الإمام عبد العزيز صار أمر الجيش إلى ابنه البطل سعود الذى أوغل بجيوش الدعوة إلى أقاصى البلاد فى كل اتجاه .. حتى لقد دخل « كَرْبَلَاء » فى العراق .. فى حياة أبيه عام ١٢١٥ ﻫ ، وهدم ما هنالك من القِبَابِ ، فكانت تلك الغزوة سبباً فى قتل أبيه ، وهو يصلى العصر فى الجامع فى « الدرعية » عام ١٢١٨ ﻫ فبويع ابنه سعود الأول بالإمامة فى السنة نفسها .

أما الإمام محمد بن عبد الوهاب فقد أقام فى « الدِّرْعِيَّة » يُعَلِّمُ الناس وينصح الأمراء بنصائحه وتوجيهاته إلى أن توفى ـ رحمه الله ـ فى أيام الإمام عبد العزيز عام ١٢٠٦ ﻫ ، فَقَدِمَ إلى ربه قَرِيرَ العَيْنِ بعد أن نبه العالم العربى والإسلامى من غفوته ، وأرشده إلى طريق الحق والصراط السَّوِىِّ وَالْهُدَى ، فجزاه الله خير ما يجزى به الصالحين المصلحين .

وقد خَلَّفَ وراءه أبناءه الأربعة حُسَيْناً وعبد الله وعَلِيا وإبراهيم ، ليُتِمُّوا مع الأمراء السعوديين ما بدأه المصلحان الجليلان ، الإمامُ محمدُ بنُ عبد الوهاب ، والأميرُ محمدُ بن سعود[1] .

ولقد جمع الإمامُ سعودٌ من الصفات ما لم يجتمع لغيره ، فلقد كان حازماً حكيماً، بعيد النظر والطموح، شجاعاً كريماً ، لم تُهْزَمْ له راية فى جميع حروبه ، وكان يجمع ـ بجانب صفات القائد الناجح ـ صفاتِ العالم الواسع الاطلاع ، لكنَّ قُوَى الشر تكالبت على بطل الإسلام ، ودَلَّسُوا على عامة المسلمين

---

(١) سيأتى حديث مبسوط للمؤلف عن الأمير محمد بن سعود فى آخر الكتاب .

وسوادهم مستخدمين فى ذلك هَدْمَ المجاهدين للقباب والمشاهد بالنَّجَفِ وَكَرْبَلَاء ، ثمَّ مَنْعَهُمْ الْمَحْمَل المصرىَّ . . لكون ذلك لا يتفق وشريعة الإسلام .

وقد استطاعت تركيا أن تستخدم مُحَمَّدَ عَلِيٍّ حَاكِمَ مصر والْحُثَالاتِ التى كان يضمها جيشُهُ فى ضربِ الوهَّابِيةِ وَالوَهَّابِيين على حد تعبيرهم ، فأرسل محمدُ عَلِيٍّ ابْنَهُ طُوسُونَ إلى جزيرة العرب . . فلم ينجح ، فجاء بنفسه فى شهر شعبان من عام ١٢٢٨ هـ ، فجرى على أيديهم من المفاسد ما جرى .

وكم كنت أود التفصيل فى هذا لولا أن المقام لا يسمح ، لذا سنكتفى بالاستشهاد بمفهوم ما ورد فى كتاب(ا) (تاريخ نجد الحديث وملحقاته لأمين الريحانى) [حيث قال] «جاءت الوهابية لتطهر الحرم من الفساد فجاء المصريون والأتراك ليطهروا مكة من الطهارة » (ب) .

وقد توفى الإمام الكبير سعود بن عبد العزيز عام ١٢٢٩ هـ ، وبانتهاء عهد ذلك البطل العظيم انتهت أزهى فترات الدعوة فى عصورها الأولى ، وبدأت فترات سادت فيها الفوضى والاضطراب ، وكانت الجيوش المصرية فيها تقيم فى « الدرعية » إلى أن خلفَتْهَا الجيوش التركية ، غير أن تُرْكِيّ بن عبد الله ـ الذى فر إلى « الخَرْج » فنجا من أيدى المصريين ـ ، عاد ليستنقذ البلاد من جديد ، ولكنه قُتِلَ بيد ابن عمه مَشَارِى، الذى قتله فَيْصَلُ بن تُرْكِيٍّ ، انتقاماً

(ا) الطبعة الأولى :

(ب) هذا معنى مانقله الريحانى فى كتابه المذكور ص ٦٧ عن المستشرق السويسرى « إيركهارت » الذى أسلم وتسمى عبد الله ، ونص ما نقله الريحان . « جاء الوهابيون يطهرون الحجاز وجاء الترك أو بالحرى المصريون ينقذون الحرمين من المطهرين» المؤلف

لأبيه ، فتولى حكم البلاد ، وبحكمه بدأت فترة جديدة لآل سعود وكان فَيْصَلٌ ذا حكمة ودهاء وكرم ، مع عفة وتورع عن سفك الدماء ، ولذلك كان محبوباً لدى عامة أهل نجد فاجتمعوا تحت رَآسَتِه وجمعتهم كلمته ، إلا أن الجيوش التركية جددت حملتها على السعوديين وأتت بخالد بن سعود الذى نُشِّىء تنشئة مصرية ليحكم البلادَ، وذهبت بفيصلٍ إلى مصر أسيراً ، إلا أنه عاد بعد ذلك ، فاسترجع البلاد وحكمها حكماً مستقراً زُهَاء أربعة وعشرين عاماً .

وبعد وفاته اضطرب زمام الأمن وتمزق حكم آل سعود وصار بعضهم يقتل بعضاً على الحكم ، ثم نازعهم آلُ الرشيد على ذلك ، واستقل هؤلاء بالبلاد فترة ، طُمِست بعدها تلك الحِقْبَة المظلمة بقيام الموحد الكبير لأجزاء المملكة السعودية الحديثة الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن.

بدأ عهد جلالة الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن من استيلائه على مدينة الرياض عام ١٣١٩ هـ ، فكان يلقب إذ ذاك « سلطانَ نجد وملحقاتها » إلى أن تم فتح مكة واستتب الأمر فى سائر أنحاء المملكة المعمورة ، بحدودها الحالية ، فأُطْلِقَ على جلالته [لقب] « ملك المملكة العربية السعودية » بعد أن أُطْلِقَ ذلك الاسم على المملكة نفسها عام ١٣٥١ هـ .

ولقد سار رحمه الله بالبلاد سيرة أسلافه الصالحين ، فبنى سياسة الدولة على أساس دينى ، يُحَكِّمُ كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نبيه فى دقيق الأمور وجليلها ، مستعيناً فى ذلك بأحفاد إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

أيها السادة :

وما أظننا فى حاجة إلى أن نتحدث عن الأمن والرخاء اللَّذَيْنِ سادا البلاد فى عهده وعهد أبنائه [البررة] .. الذين خَلَفُوهُ بعد انتقاله إلى رحمة الله عام ١٣٧٣ هـ ، وما قاموا به من إصلاحات شملت كل جانب من جوانب

الحياة ، ونال بها كلٌّ فرد من السعادة مالم ينله أمثالهم من غير أبناء هذه البلاد ، الأمرُ الذي يستوجب منا الشكر الجزيل لله ، كما يوجب علينا الإخلاص والنصح لهم والتفانى فى مساعدتهم بجهودنا الفردية ، التى تكوّن فى حقيقة الأمر المجهود الجماعى .

غير أنَّا نود أن نشير هنا إلى أنه تَمَّ على يد المغفور له الملك عبد العزيز وأبنائه [البررة] إدخال كل ما استحدثه العلم الحديث .. ضرورياً وكمالياً مما لابد لكل أمة تَنْشُدُ المستقبل الأسعد كأمتنا ، من الأخذ به .. كاستخراج البترول ، والبرق والهاتف والإذاعة والتليفزيون والقطار ، والسيارات والطائرات والكهرباء والمطابع والصحف ونشر التعليم والمستشفيات ، وأدوات الزراعة وتعبيد الطرق ووسائل الإنشاء والعمران ، مما لا يتسع المجال لِعَدِّهِ فضلاً عن التفصيل فيه .

وقد كانت العناية بالتعليم والقضاء على الأمية من أخص الأمور لدى جلالته وأبنائه الأماثل ، فقد فتح الباب على مصراعيه للوسائل التثقيفية والتعليمية .

كالإكثار من المدارس والبعوث العلمية والفنية .

واستقدام ذوى الخبرات والكفاءات من الخارج .

وإفساح المجال للصحف وإعطائها الحرية الكاملة .

والإكثار من طبع أمهات الكتب النادرة وتوزيعها مجاناً .

وإفساح الطريق للكتب الواردة ثم تتويج تلك الجهود بإنشاء مجموعة من مراكز التعليم العالى ، « ككلية الشريعة بمكة ، والكليات والمعاهد العلمية بالرياض ، وجامعة الرياض ، والجامعة الإسلامية بالمدينة ، والجامعة الأهلية بجدة وكلية البترول فى الظهران والكليات العسكرية الكثيرة .

وما زالت البلاد ولله الحمد تستقبل من الأعمال الإصلاحية الجليلة على يد زعيمها وقائد مصلحيها ورائد نهضتها جلالة الملك فَيْصَل ماسيوصلها إن شاء الله إلى ما تَنْشُدُه من تقدم ورقى فى عهده المبارك .

* * *

تلك لمحة خاطفة عن تاريخ نَجْد التى قادها الإمام المصلح والمجدد الأول الإمام محمد بن عبد الوهاب . بثورته التى غيرت وجه التاريخ لافى جزيرة العرب وحدها ــ بل فى جميع أنحاء العالمين العربى والإسلامى ، وذلك لكونها أول حركة فى تاريخنا الحديث ، قامت لمحاربة أنواع الفساد وضروب الظلم والاستبداد الذى خيم على الأمة العربية والإسلامية إبَّانَ عصور الانحطاط ، وسيطرة العثمانيين على مقدراتها [فى كل المجالات] .

فما نصيب الشعر فى تلك النهضة وأى سهم ضَرَبَ به فى ميدانها المقدس ؟ ؟ .

[ذلك ما سنحاول كشف السر عنه فى كلماتنا التالية] .

الشعر فى نجد

مابين منتصف القرن الثانى عشر ومنتصف القرن الرابع عشر

أيها السادة الكرام :

إن الحديث عن الشعر والشعراء حديثٌ عن الفن والجمال ، والسحر والخيال حديثٌ عن الفن الرفيع والتصوير البديع .. لكل ماهو كامن فى خفايا النفوس البشرية من أحاسيس ومشاعر مختلفة .. امتدت إليها ألسنةٌ سبقت وفاقت ريشةَ الرسام فى جمال تصويرها وفتنة سحرها .. ألسنةٌ تَقْتَدُّ ألفاظَها من الصخور تارة ، وتغترفُها من الغَدِير المشمول[1] تارة أخرى .. فتضعها فى ثياب العواصف والأعاصير العاية ، أو تستعيرُ لها قميص النسيم الهادىء العليل ، أو تختطف معانيها من الوجوه المتقلبة .. لصور الحياة المختلفة المملوءة بالمفاجآت والأحداث ـ فأخرجت تلك المشاعرَ والأحاسيسَ مرة فى صُوَرٍ غاضبة مكفهِرَّة كالهجاء والوعيد ، وأخرى مترفعة ، تتهادى إليك متبخترة ، تحوطها هالة من الكبرياء والخُيَلاء ، وتلك صورة الفخر والمديح [والإطراء] ، ثم تظهر لك على خشبة ذلك المسرح صورةٌ كلها أناقة وظَرْفٌ ورشاقة وخفة صورةٌ تُوَرِّدها لواعجُ الشوق ، وتَلُوح على شفتيها ابتسامةُ اللقاء ، وتُظَلِّلُها إشراقةُ الأمل . وتلك هى صورة الغزل والآمال فى المستقبل .

وقد تبدو لك صورةٌ باكية حزينة ، تذيب القلوب بنار الحزن والألم ، فتَسِيلُ أنَّاتُها دموعَ العين ، وتعقد حسراتُها العبراتِ فى الصدور ، وتلك هى صورة الرِّثاء والحب المعقد المقيد بالظروف والملابسات .

---

(١) المشمول : المرضى ، والذى يشبه ماؤه « الشَّمُول» وهى الخمر .

أو تظهر لك الصورةُ فى ثياب الناصح أو الزاهد القانع ، وذلك هو شعر الحكمة والزهد .

وقد تقوم الصورة مقام الرسام ، فتصوِّرُ لكَ شيئاً من جوانب الحياة ، حتى ترى فيها من الأشياء ماغاب عنك ، وذلك هو شعر الوصف .

صورٌ أجمل من الجمال ، وأى جمال بعد التلذذ بالجمال ، إن لم يكن هو ؟ .

أيها السادة :

وإن من السهل جدًّا أن يتحدث المرء عن نجدٍ .. شعرها وشعرائها ـ من أيام الجاهلية إلى نهاية العصر الأول من أيام العباسيين ـ إذ كانت فى تلك العصور مَنبِتَ الشعر ومُسْتَوْحَى الشعراء ، ومَجْلَى صور عرائس الشعر ، ومسرحَ الفُصْحَى الذى نَمَتْ وتدرجت فيه ، ثم آوت إليه حينما هاجمتها جيوش اللحن من كل صَوْبٍ وناحية ، فاحتضنتها وصانتها حتى تلقفتْ منها أَفْوَاهُ الرواة والعلماء ماتلقفت ، ثم أَوْدَعَتْ بطونَ رمالِ الصحارِى ماتبقى حينما صَدَفَ الخاطبُ الراغبُ ، وعزف الطالبُ ، وصار الناس إلى قولٍ ملحونٍ ، بلسان مَلْكُونٍ .

ومن ذلك التاريخ بدأ الباحثون والدارسون يتعاورون ماتركتْه أعمالُ الرواة والجامعين السابقين ـ من تُراثِ لغتنا وأدبنا ـ بالدرس والتشخيص والتحليل ؛ سواء مَنْ كان منهم فى عصرنا الحديث من العرب والمستشرقين ، أو مَنْ كان منهم فى العصور الماضية .

فما على الدارس فى أيامنا إلا أن يرجعَ إلى مادَفَقَتْهُ أقلام أولئك ، فيغترفَ من معينه مايشفى غُلَّتَه ، ويَروى ظَمْأَتَهُ ـ مما زَخَرَت به كتب الأدب وتاريخه .

غير أن هناك فترة من تاريخ نجد ـ ليست بالقصيرة ـ أحاطها الغموض ،

وا كتنفها الظلام من كل جانب ، حتى بَدَا مَنْبِتُ الفصحى ، وكأنه من المجاهل التى لم يَعْمُرْهَا الإنسان .

وهذه الفترة هى الواقعة مابين العصر الأول من الحكم العباسى وقيام المصلح الكبير الإمام محمد بن عبد الوهاب فىمنتصف القرن الثانى عشر ،

ومن الطَّبَعِىِّ ـ والحال هذه ـ ألاَّ يُعْرَف عن أمر الشعر فى هذه البلاد ـ نجد ـ شىء فى تلكَ الفترة ، إلا أن النفس أبت أن تسلِّم بموت الشعر فى بلادٍ هى التى أنجبته وأرضعته لما امتازت به طبيعتها [التى طالما] صَبَغَتْ أفصح الشعر فى كل صقع من الأرض وفى أى زمان ـ قرب أم بعد ـ [بأبدع الألوان والصور] .

وهل أدل على ذلكَ من أننا لو تتبعنا شعر فحول شعراء العربية فى مختلف الأزمنة والأمكنة ، لوجدنا أنه لم يَخْلُ شعر واحد منهم من ذكر نجد كثر أم قل .

فأمَّا مِنَ القديم : فاسمع قول [الشاعر] الأموى وهو غيض من فيض :

أَخَا الْعُرَيْبِ أَمَا تَنفكُّ بَارِقَةٌ ... تَسْمُو بِطَرْفِي إِلَى رَيَّانَ أَوْ حَضَنِ (١)

أَصْبُو إِلَى أَرْضِ نَجْدٍ وَهْىَ نَازِحَةٌ ... وَالْقَلْبُ مُشْتَمِلٌ مِنِّى عَلَى الْحَزَنِ (٢)

وَأَسْأَلُ الرَّكْبَ عَنْهَا وَالدُّمُوعُ دَمٌ ... بِنَاظِرٍ لَمْ يَخِطْ جَفْنًا عَلَى وَسَنِ ؟ (٣)

فَهَلْ سَبِيلٌ إِلَى نَجْدٍ وَسَاكِنِهِ ... يَهُزُّ مَنْ أَلَّفَ الْمِصْرَيْنِ لِلضَّغَنِ ؟ (٤)

(١) العريب : تصغير « العرب » ، وريان وحضن ـ بالتحريك ـ جبلان ـ الأول بالحجاز والثانى بنجد .

(٢) نازحة : بعيدة . (٣) الوسن : النوم .

(٤) المصران : الاقليمان . . يعنى نجد والحجاز ، والضغن : الحقد والكراهية .

وأما من الحديث فهذا حافظ إبراهيمُ مثلا يقول فى مبايعته لشوقى بإمارة الشعر :

فَغَنِّ رُبُوعَ النِّيـلِ وَاعْطِفْ بِنَظْرَةٍ
عَلَى سَاكِنِ النَّهْرَيْنِ وَاصْـدَحْ وَأَبْدِعِ (١)
وَلاَ تَنْسَ نَجْداً إِنَّهَا مَنْبِتُ الْهَوَى وَمَرْعَى الْمَهَا مِنْ سَارِحَاتٍ وَرُتَّعِ (٢)

نخص نجداً ببيتٍ كامل بينما لم يعط غيرها إلاَّ شطراً [واحداً] !!!

أيها السادة :

ولقد أثبتتْ لى وُرَيقَاتٌ عَثَرْتُ عليها فى بقايا كتب جَدِّى محمد بن حسين ابن سلطان ـ رحمه الله ـ [بعد أن] عَبِثَتْ بها يد الإهمال ـ: أنه كان يسعى إلى تأليف كتاب عن تاريخ هذه البلاد (نجد) خاصة تلكَ الفترة التى أهملها فيها التاريخ معتمداً فى ذلك ـ كما قال ـ على ما جَمَعَ ، وما سيَجْمَعُ من الأخبار التى شرع فى تتبعها و نقلها من الصخور والأحجار .

غير أنى لم أجد مما كتب جَدِّى إلا ورقتين [اثنتين] إحداها قطعة من المقدمة ،والأخرى ـ لحسن الحظ ـ تحوى نصًّا من النصوص التى ذَكَرَ أنه قد شرع فى نقلها من الصخور .

وإنى لَمُورِدٌ لكم ـ أيها السادة ـ جزءاً من تلك المقدمة ، لما فى إيرادها من الإيضاح لأمر ذلك النص الذى نقله :

« بعد حمد الله و الثناء عليه والصلاة على المصطفى » ثم بعد إيضاح الأسباب التى حملته على الإقدام على مثل هذا العمل الشاق ، وأهمها : نسيان التاريخ نجداً

---

(١) النهران : دجلة والفرات .. يعنى وادى العراق .

(٢) المهـا : جمع مهاة ، وهى البقرة الوحشية .

فى عصورها الوسطى ، وهى مابين العصر العباسى الأول وقيام الإمام المجدِّد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله رحمة واسعة .

قال : « ومن أجل ذلك استعنت القوىَّ القهَّار ، على جمع مابعثرتْه يد الأقدار ، من أخبار هذه الديار ، مما رواه الإنسان أو نُقِش على الأحجار .. طالباً من المَلِك العلاَّم ـ كما منَّ بحسن البدء ـ أن يَمُنَّ بحسن الختام » .

النص الأول :

وهو منقول من صخرة(ا) فى شِعْبِ العَبَّادِيِّة بالقرب من « الْعَوْدَةِ » (إحدى قرى إقليم سُدَيْرٍ) ، ولقد عَبِثَتْ أيدى الرعاة فى النص فلم أتبين منه إلا نَزْراً يسيراً .

والنص ـ كما يبدو ـ (والعلم لله) عبارة عن قصيدة عربية ، ومقدمة وتاريخ يبينان زمن وسبب القصيدة .

النص :

« الْيَوْمُ الخامسَ عَشَرَ من ربيع[1] عام ستة وتسعين وسبعمائة من هجرة سيــــد » .

ثم انطمس الكلام فى مساحة يمكن أن تشغل موضع عشرة أسطر من الحجم المتوسط ، بعدها فهمت من المرقوم مايلى :

(ا) وقفت على هذه الصخرة فوجدت ماعليها طمس إلاَّ بقايا من حروف مقطعة ، وهى صخرة طولها ثلاثة أمتار وعرضها متران .

(١) لم يذكر المؤلف — أى الربيعين هو ؟ هل ربيع الأول ، أم ربيع الثانى ؟؟ .

النص :

(بعد ماجُزِرَ مَنْ جُزِرَ ، وَأُسِرَ مَنْ أُسِرَ ـ قال) :

ولم يتبين من اسم الشاعر إلاَّ (ن ـ ز) .

أما القصيدة فتقارب الثلاثين من الأبيات [و] جميعها بأيدى الرعاة [وقد] صارت من الأموات اللَّهُمَّ إلا الشطرين الأول منها والأخير ، وفى ذلك عبرة لأولى البصائر .. وهذان هما الشطران :

(١) «هَرَقْنَا عَلَى قَبْرِ الْأَمِيرِ دِمَاءَهُمْ » . . . .

والأخير . . . . . « فَمَا فِي فِنَاءِ الْأَقْرَبِينَ فَخَارُ »

انتهى ماوجدته مما كتبه جدِّى رحمه الله .

وفى اعتقادى أن هذا ليس هُو كلّ ما كتب ، وذلك لأمرين :

أحدهما : أن الأَرَضَةَ[1] قد أتلفت كثيراً من كتبه .

والثانى : أن طلاب العلم ورُوّاد المعرفة كانوا يَؤُمُّون تلك البقعة من نجدٍ ليحصلوا منها على الكتب والمخطوطات النفيسة .. لاشتهارها بينهم بذلك ولكثرة من برّزَ فى العلم من أبنائها .

وقد أشار إلى ذلك المستشرق عبد الله فِلْبي فى كتابه «تاريخ نجد» ص ٢٠ حينما عرض ذكر سُدَيْرٍ فى خبر غزوالشريف سُرُورٍ ابن أخى الشريف سَعْدِ ابن زَيْدٍ أمير مكة .

---

(١) الأرضة — بالتحريك — : دوبية معروفة تأكل الأوراق والمنسوجات الخفيفة .

قال فِلْبى[1] : « ومن الغريب أن لدينا عن سُدَيْرٍ تفاصيلَ تاريخية واسعة لأن معظم المؤرخين والفقهاء فى تاريخ السعودية كانوا من سُدَيْرٍ نفسها ، أو من البلاد المجاورة لها » .

أيها السادة :

فأين هى تلك المخطوطات الضخمة الكمية التى ذكرها فلبى .. إن لم تكن يد السرقة والإهمال قد عبثت بها ؟

حقيقةٌ أنه كان هناك مكتبات ضخمة ومتعددة ، فى تلك المنطقة وغيرها .

منها على سبيل المثال : المكتبة التى أهداها العالِمُ ابنُ سَيْفٍ شيخُ الإمام محمد بن عبد الوهاب إلى بلدة « المجْمَعَةِ » .

ومنها مكتبة المؤرخ عثمانَ بنِ بِشْرٍ ، التى كانت موجودة عند أحفاده الأُمّيّين قبل ثلاثين عاماً تقريباً ، ثم مكتبات ابنِ منصور وابن سَلُّوم والمنقود ، وغيرُهم كثير ، فأين هى تلك المكتبات ؟

ومما تقدم يتضح لنا أن نَجْداً لم تكن متفرةً من الأدب ، خاليةً من الشعر فى تلك الفترة التى أهملها فيها التاريخ ، لكنَّ رُوَاةَ الخبر ومُسَجِّلِي الأثر هم الذين أغفلوا ذكر نَجْدٍ ، حتى بدت وكأنها من مجاهل إفْرِيقِيَّة التى لم يكن لها فى التاريخ نصيب .

إلا أن نجداً وهى مهبط البطولات ، ومنبت الأمجاد أبت إلا أن تحمل مِشْعَلَ الهداية ، لتقود العالَمَينِ العربىّ والإسلامىّ ـ على الضوء الإلهى ـ

---

(١) مستر عبد الله فلبى ـ رجل انجليزى أسلم ، وعمل مستشاراً لجلالة الملك عبد العزيز بن سعود رحمه الله ، وله مؤلفات عن البلاد العربية ، وفيها كثير من خبرته عنها .

إلى شاطىء السلام وبر الأمان فى ظلال سُنَّة صفوة الخلق عليه أشرف الصلاة والسلام .

أيها السادة :

إن الحديث عن هذا الموضوع يطول بنا لو تركنا للنفس فيه العنان .. لأنه حديث التراث الضائع ، والأثر المطموس ، لكننا نتركه والنفس تنازعنا إليه لأننا شططنا عن موضوعنا الرئيسى .

أيها السادة :

ذلكم ما كان من أمر الشعر قبل النهضة فى هذه البلاد « نجد » فما حاله بعد قيامها .

عندما نتبين أهداف الدعوة ومقاصدها ، يظهر لنا واضحاً جليًّا أنها إنما قامت من أجل تجديد ملة المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وتنظيف الإسلام من رواسب العقول الفاسدة التى تعاورته فى عصوره المختلفة ، منذ بدء الخوض فى مسائله فى أواخر عهد بنى أمية ، إلى قيام المصلح الأول محمد بن عبد الوهاب .

ومن هذا العرض السريع لأهداف الدعوة يتبين لنا أنها إنما كانت تُعْنَى بالجوانبِ العلمية البحتة ، لكونها أساس ماقامت الحركة من أجله ، فلا ضير عليها إذاً .. إن هى لم تؤثِّر فى الشعر أول الأمر تأثيراً مباشراً [على] خلاف ما كان بالنسبة للخطابة وكتابة التأليف .

أضف إلى ذلك أن الشعر [كان] عند الكثير من العلماء غير مرغوب فيه ، بل ربما عده بعضهم من الأمور المزرية بالعالِم .

ولعل نشوء تلك النظرة كان مَصْدَرَه أمورٌ أهمها :

١ — تعريضُ القرآن الكريم بالشعر فى قوله تبارك وتعالى : (وَالشُّعَرَاء

يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ؟)[١] .

٢ ـ الأثر الوارد : (لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا [حَتَّى يَرِيَهُ] خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا)[٢] .

٣ ـ أنَّ كثيراً ممن طرقوا سبيل الشعر ، وامتهنوا القول فيه كانوا من المتطرفين المتساهلين[٣] .

على أنه لم يكد يمضي العهد الأول من النهضة حتى ظهر من العلماء من استخدم الشعر فى :

١ ـ رد شُبَهِ المشبِّهين ، من الشعراء الذين استخدمتهم الدولة العثمانية وغيرُها من المعادين .. لتشويه الدعوة الَّتى حمل النجديُّون لواءها ، وباعوا فى سبيلها أرواحهم وأموالهم .

يوحى بذلك جليًّا هُتَافُهم « هبتْ هُبُوبُ الجنة وينَكْ يَا بَاغِيهَا »[٤] .

٢ ـ أو التذمر والشكوى مما أصاب البلاد من المِحَنِ والإِحَنِ والرزايا الجسيمة الَّتى جرَّها الأتراك والمصريون والجيوش الجَرَّارة الَّتى جندوها للقضاء على الوهابية والوهابيين .. على حد تعبيرهم .

---

(١) الآية ٢٢٤ من سورة الشعراء .

(٢) ما بين المعقوفين زيادة من كتاب « النهاية فى غريب الحديث الأثرى » لابن الأثير (٤ : ١٣٠) .

(٣) .. أى : فى جانب الخلق والدين كأبى نُواسٍ وبشارِ بن بُرْد وحمادِ عَجْرَدٍ وأضرابهم .

(٤) وينك : عامية محرفة عن « أينك » ؟ ، وصحتها : أين أنت؟ ، وباغيها : طالبها وراغبها .

ومن أوائل شعراء العلماء :

١ — عبد العزيز بن طوق : ذكره الشيخ عبد اللطيف بن عبدالرحمن آل الشيخ عرضاً فى ترجمته لعبد العزيز بن حمد بن ناصر بن معمر فى كتابه (منحة القريب المجيب فى الرد على عُبَّاد الصليب) .

ولتأليف ابن مُعَمَّر لذلك الكتاب حكاية طريفة ذكرها لى بعض الفضلاء(١) قال :

كان المندوب السامى البريطانى فى البحرين قد كَتَبَ كتاباً عن حقائق المسيحية ومحاسنها ، على حد تعبيرهم ، ثم دفع به إلى علماء البحرين ، وقال لهم : هذه هى المسيحية ، فإما أن تقروا بها وتعتنقوها ، وإما أن تردوا عليها ، ولم يكن لدى القوم من المعرفة مايؤهلهم لذلك ، فلجأوا إلى شاب من نَجْدٍ قال بعضهم : إنه هو الذى سيجيبُ على هذا ، وكان هذا الشاب هو عبد العزيز بن معمر ، وحينما طلبوا منه ذلك استمهلهم شهراً ، ثم أعطاهم هذا الرد :

وكان إذْ ذَاكَ فى البحرين وسَمَّاهُ :

(منحة القريب المجيب فى الرد على عباد الصليب) .

فلما قَدَّموه إلى المندوب السامى قال بعد اطِّلاعه عليه : « هذا ليس من بحركم إنه من بحر أهل نجد » .

وعبد العزيز بن طوق ـ على مايبدو ـ ليس بالضعيف .. إلا أنه مُقِلٌّ ، ولم أعثر له إلا على قصيدة واحدة بعث بها إلى الشيخ عبداللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ طالباً الإجابة عليها ، وكان عبد العزيز ـ إذْ ذَاكَ ـ فى الأحساء ، ومنها :

رَسَائِلُ شَوْقٍ دَائِمٍ مُتَوَاتِرِ إلَى فَرْعِ شَمْسِ الدِّينِ بَدْرِ المَنَابِرِ(١)

---

(١) هو الزميل الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم .

(١) ستأتى القصيدة كلها فى أواخر الكتاب .

سُلاَلَةُ مَجْـدٍ مِنْ كِرَامِ عَشَائِرٍ يُعِيدُ بَدِيعاً مِنْ كُنُوزِ المَحَابِرِ

وفى آخرها يقول :

فَجُدْ لِي بِرَدٍّ مِنْكَ تَبْرُدُ لَوْعَتِي وَيُحْدَى بِهِ فِي كُلِّ رَكْبٍ وَسَامِرِ
وَتَنْصُرُ خِلاًّ فِي هَوَاكَ مُبَاعِداً وَلَوْلاَكَ لَمْ تَعْبَثْ بِهِ أُمُّ عَامِرِ

٢ — ومنهم الشيخ الجليل عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد ابن عبد الوهاب المعروف بالأزهرى .. لكونه درس بالأزهر إبَّانَ احتجاز المصريين لأبيه هناك .

وقد بقى بعد عودة أبيه إلى نجد ليستكمل دراسته على بعض شيوخ الأزهر الذين كان يطمئن إلى الأخذ عنهم .. على أنه قد عاد بعد فترة ليواصل جهاده مع أئمة الدعوة هنا ، إلى أن توفى عام ١٢٩٣هـ.. رحمه الله رحمة واسعة .

و [كان] الشيخ رحمه الله كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً .. إلا أننا لم نعثر له من الشعر إلا على القليل غير أن هذا النَّزْرَ على قلته : كاف للدلالة على أن الشيخ قد تأثر برجال الطبقة الأولى من شعراء مصر الذين يحتمل أن يكون قد قرأ لهم .

والذى وجدناه من شعره قصيدتان وقِطَعٌ من الأبيات المتفرقة .

فأما القصيدتان ، فإحداهما جواب على القصيدة التى بعثها عبد العزيز بن طوق الذى سبقت الإشارة إليه ، والثانية فيها نصح وإرشاد ، كما تحوى - كالتى قبلها - وصفاً لما جرَّتْهُ الجيوش المُخَرِّبة من ويلات على الإسلام والمسلمين ، [وتسجيل ما كانت] عليه [تلك الجيوش] من فسق وفجور .

والقصيدتان طويلتان ، وتدلان على طول نَفَسِ الشيخ ، وعَدَدُ أبيات الأولى سبعون بيتاً ، والثانيةُ سبعة وستون بيتاً ، وإنا لموردون لكم أبياتاً من

الأخيرة ، وإن لم تكن أجود من سابقتها ـ وهما موجودتان فى (كتاب الدرر السنية فى الأجوبة النجدية) جمع فضيلة الشيخ عبد الرحمن بن قاسم ـ قال :

دَعْ عَنْكَ ذِكْرَ مَنَازِلٍ وَمَغَانِى ... وَبُدُورِ أُنْسٍ قَدْ بَدَتْ وَغَوَانِى
وَجَآذِرٍ فِى رَوْضَةٍ يَشْدُو بِهَا ... صَوْتُ النَّدِيمِ وَشَادِنٍ فَتَّانِ
لاَ تُصْغِ لِلْعُشَّاقِ سَمْعَكَ إِنَّمَا ... نَادِيهِمُ بَيْنَ الْبَرِيَّةِ عَانِى(1)
وَالْعِشْقُ دَاءٌ قَاتِلٌ وَدَوَاؤُهُ ... فِى السُّنَّةِ الْمُثْلَى مِنَ الْأَعْيَانِ

٣ — ومنهم الشيخ سليمان بن سَحْمان :

ولقد كتبت عنه ترجمة مبسوطة إلا أن زمن المحاضرة فرَضَ عَلَيَّ تَرْكَها والاكتفاء بإشارة عابرة عنه رحمه الله .

وقد ولد بأم سِقَا من قرى تَبَالَةَ بعسير ، ثم انتقل مع أبيه مهاجراً إلى نجد وهنا ـ بمدينة الرياض ـ نشأ ، وأخذ العلم عن مشاهير العلماء ، ومنهم الشيخ عبد اللطيف بن عبدالرحمن ـ وقد قضى حياته رحمه الله مكافحاً وذابًّا عن السنة ورجالها ، كما أثبتت ذلك مؤلفاته التى جاوزت أحد عشر [مؤلفاً] .

وتوفى رحمه الله بمدينة الرياض عام ١٣٤٩هـ .

ولقد استَخْدَمَ ـ رحمه الله ـ النَّظْمَ فى كل ماخطر بذهنه من ردود وغيرها حتى فى تعليم الكتابة كقوله :

أَكْتُبْ كَكَتْبى كَمَا قَدْ كُنْتُ أَكْتُبُهُ
كَتْباً كَكَتْبى لِهَذَا الْكَتْبِ فِى الْكُتُبِ

---

(1) فى الأصل : « مناديهم » بدل « ناديهم » وعليها ينكسر البيت ويصبح الشطر الثانى من الطويل .. مع أن القصيدة من الكامل .

كَذَاكَ كُنَّا فَكُنْ فِي الكُتْبِ كَيفَ تَكُنْ
إلاَّ تَكُنْ كَيفَ كُنَّا كُنْتَ ذَا كَأَبِ
سَطْرٌ بِسَطْرٍ كَهَذَا السَّطْرِ أَسْطُرُهُ
سَطْراً سَلِيمًا سَوِيًّا تَسْمُ فى الرُّتَبِ
حَرْفٌ بِحَرْفٍ عَلَى حَرْفٍ كَأَحْرُفِهِ
وَاحْذَرْ مِنْ الْحَيْفِ فِي حَرْفٍ بِلاَ سَبَبِ

ومنها :

يَا صَاح إنْ كُنْتَ صَاحٍ قَدْ تَحَصْحَصَ مَا
حَصْحَصْتَهُ مِنْ صَحِيحٍ غَيْرِ مُضْطَرِبِ
فَاعْلَمْ كَعِلْمِي بِتَعْلِيمِي لِتَعْلَمَهُ وَتَعلَمَ الْعِلْمَ عَنْ عِلْمٍ بِلاَ تَعَبِ

أيها السادة :

كنا ذكرنا قبل قليل أن ماجرى على ألسن بعض الملحدين من الشعراء من القدح والتعريض بالدعوة وأئمتها ، كان سبباً فى جر العلماء إلى سبيل الشعر ، وقد كانوا عنه من العازفين تورعاً ، فتجشموا مسلكه الوعْر ، ولسان حالهم يُنْشِدُ قول الشاعر :

إِذَا لَمْ يَكُنْ إلاَّ الأَسِنَّةُ مَرْكباً فَمَا حِيلَةُ المُضْطَرِّ إلاَّ رُكُوبُهَا

وحينما طرقوا الشعر مدفوعين جالُوا فى كثير من الأغراض التقليدية التى طرقها قبلهم السابقون ، إلاَّ أن غرضاً واحداً قد استأثر باهتمامهم .. حتى اقتصر عليه الكثيرون منهم .

ذلك الغرض هو مايسميه شيوخنا بالشعر التعليمى .

من أجل ذلك وجدنا أنه أوفر الأغراض عندهم حَظًّا ، وأحظاها بينهم منزلا ، وأملكها لِوِجْدَانِهم ، وأقواها على قلوبهم وألسنتهم سلطاناً ، حتى سبقوا فيه القائلين ، وبَزُّوا الأولين والآخرين ، فسمَوْا بقولهم عن الهجاء ومناهجه المبتذلة ، واقتصروا فى نظمهم على بيان أصول الدعوة وفروعها ـ المستمدة من المنبع الصافى الذى فَجَّره للإنسانية خَاتَمُ الرسل المصطفى عليه الصلاة والسلام دون ماغُلُوٍّ أو تطرُّفٍ ، بل وَسَطٌ بعيدٌ عن التفريط والإفراط ، كما هو مذهب الصالحين من السلف الأولين ، كابن تَيْمِيَّة وأمثاله من أئمة المسلمين .

غير أن مثل هذا النمط من النظم لا يمكننا القول بأنه شعر إذْ لم تتحقق فيه جوانب التعريف جميعُها .

صحيح أنه كلام موزون مقفى ، ولكن ليس هذا هو كلّ التعريف عند علماء العرب ممن يُعتَدُّ برأيه ، [إذْ] أنهم يعرِّفُون الشعر بقولهم : (هو الكلام الموزون المقَفَّى المنبعث عن عاطفة ، والمثير لعاطفة ممتزجاً بالخيال) .

وبناء على هذا التعريف [نرى] أن ماقاله الكثير من أولئك العلماء ، إنما هو من قَبِيلِ النظم .. لا الشعر ، لكونه يفتقر إلى جزء هام من التعريف هو [عبارة] « المنبعث عن عاطفة والمثير لعاطفة ممتزجاً بالخيال » .

وثانى الأغراض عندهم هو المديح والتهانى ، ولما لم يكن الشعرُ لذاته ، ولا المادةُ .. من مقاصدهم ، فإننا نجد أن شعر المديح عندهم ينقسم إلى قسمين :

١ — أحدهما مدح العلم وبيانُ شرفه ، وفضيلة العمل والتعب فى تحصيله ، ومدح الدعوة ، وماقامت عليه من أساس متين ونهج قويم .

٢ — وثانيهما مدح أئمة الدعوة وقادتها المحتَسِبين الصابرين ، والثناء عليهم بما بذلوه من نَفسٍ ونفيس فى سبيل أن تكون كلمة الله هى العليا ، وكلمةُ الذين

كفروا السُّفْلَى، وتهنئتهم بما حقق الله على أيديهم من النصر والتمكين .. مما أعزّ الله به جنده، وأبطل به كَيدَ الكائدين.

وصدق الله العظيم فى قوله : (وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ)[1].

وثالث الأغراض عندهم : الرثاء، وهو أقل عندهم من سابقَيه إلاّ أنهم قد رَثَوْا فيه أعلامهم وديارَهم المنكوبة، ومرابعَ العلم الدوارس ومراتِعَه المهجورة.

ورابع الأغراض هو الغزل، ولقد كان شعراء الدعوة أمام هذا الغرض الشعرى الأصيل بين عاملين قويين متضاديين [هما] :

١ — طبيعة الدعوة التى لا تحتمل التفرغ لمثل هذا الغرض الطروب[2].

٢ — طبيعة الشعر والشعراء التى تميل إلى كل ما يَهُزُّ النفس، ويطرب القلب ويفسح مجال الخيال .. للتلاعب بشتى صور الجمال .. على لوحة الوَامِقِ الوَالِهِ، بريشة المُجنَّحِ بالخيال.

ولقد وجد شعراء الدعوة من ذلك مَخْلَصاً كالذى سنّه لهم كعب[3] ابن زهير - رضى الله عنه - فى صدر الإسلام من افتتاحه مدح النبى صلى الله عليه وسلم بالغزل فى مثل قوله :

---

(١) الآية ٤٠ من سورة الحج.

(٢) الطروب : المحزن والمفرح، والمراد هنا : الثانى.

(٣) هو كعب بن زهير بن أبى سلمى - الشاعر المخضرم المشهور، وكان معاديا للرسول ثم أسلم مستشفعاً بقصيدته « بانت سعاد » فصفح عنه الرسول وتقبله، وقد توفى سنة ٢٦ هـ / ٦٤٥ م.

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ[1]

وكذا حسان بن ثابت[2] ـ رضى الله عنه ـ فى مثل قوله .

تَبَلَتْ فُؤَادَكَ فِي الْمَنَامِ خَرِيدَةٌ تَسْقِي الضَّجِيعَ بِبَارِدٍ بَسَّامِ[3]

لذلك جالوا فيه وصالوا ، حتى بلغ من إكثارهم فيه أن الناظر فى شعرهم ، غير المتأمل لأحوالهم ، يخيل إليه أنه غرض مقصود عندهم لذاته [على] رغم أنه نسيب قُصِدَ به محاكاة الأقدمين .

ولقد تتبعت باستقصاء كلّ ماعثرتُ عليه مما قالوه من الغزل المستقل عن كونه مقدِّمَةً لغرض آخر « أى : نسيباً » فما وجدتُ من ذلك إلا قصيدتين للشيخ محمد بن بليهد دُفِعَ إلى قولهما ، وهو شيخ فى الثمانين ، وسوف يأتى الحديث عنهما فى ترجمته .

تلكم أيها السادة هى أهم ماطرقه شعراء تلك الفترة من أغراض الشعر أوجزنا فيها القول .

وهناك من الأغراض ماضربنا عنه صفحاً .. إما لكونهم لم يطرقوه مستقلا

---

(١) بانت : فارقت ، ومتبول :مصاب ، ومتيم : هائم فى حبها ، ومكبول مغلول مقيد .

(٢) هو الشاعر المخضرم حسان بن ثابت الأنصارى ـ أحد أعلام الشعراء من صحابة رسول الله ﷺ ، وقد عاش فى الجاهلية ٦٠ عاما اتصل فيها بالغساسنة ملوك دمشق تحت نفوذ الروم ، وعمر فى الإسلام ٦٠ عاما أخرى فى كنف الرسول ومن بعده ، وقد توفى رضى الله عنه سنة ٥٤ هـ / ٦٧٤ م .

(٣) الخريدة : كالخريد والخرود ـ : البكر ، أو الخفِرَةُ .. الصامتة ، وباء الجر فى « ببارد » : زائدة داخلة على المفعول به .

كالفخر ، فقد تناوله البعض منهم كابن عُثَيْمِينَ تناولاً خفيفاً ، ومن ذلك قوله :

وَدُونَكَهَا وَلاَّجَةً كُلَّ مَسْمَعٍ يُقَالُ إِذَا تُتْلَى : كَذَا يَحْسُنُ الشِّعْرُ
بِكَ افْتَخَرَتْ فِي كُلِّ نَادٍ وَمَحْفِلٍ وَكَيْفَ وَأَنْتَ الْفَخْرُ مَا فَوْقَهُ فَخْرُ ؟

أما الهجاء فقد ربأوا بأنفسهم عن أن تنحط إلى دَرْكِهِ ، ونَزَّهُوا ألسنتهم عن أن تتلوث بأدرانه ، ولِذَا فإنه إذا ماعَرَضَ فى شعرهم أتى على صورة التعريض والتلميح .. لا التصريح ، كما نرى ذلك فى قصيدة ابن سَحْمَان فى الرد على الزَّهَّاوِى[1] ومنها :

أَلاَ بَلِّغَا عَنِّي جَمِيلاً رِسَالَةً فَقَدْ جَاءَنَا بِالتُّرَّهَاتِ الْكَوَاذِبِ
وَفَاهَ بِقَوْلٍ لا حَقِيقَةَ تَحْتَهُ وَلَيْسَ مَقَالُ الْفَدْمِ يَوْماً بِصَائِبِ

ولقد أَلِفُوا ـ رحمهم الله ـ ختام قصيدهم بالصلاة على المصطفى وآله وصحبه والتابعين ، حتى صار ذلك من الأمور اللازمة التى يتحاشى الشاعر إهمالها ، كما هى الحال بالنسبة لشعراء العامِّيَّة .

وتلك عادة وَرِثُوها من شعراء عهود المماليك والأيام التِي تَلِيهِمْ من قبل ومن بعد .

وتلك على أى حال .. ظاهرةٌ محمودة لايضيرها شىء .. إن هى جـدَّت فى عصور التدهور والانحطاط .

أيها السادة :

ومهما قلنا عن الشعر فى تلك الفترة من تاريخ النهضة فى هـذا الرُّبع من بلادنا ، وما بلغه أربابُه به من إحكام وتجويد ، فإنا لانستطيع أن ننكر أنه كان شِعْرَ محاكاة وتقليد فى جملته .

إلا أن أولئك الشعراء ـ رحمهم الله ـ تباينوا تبايناً ظاهراً فى ذلك التقليد

---

(١) هو الشاعر العراقى جميل صدقى الزهاوى أحد الشعراء الملاحـدة فى هذا القرن .

فكان منهم من أشْبَهَ شعرُه عهودَ التخلف . . كابن سحمان ، ومنهم من أشبه شعرُه شعرَ الفحول ، فى عصور الازدهار ، كالشاعر الكبير ابن عُثَيْمِينَ ، ومنهم من كان وسَطاً بين ذلك مثل ابن بليهد .

لكنَّ أحداً لا يستطيع - أيها السادة - أن ينكر أن أولئك السابقين كان لهم فى تقليدهم من الفضل على الشعر فى هذه البلاد ماقد لا يفوز به مُدَّعُو التجديد فى تجديدهم .

فلقد فتحوا - رحمهم الله - للشعر المعاصر فى هذه الربوع أبواباً كانت مستحكمَةَ الحُلْكَةِ والسواد ، وجدَّدُوا له من السُّبُلِ الدوارس والمعالم الرَّوَامِسِ ، والسنَنِ المعطَّلَة ، والمرابع المُهْمَلَة : ماسما بهم إلى مصافٍّ الباعثين المجددين .

أولئك هم السابقون الأوَّلون ، وكفى بالسبق من مِدْحَةٍ ومِنْحَةٍ ، غير أن هناك حقيقةً ثابتةً تَحْسُنُ الإشارةُ إليها قبل أن نغادر بحثنا هذا . . لما بينها وبين شعر أولئك الشعراء من مُتَاتٍ[1] ، وهى أن أولئك العلماء - الشعراء - لم يُقدَّرْ لهم الاطلاعُ على تلكم النهضة الحديثة ، ووسائلها التثقيفية المُنَوَّعة - كالمدارس والمطابع والصحف والمذياع وغيرها - مما له بعيدُ الأثر فى تكوين العقليات المتجَدِّدَة ، ذاتِ النَّتَاجِ الفكرىّ المنطبع بطابعِ العصر الحديث ، الملائم للذوق ، الناشىء فى حضن المُرَبِّيَةِ الجديدة : حَضَارَةِ القرن الرابع عشر « القرن العشرين » .

صحيح أن بعضاً من أولئك أدركوا كثيراً من تلك المظاهر فى أواخر حياتهم مثل ابن بليهد . . غير أنها أدركتهم ولسانُ حالهم يُنْشِدُ مع الشاعر القديم :

---

(١) المتات - بضم الميم بعدها تاء مخففة - : ما يُمَتُّ به . . أى : يُتَوَسَّل كقرابة ونحوها .

وَمَاذَا يَبْتَغِى الشُّعَرَاءُ مِنِّى وَقَدْ جَاوَزْتُ سِنَّ الأَرْبَعِينَ(١)

أو مع ابن بليهد نفسه فى قوله :

وَمَا أَنَا إِلاَّ فى هَوَاهُمْ مُتَيَّمٌ ضَعِيفُ الْقُوَى شَيْخٌ فَهَلْ رَحِمُوا ضَعْفِى ؟(٢)

وسنعرض لقوله فى تلك القصيدة وأختها — بعد قليل — إن شاء الله .

* * *

[بعض مشاهير الشعراء فى هذه الفترة] .

أما الآن — أيها السادة — فسنتحدث عن شاعرين من مشاهير شعراء هذه الفترة :

الأول : الشيخ محمد بن عثيمين :

أيها السادة :

إننا الآن بصدد الكلام عن شخصية ذاتِ شأن عظيم فى تاريخ الحركة الأدبية فى هذا الجزء العزيز من بلادنا .

إنه الشيخ الجليل والشاعر المبدع محمد بن عبدالله بن سعد بن عثيمين ، الذى لو أردنا أن نعطى الحديث عنه حقه لاستوجب الأمر إفراده بمحاضرة خاصة .

ولقد سَبَقَنَا إلى فضل الحديث عنه [أديبان] فاضلان جليلان :

أحدهما الأستاذ سعد بن رويشد ، جامع الديوان ، والذى قدمه بترجمة ضافية للشاعر .

وثانيهما : الأستاذ عبد الله بن إدريس فى كتابه « شعراء نجد المعاصرون » الذى سَدَّ به فجوة عظيمة فى تاريخ الأدب العربى المعاصر .

---

(١) يروى : « حد الأربعين » .

(٢) فى الأصل : « فهل يرحموا » وهو غير جائز عربية ، ولذا أصلحناه وهو أبلغ .

واعتماداً على ماذكره الأستاذان سأوجز القول فى ترجمته ، وإن كانت النفس تنازعنا إلى الإيغال ، لكنَّ الزمن آخذٌ بحُجَزِنا عنه مُكْرَهِينَ .

حياته ونشأته ووفاته :

ينتمى الشيخ محمد بن عثيمين إلى قبيلة الدَّوَاسِر[1] .. إحدى قبائل نجد الواسعة الانتشار ، وقد ولد عام (١٢٧٠هـ) بقرية السَّلَمِيَّة من إقليم الخَرْجِ بنجد ونشأ بها يتيمًا عند أخواله ، حيث تعلم القراءة والكتابة ، على الطريقة المعروفة إذ ذاك ، لكنه بعدهذا أخذ يطلب العلم على بعض العلماء فى عصره ، وفى طليعتهم الشيخُ عبد الله بن محمد الخَرْجِىُّ قاضى السلمية .

وممن أَخَذَ عنهم عَلاَّمَةُ نجد .. الشيخُ محمد بن مانع رحمه الله ، وكان إذ ذاك بقَطَرَ ، ومنهم الشيخ حَمَدُ بن عَتيق بالأفلاج بنجد، وأحمد الجُبَانى بعُمَان.

وكان عهدُ الشاعر عَهْدَ فِتَنٍ ، فلم يستقرَّ به المُقَام فى بلادٍ .. أوَّل حياته فطاف بكثير من البُلدان داخل الجزيرة طلباً للعلم والمال والأمان ، واتصل أثناء تَطْوَافه بكثير من العلماء والأمراء ، مِثْلِ الشيخ قاسمِ بن ثانى حاكم قَطَرَ ، وابنه عَلِىٍّ ، وقد حظى شاعرُنا عندهم بمرتبة النديم الخاصِّ .. لِمَا اشتهر به من علم وأدب وقرضٍ للشعر ، خاصة بالعامِّيَّة .

ثم اشتغل بتجارة اللؤلؤ ، فتنقَّلَ لذلك الغرض بين قَطَرَ والبحرين .. التى ربطته بحا كمها الشيخ عيسى بن على وابنِهِ محمدٍ : صلاتٌ متينة، وقرباه وأكرماه ووجد منهما خير مُعين .. حينما اشتدت به الضائقة المالية ، وفيهما قال أقْدَمَ شعره الفصيح .

(١) الدواسر ـ فى الأصل ـ : جمع دَوْسَرٍ ، وهو الجمل الضخم .

وحينما فتح الملكُ عبدُ العزيز الأحساء عام (١٣٢١ هـ) وفد عليه الشاعر ومدحه ، فأجزل له العطاء ثم إن الشاعر أُعْجِبَ بما أضفاه الله من ظلال الأَمْنِ الوارف على البلاد .. على يد ذلك [القائد] الفذِّ .. الملك عبد العزيز ، فعزم على الاستقرار بنجد ، واتخذ من موطن آبائه وأجداده « حُوطَةِ بنى تميم » مقَرًّا تنطلق منه قصائده فى الملك وابنه سعود ، فيُجْزِلاَن له فى الهبات والعطايا ، إلى أن تقدمت به السن ، فترك قول الشعر قبيل وفاته بثمان سنوات ، فكان آخرُ شعره فيهما عام (١٣٥٥ هـ) ، ثم انقطع للعبادة إلى أن توفى رحمه الله عام (١٣٦٠ هـ) .. عن ثلاثة وتسعين عاماً ، تاركاً وراءه ذِكْراً محموداً ، وسيرة عَطِرةً ، وجيلاً أيقظ فيه رُوحَ الأدب ، وشعراً مبعثراً ، قام الأستاذ سعد بن رُوَيْشدٍ بجمعه من مظانه ، شكر الله له ذلك الصنيع .

شعر الشيخ ابن عثيمين :

أيها السادة :

الحديث عن شعر الشاعر ابن عثيمين حديثٌ عن العبقرية الفَذَّة والشاعرية المتدفقة ، والعلم الغزير .. حديثٌ عن البعث الجديد للشعر العربى فى مهده الأول من بعد ما زال عنه وتحول ، فأقْوَتْ رُبُوعُه .. بعدما انطفأت شموعه ، فعميت السبيل ، وعز الدليل ، إلى أن جاء الفرج من رب العالمين .. على لسان ابن عثيمين ، بشعرٍ شاعرٍ ، وبيانٍ ساحرٍ ، يُطْرِبُ الأسماع ويمتع النفوس .. شعرٌ جمع بين طَلاَوَةِ الجديد ، وجلال القديم .

فلقد جمع ابن عثيمين أسلوبَ الشعر الجاهلى ولفظَه ، فضمَّنَهُ معانِىَ الدعوة ومقاصدها ، إلى ما غلب عليه من الأخذ من شعر الأقدمين ، فأثار العجب من جمع ما لا يجتمع من مختلف المعانى ، وافتراع المقاصد والأساليب .

وذلك أنه رأى فيهم مثالا يجب أن يحتذى ، فسار على نهجهم ، واستضاء

بهديهم ، فانطبع بطابعهم ، وبالغ فى محاكاتهم ، حتى كادت تلك المحاكاة أن تسيطر على الشاعر سيطرةً كاملة ، لا فى اللفظ والأسلوب فحسب .. بل ، وفى المعانى والأخلية والأغراض .

اقرأ مثلا قصيدته فى مدح الملك عبد العزيز ، وتهنئته [له] بفتح «الأحساء» التى مطلعها :

الْعِزُّ وَالمَجْدُ فِي الْهِنْدِيَّةِ الْقُضُبِ — لَا فِي الرَّسَائِلِ وَالتَّنْمِيقِ فِي الْخُطَبِ

وعدد أبيات [هذه] القصيدة ٤٥ بيتاً .

ثم اقرأ بعد ذلك قصيدة أبى تمام ، التى قالها فى مدح المعتصم وتهنئته [له] بفتح « عَمُّورِيَّةَ » ، ومطلعها .

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ — فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ(١)

إنك حينما تقرأ هاتين القصيدتين لأبى تمام ، وابن عثيمين لابد أن تتبين أن ابن عثيمين لم يخرج عما جاء به أبو تمام ، فالغرض واحد ، والسبب واحد والألفاظ والصور متشابهة متقاربة ، اللهم إلا فى بعض المظاهر ، كالأسماء أو الوعورة والإغراب اللذين يظهران على شعر ابن عثيمين .

ولعل مرجع ذلك إلى نوع الثقافة التى تثقف بها رحمه الله .

ولقد جرى ابن عثيمين على أن يكتب لكل قصيدة قالها مُقَدِّمَةً ، كما شرح بعضاً من القصائد كالنُّونِيَّة [التى أولها] :

---

(١) هذه القصيدة من أروع وألمع القصائد الإسلامية التى قيلت فى الفتوح والمغازى ، وأبياتها نيف وسبعون بيتاً ، وقد شرحتها شرحا مستفيضا وعلقت عليها تعليقات أدبية وسياسية وتاريخية واجتماعية فى كتابى « رشفات من رحيق الأدب » فى حوالى ١٤٠ صفحة (٢٣٧/٣٧٢) .

عُجْ بى عَلَى الرَّبعِ حَيْثُ الرَّنْدُ وَالْبَانُ   وَإِنْ نَأَى عَنْهُ أَحْبَابٌ وَجِيرَانُ[١]

والتى شَرَحَها شَرْحاً وافياً شَغَلَ فى الديوان من صفحة (٣٨) إلى صفحة (١٠٦) وعدد أبياتها (٥٣) بيتاً .

وحينما نضم إلى تلك المقدمات والشروح الرسالتين اللتين تضمنهما الديوان صفحة (٢٠٨) (ا) ، ثم نلقى على ذلك ، ولو نظرة عابرة ، لابد من أن يتضح لنا :

أولا : أن الشاعر لم يكن يتكلف الغريب ، بدليل جريانه على لسانه فى تلك المقدمات والرسائل ، ولعل مَرَدَّ هذا كثرةُ حفظه للشعر القديم ، واستظهاره لمعانى ألفاظه وتراكيبه ، ثم جريان تلك الألفاظ على لسانه ، حتى فى أواسط أبياته وليس فى القوافى فقط كما هى حال المتكلفين .

ثانياً . أن ابن عثيمين كان واسع الاطلاع ، غزير المادة ، كثير القراءة والاستقصاء ، لما خَلّفه السابقون الأولون .. من المنظوم والمنثور ، من أيام الجاهلية إلى عُصُورِ الانحطاط التى ذهبت ذَهَابَ حِمَارِ أُمِّ عمرو[٢] .

ويشهد لذلك ذكره لأقوالهم وإشاراته إلى آرائهم .. فيما كتب .

أغراض شعره :

إن قصائد « العقد الثمين » ـ وهو اسم ديوان الشيخ ابن عثيمين ـ تجرى فى حَلَبَاتٍ ثلاث .. لا تجتاز حدودها ، ولا تبرحها إلى غيرها ، وهى :

---

(١) عج : ارجع ، أومُرَّ بى ، والرند : نبات طيب الرائحة ، والبان : شجر فى حبه دهن طيِّب .

(ا) الطبعة الأولى التى على نفقة المرحوم الوزير ابن سليمان ، وقد حذفتا فى طبعة آل ثانى .

(٢) يشير بذلك إلى المثل المذكور فى قول الشاعر :

إذا ذهب الحمار بأم عمرو   فلا رجعت ولا رجع الحمار

١ — المدح . ٢ — التهنئة . ٣ — الرثاء .

ومانَدَّ عن ذلك سِوَى قصيدة واحدة ، يمكن فى الواقع إرجاعها إلى الغرض الأول .. إذْ أنهـا ثناء على مؤلفات الشيخ ابن سحمان ، ومدحٌ لهـا مع لوم وتقريع .. للعائبين لها .

فأما الغزل والنسيب فميدانٌ تجُانبه بيئتُه ، ويتحَرَّجُ من مقارفته معاصروه خاصة طلاب العلم والعلماء .

من هنا وجدنا شاعرنا الشيخ يسلك فيه مسلك السابقين ، فيأتى به فى مطالع قصائده عَرضاً ، وغير مقصود ـ وسنُورِدُ مستقبلا نَمُوذَجاً لذلك .

وأما شعر الفلسفة ونقد النُّظُمِ الاجتماعية ، فإنما يجد البيئة الصالحة ، والمنبت الخصب .. فى المجتمع المتقدم فكريًّا وحضاريًّا ، حيث توجد العقلية الفكرية الناضجة ، وحيث تتعقّد الحياة الاجتماعية نتيجة للتقدم الحضارى .

وبيئة شاعرنا ابن عثيمين بيئةٌ بَدَائية .. أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة فالسهولة الميسرة طابعها فى كافة مجالاتها .

أما الحكمة : فمبثوثة فى ثنايا شعره ، لا يجمعها نظام ، ولا يؤنسها التئام ، فهى أبيات مبعثرة هنا وهناك ، تأتى عَرَضاً ، ولا تُقْصَدُ غَرَضاً .

وأما الوصف فلقد حاكَى ابنُ عثيمين فيه السابقين ، يَحْذُو حذوهم ، وينهج نهجهم ، شأنُه فى جميع مناهج شعره ، فوصف السحاب والمطر ، والقفار والأسفار والإبل والخيل .. على نهج ، وبأسلوب .. لو نَزَعْتَ منه اسم ابن عثيمين وأثبت مكانه اسم شاعر جاهلى أو إسلامى قديم لما شك ناظر فيه فى صدق هذه النسبة .

فمن ذلك على سبيل المثال قوله فى وصف « الإبلَ » من قصيدة :

أقلا ملامى :

أَقِلاَّ مَلاَمِى فَالْحَدِيثُ طَوِيلُ ... وَمِنْ عَادَةٍ أَلاَّ يُطَاعَ عَذُولُ
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَفْرِجْ لَهُ الشَّكُّ عَزْمَةً ... وَلَمْ يَسْتَبِدَّ الأَمْرَ فَهْوَ ضَئِيلُ (١)
وَمَا اسْتَنْزَلَتْنِى صَبْوَةٌ عَنْ صِيَانَةٍ ... وَلَكِنَّنِى مَعْ عِفَّتِى سَأَقُولُ
رَعَى اللهُ جِيرَانَ الشَّبَابِ وَعَهْدَهُ ... وَرَوَّاهُ مِنْ نَوْءِ السِّمَاكِ سَجِيلُ (٢)
فَقَدْ كَانَ لِى فِيهِ إِلَى الْأُنْسِ مَسْرَحٌ ... وَقَدْ كَانَ لِى فِيهِ سُرًى وَمَقِيلُ (٣)
مَعَاهِدُ أَفْرَاحٍ وَمَوْلِدُ لَذَّةٍ ... إِذِ الْعَيْشُ غَضٌّ وَالزَّمَانُ غَفُولُ (٤)
فَدَعْ ذِكْرَ أَيَّامِ الشَّبَابِ وَطِيبَهُ ... فَمَا حَالَةٌ إِلاَّ وَسَوْفَ تَحُولُ (٥)
وَقُلْ حَبَّذَا وَخْدُ الرَّكَائِبِ بِالضُّحَى ... إِذَا اخْرَوَّطَتْ بَعْدَ الْحُزُونِ سُهُولُ (٦)

---

(١) يفرج : يكشف ويظهر ، واستبد الأمر — بفتح الراء — على نية الخافض .. أى : بالأمر .

(٢) النوء : النجم ، وكذلك « السماك » وهما مما كان — الأعزل والرامح ، والعبارة من إضافة الشىء إلى نفسه .

(٣) السرى : السير أول الليل ، أو مطلقا ، والمقيل : القيلولة — مصدر ميمى . (٤) معاهد : أماكن ، وغض : طرىء ناعم مريح ، والغفول : الناقة البلهاء ، فالمراد : تشبيه الزمان بها فى البلاهة وعدم الفطنة ، وهذا كناية عن الرخاء ، أو : غفول : مبالغة من غافل — وإن كنت لم أطلع فيها على استعمال مأثور . (٥) طيب الشباب : هناءته وبلهنيته ، أو طيبه : رائحته الجميلة وتحول : تتبدل وتتغير . (٦) الوخد : الإسراع ، أو سعة خطو البعير والركائب : جمع ركوبة ، وهى الناقة المركوبة ، واخروطت : طالت وامتدت .

وَيَا حَبَّذَا تَهْوِيمَةٌ تَحْتَ ظُلَّةٍ إِذَا قِيلَ : فَىْءُ الظُّهْرِ كَادَ يَمِيلُ (١)
وَتَمْزِيقُ جِلْبَابِ الظَّلَامِ إِذَا سَجَا بِعِيسٍ نَمَاهَا شَدْقَمٌ وَجَدِيلُ (٢)
تَنَاهَبُ أَجْوَازَ الْفَلَا بِمَنَاسِمٍ لِصُمِّ الْحَصَى مِنْ وَقْعِهِنَّ صَلِيلُ (٣)
يُفَضِّضُ مُرْفَضُّ اللُّغَامِ خُدُودَهَا كَمَا ذَهَّبَتْ أَخْفَافَهُنَّ هَجُولُ (٤)
تَؤُمُّ بِهَا الْبَيْتَ الْحَرَامَ لَعَلَّهُ يُحَطُّ بِهِ وِزْرٌ هُنَاكَ ثَقِيلُ

---

(١) التهويمة : هز الرأس من النعاس — كالتهويم ، والظلة — بضم الظاء — ما أظلك من شجر ، والفيء . ما كان شمسا فينسخه الظل .

(٢) جلباب الظلام : السواد ، وهو من إضافة المشبه به للمشبه ، وسجا : سكن ، والعيس — جمع عيساء — : الإبل البيض يخالط بياضها شقرة ، ونماها : نسبها وعزاها ، وشدقم — بوزن جعفر — : فحل للنعمان بن المنذر ، تنسب إليه الإبل الشدقميات ، والجديل : الزمام المجدول من الجلد .

(٣) تناهب — بضم الباء — مضارع « تَناهب » بفتحها ، والأصل : تتناهب ، والأجواز : جمع جوز — بفتح فسكون — وهو وسط الشىء أو معظمه والفلا : جمع فلاة ، وهى القفر ، أو المفازة التى لا ماء فيها ، والمناسم : جمع منسم — بوزن مجلس — وهو خف البعير ، وصم : جمع صمّاء ، وهى الناعمة التى لا ثقوب بها ، والصليل : الصوت .

(٤) يفضض : يجعلها بلون الفضة ، والمرفض : المتفرق ، واللغام الزَّبَدُ الخارج من فم البعير ... حين اجتراره ، وذهبت . طلتها بلون الذهب ، والهجول — بفتح الهاء — : المفازة البعيدة التى لا أعلام بها ، ورمالها تكون صفراء فتكسو الأخفاف لون الذهب . وفى الأصل : « أخفافهم » وهو خطأ لغة وعروضاً .

وفى قصيدة أخرى يقول :

وَمَوَّارَةِ الضَّبْعَيْنِ : مُحْكَمَةُ الْقَرَا أَمُونُ السُّرَى عَبْرَ الْهَجِيرِ ذَمُولُ(١)

بَعِيدَةُ مَا بَيْنَ التَّرَائِبِ جَسْرَةٌ تُلَاحِظُ ظِلَّ السَّوْطِ أَيْنَ يَمِيلُ ؟(٢)

جَشِمْتُ عَلَيْهَا الْهَوْلَ أَمَّا نَهَارُهَا فَوَخْدٌ وَأَمَّا لَيْلُهَا فَذَمِيلُ(٣)

فَلَا سَاعَةٌ أَقْضِى عُجَالَةَ رَاحِلٍ إِذَا حَانَ مِنْ شَمْسِ النَّهَارِ أُفُولُ(٤)

---

(١) الضبع : العضد ، أو وسطها بلحمها ، أو ما بين الإبط - بسكون الباء - إلى نصف العضد من أعلاه ، والموارة : المتموجة المضطربة ، والقرا : الظهر ، وناقة قرواء : طويلة السنام ، ومحكمة : متينة صلبة ، والأمون : وثيقة الخلق ، والسرى - فى الأصل - : السير عامة الليل ، وهو هنا : السير مطلقا ، ففيه مجاز مرسل علاقته الإطلاق والتقييد ، والعبر : العبور ، والمراد : فى أثناء عبور الهجير .. أى : القيظ والحر الشديد ، والذمول : التى تسير الذَّمِيلَ ، وهو السير اللين .

(٢) الترائب - جمع تريبة ، عظام الصدر ، أو ماولى التَّرْقُوَتَيْنِ منه أو مابين الثديين والترقوتين ، أو أربع أضلاع من يَمْنَةِ الصدر ، وأربع من يَسْرَتِهِ ، أو اليدان والرجلان والعينان ، أو موضع القلادة ، والجسرة : العظيمة من الإبل ، والشطر الثانى كناية عن سرعتها الناشئة عن خوفها من السوط أو عن حساسيتها ورقتها .. حيث لا تتحمل ضرب السوط .

(٣) جشمت - كتجشمت - : تكلفت وتحملت ، والهول : الفزع ، والوخد : السير السريع ، والذميل : السير الهادى .

(٤) العجالة - بضم العين وكسرها - : مايتعجله الإنسان ، والراحل : المسافر ، والشطر الثانى كناية عن انتهاء النهار .

وقد يَعْجَبُ الكثير من إغفال ابن عثيمين وصف المبتكرات الحديثة، والمخترعات الجديدة .. كالطائرة والسيارة والقطار والبرق (اللاسلكي) ويعتبرونه عيباً يؤخذ به ويحاسب عليه .

وعندى أنهم بذلك يركبون شططاً ويمارسون خطأ .. لأنهم فى حكمهم هذا أغفلوا حقائق هامَّة ، لايجوز النظر فى شعر ابن عثيمين هون وضعها فى حساب الناظر ، وإلا أصبح الحكم مغالطة ، ومن أهمها : البيئة والثقافة والاتجاه الخاص للشاعر ، وتلك أمور ـ أرجو أن يُتَاحَ لنا وقت لإيضاحها .

ديوان ابن عثيمين :

هو : «العِقْدُ الثَّمِينُ مِنْ شعر الشيخ محمد بن عثيمين» ويقع فى (٥١٨ ص) من الحجم المتوسط ، وطبع فى مطبعة دار المعارف فى مصر ، على نفقة المرحوم صاحب المعالى الوزير عبد الله بن سليمان ، وقام وكلاؤه بتوزيعه مجاناً ثم أعاد آل ثانى طبعه ثانية .

ذكر الأستاذ سعد بن رُوَيْشد أن ابن عثيمين لم يجمع شيئاً من شعره ، ولم يترك مع كتبه إلا أوراقاً يسيرة ، فقام هو مشكوراً بجمع قصائده من مظانِّها حتى تكوَّنَ مما جَمَعَ : هذا الديوان ، بعد أن قام بوضع عنوانٍ له ، وعنوانٍ لكل قصيدة هو أول بَيْتٍ منها ، ثم كتب تعليقاً يسيراً على مالم يشرحه الشاعر وهو تعليق فيه كِفَايَةٌ للقارىء العادِى ، ثم نَظَّمَهُ فى ستة فصول :

الفصل الأول : فى مدح الملك عبد العزيز .

والثانى : فى مدح ولى العهد سعود .

والثالث : فى مدح الأمير محمد بن عيسى آل خليفة .

والرابع : فى مدح الشيخ عبد الله بن قاسم آل ثانى .

والخامس : فى أغراض متفرقة .

ولم يعثر جامع الديوان منه إلا على قصيدة واحدة ، وهى رَدُّهُ على من عاب كتب أئمة الدعوة ، وخاصةً كُتَبَ الشيخ ابن سحمان .

والسادس : المراثى .

والذى عثر عليه من شعره لايَعْدُو غرضين : المدح والتهنئة[1] . والرثاء .

غير أن كل ماوُجد منه كان فى النصف الأخير من حياته ، بل وفى ستة وثلاثين عاماً [من عمره] أى : من عام ألف وثلثمائة وعشرين إلى عام ألف وثلثمائة وستة وخمسين .

ومن غير المعقول أن يكون شاعر متمكن مثل ابن عثيمين ، ثم لايقول فى أول حياته ـ بل وفى الأكثر من نصفها ـ شعراً !!! .

أو ليست هى أَيَّامَه ؟ على أنه قد ذكر فى قصيدته [التى أولها] :

عَصَيْتُ فِيكِ مَقَالَ اللَّائمِ اللَّاحِى . . . . . .

(ص ٨٣٠ من الديوان) صراحة أنه قد مَنَحَ ذلك العهد أعذبَ القصائد وأجملها ، مما يطيب به التفاخر لكونه أكمل .

وإنى لمُسْمِعُكُمْ شيئاً من مطلع تلك القصيدة .. لغرضين .

أولهما . أن فيها ماهو شاهد على أنه قد قال كثيراً من جَيِّدِ الشعر فى أيام الشباب ، إلا أنه لم يصل إلينا منه شىء ، لأسباب .. الله أعلم بها !! .

لكن ربَّما كانت يد الإهمال هى المسئولةَ عن ذلك ، وربما كان الشاعر نفسه [هو المسئول] ، وقد أشرنا إلى هذا فى غير هذا الموضع من هذه المحاضرة .

وثانيهما : أن فى ذلك المَطْلَع نموذجاً للنسيب الذى أُغْرِمَ به الشاعر ، حتى بلغ فيه مبلغاً لم يبلغه إلا فحول العصور الأولى .

---

(١) المدح والتهنئة ، غرض واحد فى الغاية كما لايخفى .

قال [رحمه الله] :

عَصَيْتُ فِيكِ مَقَالَ اللَّائِمِ اللَّاحِي فَعَامِلِينِي بِغُفْرَانٍ وَإِسْجَاحِ (١)

حَلَلْتِ مِنِّي مَحَلَّ الرُّوحِ مِنْ جَسَدِي لاَ .. كَالْمُصَافَاةِ بَيْنَ الْمَاءِ وَالرَّاحِ (٢)

لاَ يُبْعِدُ اللهُ أَيَّامَ الشَّبَابِ وَمَا فِيهِنَّ لِي مِنْ خَلاَعَاتٍ وَأَشْطَاحِ (٣)

فَكَمْ نَظَمْتُ بِهَا وَالْأُنْسُ مُنْتَظِمٌ عَذْرَاءَ يَسْكَرُ مِنْ أَلْفَاظِهَا الصَّاحِي (٤)

يَشْدُو بِهَا أَوْطَفُ الْعَيْنَيْنِ ذُو هَيَفٍ أَغَنُّ فِي شَدْوِهِ تَرْجِيعُ مَيَّاحِ (٥)

كَأَنَّ طُرَّتَهُ مِنْ فَوْقِ غُرَّتِهِ لَيْلٌ تَأَلَّقَ فِيهِ ضَوْءُ مِصْبَاحِ (٦)

---

(١) اللاحى : العائب ، والإسجاح : حسن العفو .

(٢) الراح : الخمر ، كالرَّياح ـ بفتح الراء ـ والارتياح .

(٣) الخلاعة : المجون وعدم التوقر فى القول والفعل ، والأشطاح : جمع شطح ، وقد أخذ الشاعر هذه المادة ـ فيما يظهر ـ من العبارات الشائعة ـ حيث لا توجد فى أكثر كتب اللغة .

(٤) العذراء : البكر ـ التى لم يفترعها أحد ، والمراد : أنها من اختراعه وافتراعه وابتُداعه ، والصاحى : ضد السكران ، والمقصود : أنها غاية فى الفصاحة وآية فى البلاغة . (٥) يشدو : يغنى ، وأوطف العينين : كثير شعر الحاجبين والجفنين ، والهيف ـ بالتحريك ـ : ضمور البطن ، ورقة الخاصرة وفعله كفرح ، والأغَن : المنطلق الصوت فى اللهاة ، أو الذى يخرج صوته من خياشيمه ، وفعله غَنَّ يَغَن ـ بفتح الغين فى الماضى والمضارع ، والمياح : مستخرج الريق بالسواك ونحوه ، ليساعد على النطق وإحسان الصوت .

(٦) الطرة : الناصية ، والغرة ـ كالغُرْغُرَة ـ : بياض فى الجبهة ، والتشبيه فى البيت مركب ، .. مقصود فيه إلى الصورة مجتمعة .

فِي غَفْلَةِ الدَّهْرِ هَالَتْ السُّرُورَ بِهِ أَرْنُو بِطَرْفٍ إِلَى اللَّذَّاتِ طَمَّاحِ (١)

لَمَّا نَهَانِي مَشِيبِي وَاسْتَوَى أَوَدِي قَبِلْتُ بَعْدَ جِمَاحٍ قَوْلَ نُصَّاحِي (٢)

كَذَا الْجَدِيدَانِ إِنْ يَصْحَبْهُمَا أَحَدٌ يُبْدِلْ لاَ مِنْهُ دَيْجُوراً بِإِصْبَاحِ (٣)

لاَ بُدَّ أَنْ يَسْتَرِدَّ الدَّهْرُ مَا وَهَبَتْ أَيَّامُهُ مِنْ مَسَرَّاتٍ وَأَفْرَاحِ

فَانْعَمْ وَلَذَّ إِذَا مَا أَمْكَنَتْ فُرَصٌ وَاجْعَلْ تُقَى اللهِ رَأْسَ الأَمْرِ يَا صَاحِ

فمن المرجح إذاً أن يكون . . رحمه الله . . قد أتلف ماقال فى تلك الفترة ، لأنه لم يرض عنه ، أولم يُرِدْ بقاءه ، لسبب أو لأكثر .

وربما كانت يد الإهمال هى التى أتلفته ، وما العلم إلا لله .

ومما يشهد لذلك مارواه جامع الديوان فى المقدّمة . . [حيث] قال :

« قال له أحد أصدقائه : ياأبا عبد الله . . قد سمعنا لك شعراً فى كل أبواب الشعر ، سوى باب الهجاء ، فلِمَ [لَمْ] نسمعْ لك شعراً فيه ؟ .

قال : الحمد لله . . أنى لم أهجُ أحداً قط مهما بلغ فِيَّ من الإساءة ، وهل تظنُّ أنى تركت الهجاء عجزاً ! . . كلا . . إنّ الشعر آلة وأداة ، يصرِّفها الشاعر كيف يشاء فى فنون الشعر وأغراضه ، وهل من العسير على من يستطيع أن يقول : عافاك الله ، أن يقول : أخزاك الله . . فى الوقت نفْسِه ؟ . .

وهناك مِعْرَضٌ آخر تتجلى فيه ثقافة ابن عثيمين ، وتظهر فيه مقْدِرته على التصرف الحسن ، والتلاعب بالصور الكلامية كيفما شاء وحَسَبَ مايريد .

---

(١) هالت : استأجرت واستجلبت ، والطرف : العين .

(٢) الأود : العوج ، واستوى : ظهر وتم ، والجماح : النفور والثورة .

(٣) الجديدان ـ بمعنى المتجددين ـ :الليل والنهار ، والديجور ، الظلام .

إنه حُسْنُ الاقتباس ، والتضمينُ للقرآن الكريم ، والأحاديثِ الشريفة ، ومأثورِ المنظوم والمنثور .. على أبدع مايكون الاقتباس والتضمين .

والشيخ وإن كان من شعراء المديح ، إلا أنه استطاع أن ينجو بمديحه من مبالغات المدَّاحين ومقالاتهم الممقوتة ، فكان شعرُه إلى حفز الهمم واستنهاض العزائم أقربَ منه إلى المديح .

استمع إليه وهو يمدح الملك عبد العزيز [فيقول] :

عَسَى أَنْ نَرَاهَا سِـــيرَةً عُمَرِيَّةً يَدِينُ لَهَا غَرْبُ الْبِلَادُ وَمَشْرِقُ

لقد كان فى وسعه أن يتملق وينافق فيقول :

أَلَسْنَا نَرَاهَا سِـــيرَةً عُمَرِيَّةً . . . . .

ولكنه لم يقل ذلك ، بل عبر بـ«عَسَى » .. راجياً متمنياً أن يراها سيرةً عمرية .

والديوان مملوء ببدائع صور المديح التى لايمتلك زمامها إلا مَنْ ملك زمام البلاغة ، وأمدته شاعرية واعية ، مدركة لمداخل القول ومخارجه ، مفرداً كان أو مركَّباً .

ولقد كان ابن عثيمين ــ رحمه الله ــ من أولئك .

وإنا لَمُسْمِعُوكم شيئاً من جيِّد ماقال ، وإن لم يكن أجوده .

قال فى مدح الملك عبد العزيز .

حَلِيفُ سُرًى لاَيَثْلُمُ اللَّيْلُ عَزْمَهُ إِذَا هَمَّ أَلْقَى حَادِثَاتِ الْعَوَاقِبِ(1)

---

(١) حليف سرى : ملازم ســـير أثناء الليل ، ويثلم : يكسر ، وفى التعبير استعارة مكنية ، وهـذا البيت مأخوذ من قول الشاعر الجاهلى الصعلوك سعد بن ناشب (١ : ٧٠ شرح الحماسة) .

إذا هم ألقى بين عينيـــه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانبا

إذَا نِيَّةٌ أَوْفَتْ بِهِ الشَّرْقَ طَوَّحَتْ ... بِهِ نِيَّةٌ أُخْرَى لِأَقْصَى المَغَارِبِ (١)

فَذَاكَ قَرِيعُ الدَّهْرِ إنْ مَاتَ لَمْ يُلَمْ ... وَإنْ عَاشَ أَضْحَى فِي سَنِيِّ المَرَاتِبِ (٢)

أَقُولُ لِطُلَّابِ المَعَالِي تَأَخَّرُوا ... فَقَدْ طَمَحَتْ عَنْكُمْ لِأَكْرَمِ خَاطِبِ

وإنى لأرجو أن يُتَاحَ لى الوقتُ لأدْرُسَ ابنَ عثيمين دراسةً مستوفية لجوانب شخصيته وشعره ، لأنه جَدِيرٌ بمثل هذه الدراسة ، إذ هو الرائد الأول والإمام المتَّبَعُ فى سُنَّةِ الشعر ، فى عصره الحديث .. على بساط أُمِّ الشعر ومُرْضعَتِه الأولى « نجد » التى قال هو فيها : ـ

أَلَمْ تَرَ أَظْعَانًا تَشَدُّ لِنِيَّةٍ ... تِهَامِيَّةٍ وَالْقَلْبُ نَجْدٌ مَهَايِعُهْ ؟ (٣)

عَشِيَّةَ لَاصَبْرِى يُثِيبُ وَلَا الْهَوَى ... قَرِيبٌ وَلَا وَجْدِى تُفِيقُ نَوَازِعُهْ

سَقَى اللهُ رَيْعَانَ الشَّبَابِ وَعَهْدَهُ ... سِجَالَ الْهَنَا مَا لَألَأَ الْفَجْرَ سَاطِعُهْ ؟ (٤)

فَمَا الْعَيْشُ إلَّا مَاحَبَاكَ بِهِ الصِّبَا ... وَإنْ خَادَعَتْ ذَا الشَّيْبِ فِيهِ خَوَادِعُهْ

نثر ابن عثيمين :

وكما أجاد الشيخ ابنُ عثيمين [فى] فن الشعر .. أجاد كذلك [فى] فن النثر ، إلا أنه لم يَخْرُجْ فيه عن المألوف بين أبناء عصره ، بمعنى أنه كان من

---

(١) لعل هذا البيت ينظر إلى قول السموأل بن عادياء (١ : ١١٦ شرح الحماسة) .

وأسيافنا فى كل شرق ومغرب ... بها من قراع الدارعين فلول

(٢) هذا البيت مأخوذ من قول الشاعر الجاهلى الصعلوك « تأبط شراً » (١ : ٧٦ شرح الحماسة) .

فذاك قريع الدهر ماعاش حُوَّلٌ ... إذا سد منه مَنْخِرٌ جاش مَنْخِرُ

كُتَّابِ العلماء الذين سيطر أسلوب التأليف على كتابتهم ، غير أن ماتركه فى هذا المجال لم يكن بأحسنَ حظًّا من شعره ، فلم يُعْثَرْ له على شىء من ذلك سوى : ـ

أولاً : شَرْحِهِ لبعض قصائده .

ثانياً : الرسالَتَيْن اللتَيْن تضمنهما الديوانُ فى طبعته الأولى ، التى سبقت الإشارة إليها .

ولما كان المقام يقتضى الإيجاز فسنكتفى بأَسْطُرٍ من كِلْتَا الرسالتين الدَّالَّتَيْنِ على أصالة ثقافته وخُلُقِهِ الجَمِّ المتواضع . .

١ — قال من الأولى : وهى منه إلى الشيخ سليمان بن سحمان رداً على رسالة بَعَثَ بها إليه معترضاً فيها على بعض الأبيات من قصيدته « سفر الزمان » التى قالها فى مدح الملك عبد العزيز . . حينما تم له فتح المدينة المنوَّرة .

ومما اعترض عليه ابنُ سحمان منها هذا البيتُ :

فَلْيَشْكُرِ الثَّقَلَانِ مَا أَوْلَيْتَهُمْ مِنْ أَمْنِهِمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفٍ أَعْسَرِ

ولم نعثر على شىء من رسالة ابن سحمان ، أما جوابُ ابن عثيمين ، فمن قوله : أما قولى : « فليشكر الثَّقلان إلى آخره » فقد رَوَى الإمام أَحْمَدُ والتِّرْمِذِىّ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ » . . قال صاحب هامشْ « المِشْكَاةِ » . قوله : « من لم يشكر الناس إلى آخره » : لأن الله تعالى أمر بشكر الناس الذين هم وسائط فى إيصال نعم الله تعالى ، فَمَنْ لم يطاوعه لم يكن مؤدِّياً لشكره ، أو أراد . أنه إذا لم يشكر الناسَ ـ مع حرصهم على ذلك وانتفاعهم ـ لم يشكر الله الذى يستوى عنده الشكر وعدمه » ، انتهى بحروفه .

وأما قولي : « والثَّقَلَان » بلفظ التثنية فهو جَرْيٌ على ذكر العرب المفرد بلفظ التثنية ، ولا أظن هذا يخفى [فهمه] .

ومنه في القرآن العزيز قولُه تعالى : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ »(١) ، وإنما يخرج من المالح ، وقوله : [سبحانه] : « أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ »(٢) ، والخطاب للواحد ، وقولُه تعالى : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ »(٣) ، والرسل ـ كما نَفْهَمُ من كلام الكثير ـ : من الإنس فقط .

ومن كلام العرب قولُ بعضهم :

فَإِنْ تَزْجُرَانِي يَاابْنَ عَفَّانَ انْزَجِرْ وَإِنْ تَرْعَيَانِي أَحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعا

٢ — أما الثانية : فَمُلْحَقٌ لرسالته إلى ابن سحمان ، وهي جوابٌ على ورقةٍ جاءته باسم محمد بن صالح . . عن طريقه ، ولم نعثر على شيء منها أيضاً ، غير أن كتابة ابن عثيمين تدل على أن فيها اعتراضاً على بعض أبيات القصيدة السالفة الذكر « سِفْرِ الزَّمَانِ » .

ومن تلك الأبيات قول ابن عثيمين :

أَوَ مَاءَرُوا بِأَنَّ حَظَّكَ فِيهِمُ كَانَ الزَّعِيمَ لَدَيْهِمُ فِي الْمَحْضَرِ ؟(٤)

---

(١) الآية رقم ٢٢ من سورة « الرحمن » .

(٢) الآية رقم ٢٤ من سورة « ق » .

(٣) الآية رقم ١٣٠ من سورة « الأنعام » .

(٤) من المؤكد أن صحة البيت : « أو ما علمت » ، ولا أدرى سبباً لهذه العصبية للخطأ ـ مع أن المعنى لا يستقيم مع هذا الخطأ « أو ما علموا » . . كما لا يستقيم الوزن ؟؟ !!

وقد زعم كاتب الورقة أن فى هذا البيت انكساراً فرد عليه ابن عثيمين قائلا : « وأمَّا ماذكرتَ من قولهم : إن فى البيت الذى أوله : « أو ماعلموا » انكساراً فأنا ماأبيع سلعتى بشرط البراءة من كل عيب .

فأما المقاصد الدينية والفروع الشرعية فلا أذكرها إلا بشرط الاستفادة .

وأما الشعر الذى هو نُحَاتَةُ الأفهام ، ومضمار الأذهان فلا بأس بالكلام فيه » .

ثم استَشْهَدَ بأقوال ابن رَشِيق[1] فى هذا المجال وأردف قائلا : « والبيت المشار إليه أنا أعلم أن فيه زحافاً ، لكن قد استعمله من هو أقدم منى فى هذا المجال وهذه الصناعة .

قال ابن رشيق ـ لمَّا ذكره ـ : « ويكفيك قول امرىء القيس »[2] :

---

(١) هو أبو على الحسن بن رشيق القيروانى الأديب الناقد الألمعى صاحب كتب « العمدة فى الشعر ونقده » و « قراضة الذهب فى النقد » و « الشذوذ فى اللغة » و « أنموذج الزمان فى شعراء قيروان » و« ميزان العمل فى تاريخ الدول » و « شرح موطأ مالك » ، و « الروضة الموشية فى شعراء المهدية » ، و « تاريخ قيروان » و « المساوى » فى السرقات الشعرية ، وله ديوان شعر ، وقد توفى سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م عن ٧٢ عاما .

(٢) هو امرؤ القيس بن حُجْر بن الحارث الكندى أشهر شعراء العرب وزعيم الشعر الجاهلى فى رأى الأكثرين واسمه حُنْدُج ، أو مُلَيْكة ، أو عَدِىّ وقد ولد بنجد فى بيت ملك وعز ، وكان يعرف بالملك الضِّليل وبذى القروح ومات بأنقرة من لبس حلة مسمومة .. وبعد عودته من لدن قيصر الروم حين طلب منه المعونة على حرب بنى أسد قاتلى أبيه ، وكان موته سنة ٨٠ ق هـ / ٥١٠ م .

وَتَعْرِفُ فِيهِ مِنْ أَبِيهِ شَمَائِلاً وَمِنْ خَالِهِ وَمِنْ يَزِيدَ وَمِنْ حُجُرْ
سَمَاحَةَ ذَا وَبِرَّ ذَا وَوَفَاءَ ذَا وَنَائِلَ ذَا إِذَا صَحَا وَإِذَا سَكِرْ(١)

الثانى : الشيخ محمد بن بليهد :

ولد الشيخ الشاعر محمد بن عبد الله بن بليهد بقرية «غُسْلَة» ثانية قَرْيَتَى «القرائن» من إقليم «الْوَشْم» بنجد، ودرس بها كما كان يدرس أبناء عصره فى تلك المدارس البدائية السهلة، فتعلّم بها القراءة والكتابة وحفِظَ مايسر الله من القرآن، وتلك كانت غايةَ ماتَنْشُدُه تلك المدارس، ثم اتجه إلى طلب العلم، فأخذه عن كثيرٍ من العلماء [وكان] منهم : أحمد بن عيسى، ولكن وَلُوعَهُ بآداب العرب وأخبارِهم وأيامهم وأشعارهم كان يملك عليه جميع مشاعره، لذلك نجده أول من كتب فى هذا المجال من النجديين، .. فى هذا العصر، وإن لم يستطع التفرغ لذلك، إذ كان يعمل من أجل كسب العيش فى الاتجار مع البادية الأمر الذى أعطاه حصيلة من الخِبْرَة بالأماكن فى هذه البلاد، كما تدل على ذلك كتاباته ومؤلفاته .

وكان ينظم الأشعار فى مدح الملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وولديه سعودٍ وفَيْصَلٍ، فتكونت له بهم صلة وثيقة، نال بها خيراً وتشجيعاً كثيراً، لكنْ كانت أقوى تلكَ الصلات صلته بجلالة الملك فيصل .

وفى عام ١٣٤٥هـ ندبه الملكُ عبد العزيز للذهاب إلى مصر مندوباً عن جزيرة العرب فى مؤتمر مبايعة شَوْقِىّ بإمارة الشعر، إلا أن ظروفاً سياسية طرأت على العلاقات بين البلدين حالت دون حضوره ذلك المِهْرَجَانِ فقال شوقى :

(١) النائل : العطاء .

يَا عُكَاظًا تَأَلَّفَ الشَّرْقُ فِيهِ مِنْ فِلَسْطِينِهِ إِلَى بَغْدَانِه[1]
افْتَقَدْنَا الحِجَازَ فِيهِ فَلَمْ نَعْثُرْ عَلَى قُسِّهِ وَلاَ سَحْبَانِه

كما ولاه الملك عبد العزيز كثيراً من المناصب ، كإدارة مالية الطائف وجباية الزكاة ، وجلب الحبوب من تهامة التي كانت إذْ ذَاكَ فى حكم الأدَارِسَة إلا أنه لم ينقطع عن الاتجار مع البادية إلى أن أصيب بالْفَالِجِ ، فسافر إلى مصر للعلاج عام ١٣٧٠هـ، ثم عادمنها بعد ماخف مرضه عام١٣٧٣هـ ، ثم عاوده المرض فسافر إلى لبنان حيث توفى بها رحمه الله عام ١٣٧٧هـ ، تاركاً وراءه أثراً لايستهان به فى مجال العلم والأدب ، وجيلا فتح له قبل مماته باب الشعر الحديث .

آثاره:

لم يغب عن الشيخ ابن بليهد ماللتأليف من أهمية خاصة ، إذ كان ممن تمرَّسَ بأساليبه وطرقه ، لكنه رأى أن مجال الدين قد ألَّفَ فيه رجال الدعوة ، وعلماء الإسلام : مايُشْبِعُ نَهَمَ طالب العلم ، فاتجه بمؤلفاته وأعماله إلى جانب آخر من الفنون الإسلامية ، وهو ما نسميه بالعلوم اللسانية ، وهو وإن لم يتفرغ لهذا العمل إلاَّ أنه كان ينتهز أوقاتَ الفراغ ليملأها بما يخدم لغة العرب وأدبهم .

وكان ينشر مايكتبه من تحقيقات للأماكن التى وردت فى أشعار العرب القدامى فى الصحف ، وكانت تقوم بينه وبين بعض العلماء مناقشاتٌ حول تلك الموضوعات على صفحاتها ، مثل الشيخ حَمدِ الجاسر .

ويعتبر ابن بليهد أول من حدَّدَ مكان سوق « عُكَاظَ » وإن كان الشيخ حَمَدٌ لايسلِّم له بذلك. والله أعلم.

أهم ماأخرجه في هذا المجال :

١ — « صَحيح الأخبار فيما فى جزيرة العرب من الآثار » .

(١) بغداد : لغة فى بغداد .

ويقع فى خمسة أجزاء، وكان قد عزم على إصدار السادس إلا أنه عدل عن ذلك ، لكونه يحوى مذكراته التى نَشَر منها ثلاثاً فى آخر الجزء الخامس ، والتى عزم على أن يفرد لها كتاباً لم نَرَهُ .

٢ — « تحقيق صفة جزيرة العرب » للهَمْدَانى[1] والتعليق عليه .

٣ — « ابتسامات الأيام » وهو اسم الديوان وجميعها مطبوع .

٣ — « ماتقارب سمَاعهُ وتباينت أمكنته وبِقَاعهُ » .

وهو مخطوط يدور حول الأسماء المشتركة لأماكن متباعدة ، وتبيين ما كان يُعْرَفُ به كلُّ مكان ، إذا كان له اسم مغاير لاسمه المعروف من قبل ، ثم ذِكْرِ الأشعار التى ذكرت فيها ، وكان ـ رحمه الله ـ ينوى إخراج كتابٍ عن : « فرسان جزيرة العرب فى العصر الحديث » وقد أَعدَّ مادَّتَه فى ذهنه ، تمهيداً لتدوينه فعاجله القدر .. رحمه الله .

٥ — مذكراته :

ولقد منح الله ابن بليهد نَفْسًا شاعرية ، وإحساساً مرهفاً ، وعاطفة جياشة ، تفيض بشَتَّى صور الإبداع المبرزة لكوامن النفس الشاعرة .

أقول لما كان ابن بليهد كذلك فليس بالغريب إذاً أنَّهُ اتَّجَهَ منذ الصغر إلى قرض الشعر بالعامية ، بل ومجاراةِ فحول ذلك الميدان ، كالشاعر الكبير السَّكْرَان .

---

(١) هو أبو العلاء الحسن بن أحمد بن الحسن بن سهل العطار شيخ همدان، ومن أئمة الحديث والتفسير واللغة والأنساب والتواريخ ، وقد توفى سنة ٥٦٩ هـ /١١٧٣ م . بعد أن عاش حوالى ٨٠ سنة .

أيها السادة :

وإذا كان ابن بليهد ـ الشاب الذي قال الشعر في الثانيةَ عشْرَةَ من عمره باللغة العامية ، حتى بارز في سِنِّهِ المبكرة فحولَ شعرائها فلقي منهم ومن جماهيرهم كل إعجاب ـ فليس بعجيب أن يَنْشُدَ ما هو أبعد من ذلك وأسمى .

لقد بدأ يتجه إلى قول الشعر بالعربية الفُصْحَى ، فأخذ يُعِدُّ نفسه لذلك ، فيبذل في سبيل الحصول على الكتب كل غال ورخيص ، ليُكِبَّ على قراءتها ودَرْسِ ما فيها ، والتفنُّنِ في انتهاز فرص مجالسة العلماء والأخذ عنهم ، حتى كاد ذلك أن يقضي على طموحه ، ويَدْفِنَ موهبته على يد أحد أولئك العلماء كما ذَكَرَ هو ذلك في مقدمة الديوان ـ إذ قال :

وكان من بين أولئك صاحبُ الفضيلة العالمُ الجليل الشيخُ أحمد بن عيسى وكانت له اليد الطُّولَى في جميع العلوم ، قَدِمَ « القَرَائِنَ » مَسْقَطَ رأسي فذهبتُ إليه بمعية عمي عبد العزيز بن بليهد ، فسلَّمنا عليه وجلسنا عنده وتجاذبنا أطراف الحديث ، فالتفتَ إليَّ عمي وقال : هذا الغلام ابن لك ؟ ، قال : لا .. هذا ابن أخي عبدِ الله . قال : أيقرأ ؟ قال : نعم . يحسن القراءة والكتابة ، وله وَلَعٌ بتاريخ العرب ، وآدابهم وأشعارهم ، وإخَالُهُ يحاول نظم الشعر ، فالتفت إليه الشيخ وقال : حسب ابن أخيك نظمُ الخَرَزِ ، فكانت تلك الكلمة صدمةً قاسية فَتَّتْ في عضدي ، وأوشكت أن تُحَوِّلَ مجرى حياتي ، فقد كدت أزهد في بضاعة الأدب ، وكان يدور بخلدي ـ إذ ذاك ـ أن محاولتي قولَ الشعر شيء من عبث الطفولة لا جدوى من ورائه .

لقد كادت تلك العبقريةُ الشاعرة التي فتحتْ باب الشعر الحديث أمام أبناء هذه البلاد .. أن تذهب ضحيَّةً بكلمة متشائمة في ميدان الأدب ، مرَّ بالشاعر بعدها زمن لم يحدِّث نفسه ببيت واحد ـ كما قال ـ لكنَّ انتصار جيش الإخوان

١

فى موقعة « تَرَبَة » غمر الشاعرَ بيُمْنِه فهزَّ جنَانَه ، وأنطق لسانه ، بأولى محاولاته للنظم ـ باللغة الفصحى ـ فكانت محاولةً ناجحةً انتشلت الشاعر من بين براثن اليأس ، واستنقذته من ظلال القُنوط ، لتدفعه إلى الأمام فى طريق الفن الذى طالما داعبت ريشتُه أوتارَ قلبه ، وثنايا مشاعره وأحاسيسه .. المضطرمة فى أعماق روحه الشاعرة .

ولقد كانت هناك فرصتان ..لَوْ سَلِمَ الشَّيْخُ من ضياعهما لكان له شأن عظيم فى تاريخ الأدب الحديث :

أولاهما : أيام الشباب الذى أضاعته عليه كلمة الشيخ أحمد بن عيسى .

وثانيتهما : السفر إلى مصر عام (١٣٤٥ هـ) الذى أضاعته عليه الظروف السياسية .

ومع هذا فإن ماضمه ديوانه « ابتسامات الأيام » من أشعار : كاف للدلالة على ما كان يمتلكه من شاعرية غزيرة متدفقة ، مملوءة بالحيوية ، موسومة بقابلية التصعيد والتجديد ، لو أُوْجِدَ لها المجال .

وهل أدلُّ على ذلك من القصيدتين اللتين قالها وهو تحت العلاج فى مصر ؟ .

قال عن الأولى : إن الممرضتين اللتين كانتا تباشران علاجه توسمتا فيه قرض الشعر فطلبتا منه أن يذكر اسميهما فى شىء من شعره .

وعن الثانية : إن منصوراً العَسَّافَ الذى كان يعالَجُ بدوره هناك طلب منه أن ينظم على لسانه قصيدة فى الممرضتين نفسيهما لأنهما طلبتا منه ذلك .

[قصيدتاه فى ممرضتين مصريتين]

وهاتان هما القصيدتان :—

قال فى الأولى :

رَأَيْتُ غَزَالاً فى الضُّحَى كَامِلَ الْوَصْفِ
كَوَتْنِي بِنَارٍ فى فُؤَادِى وَفى كَتْفِي

فَأَمَّا الَّتِي بِالْكَتْفِ تُذْكِى بِكَهْرَبٍ
وَهَاتِيكَ تُذْكِى بِالْمَلَاحَةِ وَاللُّطْفِ

تفَاءلْتُ مِنْ كَفَّىْ سُعَادَ سَعَادَةً وَفَائِزَةٍ فَوْزًا فَطَلْعَتُهَا تَشْفِي

خَلِيلَىَّ هَلْ تَأْسُو الْمِرَاضَ خَرِيدَةٌ ؟
بِقَامَتِهَا الْهَيْفَاءِ سَهْمٌ مِنَ الْحَتْفِ ؟[1]

لَعَمْرِىَ مَا دَائِى سِوَى نَظَرَاتِهَا وبَلْسَمِىَ الشَّافِى : لَدَيْهَا وَمَا أُخْفِي[2]

وَقَدْ عَالَجُوا نِصْفِى بِكَفٍّ رَقِيقَةٍ
وَ بِالسِّحْرِ مِنْ عَيْنَيْهِمَا أَهْلَكُوا نِصْفِي

إِذَا طَفِقَتْ كِلْتَاهُمَا فى عِلَاجِهَا
رَأَيْتُ الْمَنَايَا مِنْ أَمَامِى وَمِنْ خَلْفِي

---

(١) تأسو : تشفى وتعالج ، والخريدة ، كالخريد والخرود ـ : البكر لم تمسس ، أو الخفرة الطويلة السكوت .. الخافضة الصوت المستترة ، وجمعها : خرائد وخُرُد ، والهيفاء : الضامرة البطن ، الرقيقة الخاصرة .

(٢) العمر ـ بفتح فسكون ـ كالعمر ـ بضمتين وبضمة فسكون ـ هو الحياة أو زمنها ، وقد ورد الأول فى القرآن مضافاً إلى ضمير النبى ﷺ ـ تكريما له وتشريفاً ، والبلسم : الدواء الشافى ضد السموم .

وَمَا أَنَا إِلاَّ فِي هَــــوَاهُمْ مُتَــيَّمٌ
ضَعِيفُ الْقُوَى شَيْخٌ فَهَلْ رَحِمُوا ضَعْفِي ؟[1]

وقال من الثانية :

إِذَا دَعَيْنَاكَ فَاهْـــرِجْ أَيُّهَا الْقَمَرُ
هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلاَجِ الْكَهْرَبَا خَبَرُ[2]

أَمَا مُحَمَّــدُ قَدْ زَالَتْ شَكِيَّتُهُ وَلَيْسَ فِي كَتِفِهِ مِمَّا شَكَا أَثَرُ[3]
قَالَ احْتَرِزْ مِنْ غَزَالٍ كُلَّمَا طَلَعَتْ فَلَيْسَ فِي عُودِهَا طُولٌ وَلاَ قِصَرُ
إِذَا رَأَيْتَ الثَّنَايَا الْغُرَّ بَاسِمَــةً هُنَاكَ مِنْ بَيْنِهِنَّ الْمَوْتُ يَنْتَظِرُ
فِي رُكْبَتَيْكَ تَرَى لِلْكَهْرَبَا أَثَرٌ يَطِيرُ لِلْقَلْبِ مِنْ جَــرَّائِهِ شَرَرُ

وهاتان القصيدتان هما آخر مانظم مما حواه الديوان .

وحدثنى ابن أخيه بأنه قد أتلف كثيراً من شعره السياسى كُرْهاً للفرقة والشقاق ، وحرصاً على الالْفة والاتفاق ، وهذا ليس بالبعيد .

على أن الديوان ، قد حوى من ذلك أكثر من قصيدة ، ضِمْنَهَا مثلا مانظمه فى الرد على أحد الشعراء حينما نظم قصيدةً نَدَّدَ فيها بالإخوان ، واستهزأ بهم ، وقد نشرها عام ١٣٤٣هـ فى جريدة « بريد الحجاز » الصادرة بِجُدَّة بعد

---

(١) فى الأصل : « فهل يرحموا » وهو خطأ نحوى لعله محرف عما أثبتناه .

(٢) دعيناك : كدعوناك ـ بمعنى طلبناك وناديناك ، واهرج ـ بكسر الراء ـ أمر من هَرَج يهرِج فى الحديث ـ إذا أفاض فأكثر أو خلط فيه .

(٣) محمد : ممنوع من التنوين لضرورة الشعر ، والشكية : الشكوى والمرض والكَتِفُ ـ بفتح فكسر ـ وبوزن « مِثْل » و « حَبْل » . والفاء فى جواب « أمّا » واجبة ولكنه تركها ضرورة .

أن استولى الملك عبد العزيز على مكة ، وقد رمز فيها إلى نفسه « بالأخطل الصغير » ، وعدد أبياتها ـ كما ذكر الشيخ ابن بليهد ـ : ثمانية وعشرون [بيتاً] لم أجد منها إلا ما ذكره رحمه الله ، وهو ثلاثة أبيات فقط ، وحينما أورد ذكرها ـ عرضاً ـ عبدُ الله [بن] عبد الجبار صاحبُ « التيارات الأدبية فى جزيرة العرب » لم يذكر منها إلا الثلاثة التى أوردها الشيخ ابن بليهد ، وهاهى [ذى] الأبيات الثلاثة :

حَدِّثِيهِمْ عَنْ بَأْسِنَا يَا حِرَابُ ... وَأَذِقْهُمْ نَكَالَنَا يَا عَذَابُ

وَامْطُرِيهِمْ قَذَائِفاً يَا مَنَاطِيـ ... ـدُ كَأَنَّ الدُّخَانَ مِنْهَا سَحَابُ (١)

إلى أن قال :

أَيُّهَا الْمُصْلِحُونَ فِى الشَّرْقِ مَهْلاً ... أَيْنَ إِصْلاَحُكُمْ وَأَيْنَ الصَّوَابُ ؟ !

هذا هو ماأورده منها ابن بليهد .. الذى رَدَّ عليه بقصيدة طويلة منها :

إِنْ هَرِمْتُمْ عَلَى الْحُرُوبِ فَإِنَّا ... كُلَّمَا طَالَتِ الْحُرُوبُ شَبَابُ

ومنها :

انْجَلَى الظُّلْمُ وَالْمَظَالِمُ يَا قَوْمُ ... وَهِىَ بِالأَمْسِ بِالْحِجَازِ عُبَابُ

أَيُّهَا الْغَافِلُونَ قَدْ ظَهَرَ الْحَقُّ ... فَاسْمَعُونَا فَمَا يَكُونُ الْعِتَابُ ؟

لاَ تَعَضُّوا بِالأَلْسُنِ الْعَرَبَ الْعَرْبَا ... يَوْمَ عَضَّتْكُمُ الرِّهَافُ الْغِضَابُ (٢)

---

(١) المناطيد : جمع منطاد ـ بضم فسكون ـ وهو الشىء المرتفع ، ويقصد به الشاعر ـ ذلك الاختراع الضخم الذى اخترعه المهندس الألمانى « زِبْلِنْ » فى أوائل القرن العشرين الميلادى ، وفى اللغة « انطاد » : بمعنى ارتفع صُعُداً إلى السماء .

(٢) فى هذه الأبيات بعض خروج على الوزن العام لها .

والقصيدة طويلة جيدة ولها نظائر فى الديوان .

الديوان :

هو « ابتسامات الأيام فى انتصارات الإمام » فى٣٦٣ص من الحجم المتوسط بدأه بمقدمة ذكر فيها شيئاً عن مطلع حياته ومحاولاته فى قرض الشعر ، وما لاقاه من نجاح، أو تخذيل ، ثم انتقل إلى أجزاء الديوان ، وسنعرض لها حسب وجودها لا كما قال ـ :

أما القسم الأول : ففى مدح الملك عبد العزيز وقد بدأه بمقدمة تاريخية عن حياة المؤسس الأول لهذه الدولة الفتية وذكرياته الخاصة معه .

وأما القسم الثانى ففى مدح ولى العهد سعود بن عبد العزيز (الملك السابق) وقد بدأه أيضاً بشبه ترجمة له .

وأما القسم الثالث فهو مدح لسمو النائب العام .. أى : صاحب الجلالة الملك فيصل بن عبد العزيز ، وقد بدأ [هذا] الفصل بلمحة تاريخية عن حياتى جلالة الملك فيصل ، وابنه الأمير عبدِ الله ، ثم بنقل الفصل الخاص بأمراء مكة من كتاب « مرآة الحرمين » الجزء الأول من صفحة ٣٥٤ إلى صفحة ٣٦٦ لمؤلفه إبراهيم رفعت باشا .

ومما أورده فى هذا القسم قصيدةٌ نَظَمَهَا فى جلالة الملك فيصل حينما عُقِدَ له نائباً للمغفور له الملك عبد العزيز على الحجاز عام ١٣٤٥هـ ، وبَدَأَ كُلَّ بيتٍ منها بحرف من حروف اسمه ، حسب الترتيب ، وهذا من مظاهر الصنعة ، [وقد] قال : إنه شائع عند الحجازيين ، ومنها :

فَتَى السَّعْدِ بَادٍ وَالْعُيُونُ تُرَاقِبُهْ وَلاَحَتْ عَلَى أُفْقِ الحِجَازِ كَوَاكِبُهْ

يُبَارِينَ مَنْ نَالَ الْمَكَارِمَ وَالْعُلاَ وَقَدْ عُرِفَتْ فِي الْعَالَمِينَ مَنَاقِبُهْ

صَبَا نَجْدَ هُـبِّي في الْحِجَازِ فَإِنَّهُ ... عَلَى أَهْـلِهِ أَمْنٌ وَطَابَتْ مَشَارِبُهْ

لَعَمْرِى لَقَدْ نَالَ الْحِجَازُ بِفَيْصَلٍ ... وَمَقْدَمِـهِ أُنْساً تَتِمُّ مَآرِبُهْ

وهكذا إلى أن أتم ستة عشر بيتاً ، بدىء كل بيت منها بحرف من اسم « فيصل بن عبد العزيز » .

[وأما] القسم الرابع [ففى] الرثاء . وممن رثاهم زوجته ، إلا أنه لم يستطع أن يصل بشعره [فى رثائها] إلى مستوى الحدث الذى أصابه ، والرزيّة التى حلَّت به .. بفقد شريكة حياته .

وأما القسم الخامس فقصائد متنوعة كالوصف والغزل ، ومما ورد فى هذا القسم قصيدةٌ قالها إبَّانَ وجوده فى مصر للعلاج ، حاول فيها أن يصف مرضه ، وما شاهده من تقدم علمىٍّ وطبِّىٍّ بمصر ، ومن ذلك قوله :

الْعِلْمُ أَلْقَى بِوَادِى النِّيلِ أَرْحُلَهُ ... حتَّى تَسَنَّمَ فِيـهِ أَرفَعَ السُّورِ (١)

ثم ذَيَّل ديوانه بشىء من شعره العامىِّ ، وأعقبه بذكر مختارات من شعر فحول العامِّيَّة فى نجد .

ولغةُ الشيخ فى شعره العربى الفصيح سهلةٌ ، قريبة المنال فى الغالب وتراكيبه رتيبَة خاليةٌ من التعقيد .

أيها السادة :

قلنا : إن الشيخ ابن بليهد كان يقول الشعر بالعامِّيَّةِ والفُصْحَى ولم نتطَرَّق إلى [دراسة] شعره العامىِّ ، لخروجه عن موضوعنا « الشعر الفصيح » .

غير أن هناك مسألةً تجدُر الإشارة إليها ، وهى أن الناظر فى شعر الشيخ

---

(١) السور : جمع سورة ، وهى المنزلة والدرجة ، وتسنم : اعتلى .

يتبين أن شعره العاميَّ فى مجاله أقوى من شعره الفصيح فى مجاله .

ولعل ذلك راجع إلى كون الشعر العاميِّ صحبَ الشيخَ منذُ الصِّبَا ، ولقد علمتم ـ مما قلنا ـ أنه كان يساجل فحول ذلك الميدان وهو شاب صغير .. يُرْفَع على الأكتاف ليُلقِيَ بما عنده ، فتركت تلك الفترة من حياته أثراً بليغاً فى نفسه ، كانت تَطْفَحُ به كتاباته ، وتفوح به مقالاته ، بل لقد كان يعتزُّ به ، وبما قال فيه ويفاخر ، ويرى أنه جدير بالعناية والدراسة .

كما كان يُنْحِي باللوم على رجال الأدب الذين عرفوا ذلك النوع من الإنتاج ويتهمهم بالخروج على المعايير الصحيحة فى تقييم الأدب ، لأنهم وصموا الشعر الشعبي بالسطحية والقُحُولَة والجفاف .

ولقد دفع به نجاحهُ فى هذا الميدان إلى البدء فى محاولةٍ أخرى .. هى قَرْضُ الشعر الفصيح الذى بلغ من نجاحه فيه أن الكثير من كبار شعراء عصره كانوا يعتدُّون برأيه ، ويعرضون عليه قصائدهم منه قبل إخراجها .

حدَّثنى ابنُ أخيه أن « الغَزَّاوِيَّ ، كان يعرض [على عمه] قصائدَه قبل إلقائها ، وكذلك كان « العوَّادُ » يستضيء برأيه فى شعره ، وهنالك ظاهرة فى مقدمة الديوان جديرة بالملاحظة لِجِدَّتِهَا على أسلوب الكتابة فى بلادنا زمن تدوينها ، وهى أن المقدمة تعتبر نَمُوذَجاً للكتابة الأدبية الراقية ، ذات الصياغةِ الفنية المنبعثة عن مَلَكَةٍ راسخةٍ فى فن الكتابة ، ومقدِرةٍ بارعة فى ترتيب الفِكَرِ العميقة ، وعرضها عرضاً شيِّقاً مرتَّباً ، مع دقةٍ فى انتقاء الألفاظ القادرة على التعبير عن التجربة الأدبية الصادقة ، التى أراد ابن بليهد عرضَها فى مقدِّمة ديوانه ، وقد أحسن العَرْضَ .

ولو رجعنا إلى الوراء قليلا عِشْرِين سَنَةً فقط ، لوجدنا أن ذلك المذهب فى

الكتابة كان فى بلادنا عَدَماً ، وأن ابن بليهد كان من الرُّوَّاد الأوائل .. فى مجال الكتابة ، كما كان كذلك فى الشعر ، على ما أسلفنا .

وكم كنت أتمنى .. لو بَسَطْتُ القول عن الكتابة ، لولا أن المجال لغيرها فلْنَدَعْها على أملِ اللقاء بها فى مقام آخر إن شاء الله .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المحاضرة الثانية

الشعر فى نجد بعد منتصف القرن الرابع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا .. محمد ، وعلى آله وصحبه والتابعين ، وبعد :

فيأيها السادة :

إن هذا حديث سبق أوّلُه وتأخر باقيه ، حتى مشت بين جزئيـه أيام ، بل أعوام أوشكت فيها العزيمة ـ على الإتمام ـ أن تَضِيعَ وَسَطَ الزحام ، وأوشك الحماس ـ فى مواصلة البحث ـ أن يُوأَدَ من الـكسل بناقد السهام .. بعد ماعَلاَ غبارُ الإهمال نَاصِـعَ صفحاته ، وشاه من النسيان مُشْرِقُ قسماته ، فلا تُرَى منه إلاّ رُؤَى نِيَّةٍ ، وأطيافُ عزيمـة .. لَعِبَتْ بها يَدُ الوساس، ومزّقتْهَا أَسِنَّة الأوهام ، فاستكانت ، وعلى شفَتَيْهَا المرتعشتين هَمْسَةُ [تساؤل] حَيْرَى ، لا تجد لاستفهامها جواباً .

[هذه الهمسة هى] : لمن تُحَبَّرُ سطور البلاغة ، وتُجلَى عَرَائِسُ البيـان ؟ على أن الميدان ميدانها ، والقومَ فرسانها .

ولولا اعتباراتٌ وميولٌ لـكان لهذا الحديث ـ كما كان لغيره ـ مجـالات أخـــرى .

ولولا التماساتٌ عزيزةٌ لطالت نوْمَتُه ، بل ربما كُتِبَ له الضَّيَاع .

فالشكر ـ بعد الله ـ لمن كان السبب الدافع ، والعاملَ المُغْرِيَ ،

ومن يَدْرِى ؟ فلعل هذه بداية حال جديدة .

توطئة :

[كنا] فى محاضرة سبقت قد تناولنا بالبحث شِعرَ نجـد وشعراءها ، من منتصف القرن الثانى عشر إلى منتصف هذا القرن .

[وقد] استفتحنا البحث بالإشارة إلى حالة نجـدٍ فى عصورها الوُسطى ، التى تبدأ بنهاية القرن الثانى بعد الهجرة ، وتنتهى بقيام المجدِّد الإمام محمـد بن عبدِ الوهاب ـ رحمه الله ـ فى منتصف القرن الثانى عشر ، وكيف أنها كانت فى تلكُم الِحقَبِ نَسْياً مَنْسيًّا ، بعـد أن كانت منبع الفصحى ، ومرتع الفصحاء ومُسْتَرْوَحَ المحبين ، ومسرح الشعراء ، من أيام الجاهليـة الأولى .. إلى أول أيام العباسيين .

أخذنا بعد ذلك بأطراف الحديث عن الشعر والشعراء فى نجد ، بعد قيام محمد بن عبد الوهاب ، إلى منتصف هـذا القرن تقريباً ـ حين بدأت « نجد » عصرَها الحديثَ بتناول أسباب الحياة الحديثة وما فيهـا من أطوار الارتقاء [وعلى] رغم أنه لم يَمْضِ على بدء أَخْذِها بتلك الأسباب رُبْعُ قرن تقريباً ، فقد وَصَلَتْ ـ بتوفيق الله .. ، ثُمَّ جُهُودِ أبنائهـا التى لاتعرف الـكلاَل ، ولا المَلاَلَ إلى مرتبةٍ من التقدم . توشك بها أن تُدْرِكَ مَنْ سبقها ، وتَسْبِقَ مَنْ جاراها . فى جميـع مناحى الحياة الفكرية والاجتماعية والتجارية والصناعية والعمرانية ، وغير ذلك .

فمـا نَصِيبُ الشعر يا تُرَى فى معترك الحياة الجديدة التى وَرَفَتْ أفياؤها على أَدِيمِ أَرضٍ أنجبت صَنَّاجَةَ العَرَب « الأعشى » ، وزهيرَ ابْنَ أبى سُلْمَى ،

وامْرَأَ القيس ، وجَرِيراً ، وذَا الرُّمَّةِ[1] . وكثيرين من أمثال هؤلاء ! ؟ .

إن أرضاً ـ كنجد ـ عُرِفَتْ فى ميدان الشعر بوفْرَةِ عطائها ، وخُصوبة نَتَاجِها ـ فى فترة كانت فيها شبه معزولة ـ : لا يمكن إلا أن تكون أوفر عطاء

(١) الأعشى : هو ميمون بن قيس المعروف بصناجة العرب وبالأعشى الأكبر . شاعر مشهور بالطوال الجياد ، وبسعة الأغراض ؟ وهو من قرية « منفوحة » المجاورة للرياض ، ويرى كثير من الأدباء ـ ومنهم نحن ـ أنه الزعيم الحقيقى للشعر الجاهلى ـ وأنه أشعر شعراء الجاهلية ، ويعتل زعماء النقد فى تنحيته عن مكانة الزعامة بأنه سأل بشعره ، وأدخل كثيراً من الكلمات الأعجمية فيه ، وقد رددنا على ذلك رداً مفحماً فى كتابنا « صناجة العرب أو أعشى قيس » .وقد توفى سنة ٧ هـ / ٦٢٩ م بعد أن قصد إلى الرسول ـ صلوات الله عليه ـ مادحاً بداليته المشهورة التى أولها :- :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمداً   وبتّ كما بات السليم مسهداً

ورجعه أبو سفيان بن حرب بعد أن منحه مائة ناقة حمراء ، وقرب بلده قفزت به ناقته فدقت عنقه ومات .

وزهير بن أبى سلمى شاعر جاهلى فحل اشتهر بالحكمة والعقل والاتزان ، وقد مات سنة ١٣هـ/ ٦٠٩ م ، وقد تقدمت ترجمة صغيرة لابنه كعب رضى الله عنه ، كما تقدمت ترجمة قصيرة لامرىء القيس : أما جرير : فهو جرير بن عطية الخَطَفَى أشهر الشعراء الأمويين وأرقهم لفظاً على الإطلاق ، وقد توفى سنة ١١٠ هـ/ ٧٢٨ م .

وأما ذو الرمة : فهو غيلان بن عقبة الشاعر والراجز الأموى المشهور . المتوفى سنة ١١٧هـ/٧٣٥ م .

وأخصب نِتاجاً فى عصرٍ اتكشفت لها فيه جميع العوالم ، وربطتها بها شتّى الروابط والصلات .

فهل .. يا تُرى يستطيع أبناؤها أن يعيدوا لها زعامةَ الشعر بعد ما أفلت من أيديهم زمامها ؟ حينما تريد أُمَّةٌ أن تَبْنِيِ لها كِيَاناً جديداً فإن التقليد لا بد من أن يكون بداية الطريق إلى الترقى والتجديد .

فى منتصف هذا القرن كانت الحركاتُ الأدبية الجديدة فى العالم العربى قد بلغت أشدها ، وآتت ثِمارَها يانعةً فى بعض الأقطار العربية ـ كمصر والشام والمهجر مثلا ـ حيث ظهرت المذاهب الجديدةُ التى اشتدأُ أُوَارُ الصِّرَاع بينهما على مسرح الأدب العربى الجديد ، مُتَمَثِّلَةً فى مدارسه التى عرفها تاريخ الأدب العربى فيما خلَّفه أرباب تلك المدارس التى هى :

١ — مدرسة خَلِيلِ مُطْرَانَ .

٢ — مدرسة الديوان .

٣ — مدرسة المهجر .

[٤ — مدرسة أبُولُّو] .

[مدرسة خليل مطران] :

فلقد فتح خليلُ مُطْرَان باب التجديد ، بدعوته التى أطلقها عام ١٣٢٨ هـ والتى تتخلص فى الدعوة إلى التجديد . فى مضمون القصيدة ، ووحدة البناء ، ونبذ شعر المناسبات ، وتحررِ الشاعر من التبعية للقصر ، والاهتمام بشعر الذات .

وتلك دعوةٌ لا تتنافى وطَبِيعَةَ الشعر العربى المحافظ ، ومع هذا فلم يستطيع مطرانٌ نفسه تطبيقها ، الأمرُ الذى دفع بعض النقّاد إلى الاعتذار عنه بأمور ليس هذا مجالَ ذِكرها .

وقد تابع مُطْرَانَ فى دعوته كثيرٌ . . منهم أرباب مدرسة الديوان [وهم] شُكْرِى ـ والمَازِنِى ـ والعَقّاد ، فاستطاعوا أن يحققوا ماعجز عن تحقيقه مُطْرَانُ ، وزادوا عليه التحرر . . من قيد الرَّصَانَةِ فى الأسلوب ، كما كان فيهم مَيْلٌ إلى شعر التشاؤم ، والتَّبَرُّم بالحياة والناس .

غير أن تلك المدرسة لم تُعَمَّر طويلا فقد خَرِبَتْ بأيدى أهلها ، وعاد بعضُها يأكل بعضاً ، بعد أن أجهدت نفسها فى النَّيْل من عمالقة المدرسة التقليدية فعجزت عن تحقيق النصر ، لأن هدف الحملة كان مشبوهاً ، وذلك أمر معروف .

[موقف المحافظين بقيادة شوقى] :

على أن المحافظين من رجال المدرسة القديمة بزعامة أمير الشعراء « أحمد شوقى » ورفاقه من أساطين الشعر العربى مثل « حافظ إبراهيم » و « الشيخ عبد المطلب » : قد تَصَدَّوْا لرياح التجديد العاتية ، التى هَبَّت من كل اتجاه ، وهى تحمل فى اليمين مِعْوَلاً لهدم القديم ، وفى الشِّمَالِ رَايَةَ التجديد ، ففوَّتُوا عليها الفُرَصَ . وجعلوها تُثْبِتُ عجزها بنفسها ، وتَشْهدُ على ذلك فى أعمالها .

ويكفى أن نعلم أنَّ من ثمار تلك الدعوات ظهورَ مايسمى « بالشعر الحُرِّ والشعر المنثور » وإنه لمنثورٌ حقًّا .

[التقليد طريق التجديد] :

قلنا ـ قبل قليل ـ : إن التقليد هو الطريق إلى التجديد فى كافة مجالات الحياة لدى كل أمة من الأمم ، ولا شىء يظهر فيه ذلك واضحاً كالفنون التصويرية .. لافرق بين ما كان تعبيرُه بالألوان والخطوط ، وما كان تصويره بالكلمة والنَّبْرَةِ أو النَّغْمَةِ .

وابتداء من هذا المُنْطَلَقِ سار الشعر فى هذه البلاد فى مطلع النصف الأخير من هذا القرن .

فلقد أقبل الجيل الجديدُ - إذْ ذاك - على قراءة الشعر قديمه وحديثه وحِفْظِ مايَسْتَجْوِدُونه(١) منه ، ثم استظهارِ معانى ألفاظِه وتراكيبِه ، واستجلاء مافيه من صور وأفكار ، وأخيلةٍ واتجاهات ، فاستقامت بهم الطريق حيناً ، ثم غرّتْهم الاتِّجاهَاتُ الجديدة .. قبل أن تتحدَّد ملامح شخصية أدبهم ، فاختلط فيهم الحابل بالنابل(٢) ، واغترَّ منهم من اغْتَرَّ .

وما كان أغناهم عن ذلك وهم أبناء أُمِّ الشعر ومُرْضِعَتِه الأولى (نجد) .

الشعر الحر ، أو المنثور !!

على أنه لايعنينا من ذلك إلاّ ما كان منه داخل إطار الشعر المُحَافِظِ .. فى وزنه وقافيته ، أما ماعَدَاهُ - مما يسمُّونه بالشعر الُحْرِّ والمنثور - فما زال موضع جَدَلٍ ، وماأظن أنه سيحظى فى يومٍ مَّا باعترافِ المحققين بجواز دخوله تحت هذا الشعار « الشعر » .

وهنا لابد من أن يَعْرِضَ لنا سؤالان لامفر من الإجابة عليهما :

السؤال الأول : لماذا وُجِدَ هذا النوع من الشعر الدَّعِيِّ ؟

السؤال الثانى : لماذا لانُجِيزُ دخوله تحت كلمة « شعر » ؟

والحقُّ أن الجواب على هذين السؤالين جدير بأن يُفْرَدَ له بحث خاص ، « ومالا يُدْرَكُ كُله لاَ يُتْرَكُ جُلُّهُ »(٣) .

---

(١) ومثلها يستجيدونه .. ففيها لغتان .

(٢) الحابل : الذى يجمع الحبال ، والنابل : الذى يهيىء النبال .

(١) جله : معظمه وأكثره .

ولما كنا قد طرحنا هذين السؤالين المُتَوَقَّعَيْنِ صار لِزَاماً علينا أن نُجيب عليهما، ولو بعُجَالَةٍ [قصيرة] .. إتماماً للفائدة.

أولا : الجواب على السؤال الأول : يُشَبِّهُ العلماء العلومَ والفنونَ بالكائنات الحَيَّة .. فى كونها تبدأ حياتَها ضعيفةً هزيلة [ثم] تأخذُ فى صعودها سُلَّمَ التدرُّجِ الطَّوْرِيِّ حتى تبلغ الذِّرْوَةَ بعد أن تتم فيها الضروريات، وتأخذ بنصيبها من الاكتمال.

عندئذ يجدُّ البحث فيها عن التجديد ـ حتى إذا ما استَنْزَفَتْ أدواتِ التَّرَفِ والكماليَّات فى حياتها، صارت إلى المخالفات لكل ما هو مألوف.

وإنما يكون ذلك على يد هُوَاةِ التجديد والشُّهْرَةِ .. ممن ليسوا من أهل ذلك.

ولقد تعرض الأدب العربى ـ عَبْرَ حياته الطويلة ـ لكثير من العواصف التى هاجَتْهَا النزوات العارمة، التى شُحِنَت بها نفسيَّاتُ عُشَّاق الشهرة، الذين أقعدتهم عنها قُدْرَاتُهم العاجزة عن إدراك التجديد .. من طرقه المشروعة.

غير أن ما تَنْفِثُه تلك النَّزَوَات، وما تسحبه تلك العواصفُ على وجه الأدب العربى ـ مِن أدران وقَذًى ـ لم تلبث أن اجترفتها الحقيقة، وألْقَتْ بها غُثَاءً كغُثَاءِ السَّيْل، ولم يحفظ التاريخ منها إلا نَمَاذِجَ للتاريخ الأدبى .. لأنَّها غير صالحة للبقاء.

ولنَذْكُرْ على سبيل المثال تلكَ الزوابع التى اجتاحت الأدبَ العربى فى المشرق ـ أيام العباسيين ـ والأدبَ العربى بالأنْدَلُس، والمُتَمَثِّلَةَ فى «المُوَشَّحَاتِ» وما ماثلها .. من الفنون السبعة وغيرها ـ من مثل « الدُّوبَيْتِ » و« السلْسلَة » و« المَوَالِيَّا » وَ« كَانَ وَكَانَ » و« الزَّجَلِ » و« القُوما » ـ وما لفَّ لِفَّهَا مما عَفَتْهُ رَوَامِسُ الأصالة والحقيقة الثابتة .. فى الكِيانِ الخالد للشعر العربى :

إسأَلِ التَّأرِيخَ - تَارِيخَ الْأَدَبْ   أَيْنَ كانَتْ ؟ لِمَ مَاتَتْ ؟ مَا السبَبْ ؟

ألم يكن لها من الانتشار والذُّيُوع والسيطرة على مجالس الأُنس والسَّمَرِ مالم يحلم به ماسُمِّى - فى عصرنا هذا - بالشعر الْحُرِّ ، والشِّعْرِ المنثور .. فضلا عن الوصول إليه ؟

[إنها] «مُودَةٌ» تجديدأَصْبَاغٍ ،وعَمَلِيَّةُ « مَا كِيَاجْ »لايكاد الْمَاءُيلامسها حتى تَزُولَ وتبقى الحقيقة ثابتةً .. ثبوتَ الرَّاسيات من الجبال !! .

فهل يَتَبَصَّرُ شَبَابُنَا ، وثَوَرَةُ كِفاحنا وبَانى مستقبلنا .. طريقَ الحقيقة ويصرفُ نظره عن سبيل المَاكِيَاجِ والمودات ؟

إنى أُشفِق على جهود هذا الشباب المتفتحة .. من أن تذهب أَدْرَاجَ الرياح فتضيع كما ضاعت جهودٌ سبقتهم [- من قبل -] على ذلك الطريق اللاحب .. الذى تَرَفَّعَ عنه الفُحُول المتبصِّرُون .. من مثل أبى الوليد ابن زَيْدُونَ(١) .

[مخمسات أو موشحات] ؟!!

ولما كان الشيء بالشيء يُذْكَرُ ، فإنه يحسن أن نَذْكُرَ - هنا - أن القصيدتين الواردتين فى آخر ديوان ابن زَيْدُونَ : قد عـدَّها بَعْضُهم من قبيل المُوَشَّحَات ، غير أن العَلِيمَ بنظم القوافى الشعرية عند العرب يَعلَمُ تمام العلم أنَّهما من قبيل المُخَمَّسَات وليستا بمُوَشَّحَتَيْنِ .

وحتى يكون القول أكثر وضوحاً ويكون الحكم بعد معاينة - نورد قطعتين من كلتا القصيدتين :

أولا : القصيدة الأولى ص١٩٧(١) ، قال منها :

---

(١) أبو الوليد .. أحمد بن عبد الله الشاعر الأندلسى الأديب ، والكاتب العربى الأريب المتوفى سنة ٤٦٣هـ ، ١٠٧١م .

(١) ديوان ابن زيدون الطبعة الثانية ١٣٧٥هـ .

سَقَى الْغَيْثُ أَطْلَالَ الْأَحِبَّةِ بِالْحِمَى وَحَاكَ عَلَيْهَا ثَوْبَ وَشْيٍ مُنَمْنَمَا (١)
وَأَطْلَعَ فِيهَا لِلْأَزَاهِيرِ أَنْجُمَا فَكَمْ رَفَلَتْ فِيهَا الْخَرَائِدُ كَالدُّمَى (٢)
* إِذِ الْعَيْشُ غَضٌّ وَالزَّمَانُ غُلَامُ * (٣)

* * *

أَهِيمُ بِجَبَّارٍ يَعِزُّ وَأَخْضَعُ شَذَا الْمِسْكِ مِنْ أَرْدَانِهِ يَتَضَوَّعُ
إِذَا جِئْتُ أَشْكُوهُ الْجَوَى لَيْسَ يَسْمَعُ
فَمَا أَنَا فِي شَيْءٍ مِنَ الْوَصْلِ أَطْمَعُ
* وَلَا أَنْ يَزُورَ الْمُقْلَتَيْنِ مَنَامُ * (٤)

* * *

قَضِيبٌ مِنَ الرَّيْحَانِ أَثْمَرَ بِالْبَدْرِ لَوَاحِظُ عَيْنَيْهِ مُلِئْنَ مِنَ السِّحْرِ
وَدِيبَاجُ خَدَّيْهِ حَكَى رَوْنَقَ الْخَمْرِ وَأَلْفَاظُهُ فِي النُّطْقِ كَاللُّؤْلُؤِ النَّثْرِ
* وَرِيقَتُهُ فِي الارْتِشَافِ مُدَامُ (٥) *

---

(١) الوشى : نقش الثوب من كل لون ، والمنمنم : المزخرف المنقوش .

(٢) رفلت : تاهت واختالت ودلت ، والدمى : جمع دمية ، وهى الصورة المنقوشة من الرخام ، أو من أى نوع .

(٣) الغض : الناعم المترف ، وغلام : شاب .. أى : عيش كله سعة ورغد ورُواء .

(٤) الشذى : الرائحة ، ويتضوع : ينتشر ، والأردان : جمع رُدْن - كقفل ، وهو أصل الكم .

(٥) لواحظ عينيه : من إضافة الصفة للموصوف .. أى ، عيناه اللاحظتان واللحظ : النظر بمؤخر العين ، والديباج : نوع من الحرير المنقوش ، وهو من إضافة المشبه به للمشبه ، وحكى : شابه ، والرونق : الحسن ، والريقة : نوع خاص من الريق ، وهو الرضاب أو ماء الفم ، والمدام : الخمر .

ثانياً : القصيدة الثانية ص ٢٠٠ (ا) قال منها :

تَنَشَّقَ مِنْ عَرْفِ الصَّبَا مَا تَنَشَّقَا وَعَاوَدَهُ ذِكْرُ الصِّبَا فَتَشَوَّقَا
وَمَا زَالَ لَمْعُ الْبَرْقِ لَمَّا تَأَلَّقَا يُهِيبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ حَتَّى تَدَفَّقَا
وَهَلْ يَمْلِكُ الدَّفْعَ الْمَشُوقُ الْمُصَبَّأُ ؟(١)

خَلِيلَيَّ إِنْ أَجْزَعْ فَقَدْ وَضَحَ الْعُذْرُ وَإِنْ أَسْتَطِعْ صَبْراً فَمِنْ شِيمَتِي الصَّبْرُ
وَإِنْ يَكُ رُزْءاً مَا أَصَابَ بِهِ الدَّهْرُ فَفِي يَوْمِنَا خَمْرٌ وَفِي غَدِهِ أَمْرُ
*وَلَا عَجَبٌ إِنَّ الْكَرِيمَ مُرَزَّأُ *(٢)

وفى الجواب على السؤال الثانى نقول :

إنه لايجوز لنا أن نعتبر مايسمَّى بـ « الْحُرّ والمنثور » ـ شعراً عربياً . لأسباب عديدةٍ من أهمها : فِقْدَانُ [الخصائص الذاتية الآتية] :

(ا) من ديوان ابن زيدون المطبعة الثانية ١٣٧٥ ص ٢٠٠ .

(١) العرف : الرائحة ، والصبا ـ بفتح الصاد ـ : رياح نجد ، وتعرف برياح العاشقين ، والصبا ـ بكسرها ـ ، الصغر والشباب ، وتألق ، سطع ولمع ، والمصبأ : المصاب المهجوم عليه .. ممن لايشعر .. بمكانهم ، يعنى بذلك قوى العشق والحب التى تهاجمه أبداً . وفى البيت الرابع من هذا المقطع إشارة إلى كلمة امرىء القيس ـ حين بلغه قتل أبيه ـ : « اليوم خمر وغداً أمر » ، وفى نهاية المقطع إشارة إلى قول أبى تمام :

لا تنكرى عطَلَ الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى

(٢) العذر : السبب ، والشيمة : الخلق ، والرزء : المصيبة والداهية ، والمرزأ : المصاب .

أولا : الموسيقى الخارجية .

ثانياً : الموسيقى الداخلية .

ثالثاً : الاستقلال الكيانى .

وحينما ننظر فيما يُسَمَّى « بالشعر الحرّ والمنثور » لانجِدُ فيه من ذلك شيئاً . ـ اللهُمَّ إلاَّ ظلالاً من الموسيقَى الداخلية توجد فى بعض مقطوعاته [إن كان]ـ يشوه ما كان منها مقبولا . ذلك التكلُّف واللفُّ والدَّوَرَانُ والتَّكْرَارُ . لمحاولة إبراز المقصود .. حتى لَكَأَنَّمَا كاتبُهَا يُعَانى عملية ولاَدَةٍ مستعْصِيَةٍ ، يجب أن تُجْرَى لهـا العملية القَيْصَرِيَّةُ ، أو تقْرَأَ لهَا قِرَاءَةُ الزّلْزَالِ ، لِتَضَعَ جنينها المشوّه ، ومِسْخَهَا الجديد .

إنَّ مايُوحى به تفاعل المشاعر . داخل النفس الشاعرةِ ـ لا يُحْدِثُ تفاعلا مع المشاعر المُسْتَقْبِلَةِ للعمل الفنّى ، إذا ما تعثَّرَتْ الأولى فى أوحال التَّعَمُّلِ والتكلّف .

وذلك مايشكو منه هذا الدَّعِيُّ على الشعر العربى .

أما الموسيقَى الخارجية والتَّمَيُّزُ والاستقلال الْكِيانى : فلا نصيب لهذا الدَّعِيِّ فيهما ، بل إن هَدَفَهُ العَمَلُ على هدمها .. يدفعه فى ذلك عوامل عديدة : بعضُها من ذاته المغمورة بمرَكَّبِ النقص ، وأخرى هدَّامةٌ مخرِّبَةٌ وَجَّهَتْهُ ـ شَعَرَ أَوْ لَمْ يَشْعُرْ ـ إلى مَصِيرٍ سَحِيقٍ .

هل يَعْنِى هـذا أَنْ لاَ نَصِيبَ للشعر الْحُرّ والمنثور .. فى الموسيقى الخارجية والتميُّزِ الكِيانى .

حينما نتأمل ينابيع الموسيقى الخارجية فى الشعر نجد أنهـا تَتَفَجَّرُ من منابع من أهمها :

(ا) اللفظ . (ب) الوزن . (حـ) القافية .

والتقاء هـذه الينابيع وتفاعلُهَا ـ مع بعضها ـ يُوجِدُ التَّميُّزَ الـكِيانى . الذى نَعْنِى به وجودَ كِيَانٍ شعرىٍّ متميز بذاته ، ومستقل بسماته وخصائصه ، عن سائر الـكيانات الأدبية الأخرى المتميزة بدورها.. بخصائِصَ وسماتٍ تُميِّزُها عَمَّا عَدَاهَا .

ولو أننا ـ على سبيل الفَرْضِ والتقدير ـ جارينا أرباب مايسمى بالشعر الحر والمنثور ـ فيما ذهبوا إليـه ، لترتب على ذلك انعدامُ الفارق بين الشعر وبين النثر الفنى ، ولتَوَجَّب علينا أن نعتبر كثيراً من أنواع النثر الفنى شِعْراً .

إذ ماالفرق بين هذا النص النثرى للأستاذ محمد فريد وجدى ، وبين النص الآتى أيضاً للشاعر التونسى الطاهر الهمامى ـ ولا أقول الشعر ـ إذ هو من النثر المتكلَّف لا الشعر .. ، وهذان هما النصان .

قال الأستاذ محمدُ فريدِ وَجْدِى(١) :

« خَرَجْتُ فى يومٍ رَقَّ نسيمُهُ وراقَ أدِيمُهُ ، أُسَرِّحُ الطَّرْفَ فى بعض شوارع القاهرة ، وأستَجْلِى معاهدَها الفاخرة ، ومغانيهاَ العامرة ، وإذا أنا بطَغَامٍ من الشبَّان ، يتعقبون سِرْباً من الِحسان ، وهم على أشد مايكون من صَبْوَةٍ وَخَلاَعة، وتَهتُّك وَرقاعة ، يتمايلون كأنهم سُكَارَى،وماهم بسكارى ويصطَخِبُونَ اصطخابَ الُحمُرِ الُمستَنْفِرَةِ ، فَرَّتْ من قَسْوَرَة .

كل ذلك والناس يمرون بهم لاتثور لهم حَمِيَّةٌ ، ولا تأخذُهم نَخْوَة

(١) الوجديات لمحمد فريد وجـــدى الطبعة الأولى ١٣٤٦ هـ ص ٧٢ الوجدية الثامنة .

الرُّجُولِيَّةِ ، لأننا قد أَلِفْنَا الخَنَى[1] ، فلا نستكبره ، وأنسنا بالانحطاط الأدبى فلا نُنْكِرُه ، فماراعنى إلا رجلٌ ـ كبير الجُثْمَان ، قَوِىُّ الأركان ، عليه قَلَنْسُوَةٌ وطَيْلسانٌ . كأنه من بلاد الأفغان ، اعترض أولئك الطَّغَامَ الخالعين للعِذَارِ فاستوقفهم بصيحةِ جبَّارٍ . وكنت على مَقْرُبَةٍ منهم ـ فوقفت معهم ، وإذا به يقول : أَلِهَذَا الحدِّ أيها المفتونون، يصل بكم المجُون ؟ ! ، وإلى هذا المَدَى معشرَ السفهاء ، تُطَوِّحُ بكم الأهواء ؟ ! لقد ضارعْتُم الخنازيرَ فى خِسَتِهَا . وشاكلْتُمُ الحَمِير فى بَلَادَتِهَا ، ولا أَعُمُّ أنواعَ الحيوان ، فمنه طوائف تتستَّر عن العِيَانِ . فى مثل هذا الشأن .

أما أنتم أيها الأنذال فلا تخشَوْنَ رَقِيباً ، ولا تعتبرون حَسيباً ، ولا تعرفون حدًّا ، ولا تحترمون عَهْداً .

يملأ أحدُكم بَطْنَهُ ثم يركب رأسه ، فيطوف الأَزِقَّةَ كالكلبِ الضَّالِّ يتلمَّسُ قُمَامَةً يتشمَّمُهَا . أو خِزْيَةً يتقحَّمُهَا .

بئس أفرادُ أُمَّةٍ أنتم ، فليْتَ لها بعَدَدِكم ثِيرانًا ، تفيدها فى زراعتها وتعينُهَا على معيشتها » .

وقال الشاعر التونسى الطاهر الهمامى بعنوان[1] .

« لَوْحاتٌ من مِعْرَضِ الجَرِيمَةَ » .

---

(١) الخنى : تكتب بالياء ، وكذلك الألف « الختا » .. لأنها واوية ويائية .

(١) مجلة الفكر التونسية العدد الرابع ١٩٧٠ ص ٤٣

١ ـ منكوب

الطَّائِرُ الْحَزِينْ

الرَّاجِعْ مِنْ خَرَائِبِ الطُّوفَانْ

وَمِنْ أَنْقَاضِ الطِّينْ

دَاهَمَهُ اللَّيْلْ

ظَلَّ الطَّائِرُ يُرَفْرِفُ بَيْنَ الْأَغْصَانْ

يَبْحَثُ عَنْ شَيْءٍ

عَنْ شَيْءٍ كَانْ

* * *

الطَّائِرُ الْحَزِينْ

يُرَفْرِفُ حَيْرَانْ

يَفْرُكُ عَيْنَيْهِ

تَسِيلُ دَمْعَتَانْ

---

٢ ـ مغلوب

الْوَيْلُ الْوَيْلُ

عَقِمَتْ مَخَابِرُ الْأَرْضِ(١)

تَمَّ تَجْوِيعُ الْفِئْرَانْ

مِنْ جَدِيدْ

---

(١) عقم : من أبواب فَرِحَ ونَصَرَ وَكَرُمَ ، وَعُنِيَ .

لُعْبَــةٌ أُخْــرَى

تَمَّتْ اللُّعْبَــهْ

جَــاءَ اللَّيْــل

---

٣ ـ تعبير

عَلَى الْحَشِيشِ الْبَــارِدِ

الْبَــارِدِ الْمَبْــلُولْ

فِى حَــدِيقَةِ الْمَنْــفَى

قِطَــطٌ صَــغِيرَهْ

أَسْنَدَتْ رُؤُوسَهَا الصَّغِيرَهْ

تَحْــلُمُ بِالْفَجْــرِ

بِالْخُــبْزِ وَالْحُقُولْ

تَــكْسِرُ الْفَجْرَ عَلَى عُيُونِهَا الزُّرْق

نَهَضَــتْ تَمُــوءْ

نَهَضَــتْ تَقُــولْ

---

٤ ـ أغنية

يَا جَـدَارُ يَا جَـدَارْ

لَوْ تَخِـرُّ آهِ لَوْ تَنهَارْ

يَا عَــدُوَّ الشَّمْسُ

يَا أَصَــمٌّ يَا أَصَــمٌّ

إِلَى الْقَــرَارْ

إِلَى الْقَــرَارْ

هذان هما النَّصَّان ـ فلو أننا كتبنا نَصَّ مُحَمَّدِ فَرِيدِ وَجْدِى بهذه الطريقة المُضْحِكَةِ التى كُتِبَ بها النصُّ الأخير ، لوجدنا أن نَصَّ محمدِ فريدٍ أكثرُهما جمالا ، وأوضحهما قَصْداً ، مع سلامته من التَّـكرار السَّمِيجِ والتَّـكَلُّف المُضْنِى وعلى عكس ذلك نجد النص الأخير .

إذن لاميزة لمثل هذا النص الأخير سوى هذه الفراغات التى تبيض صفحته فهل يبرر ذلك تسميته شعراً ؟ ! ! إن ذلك لمنطق غريب .

* * *

ولما كنا قد عرَّجْنَا فى حديثنا على هذا الاتجاه المنحرف غيرَ راغبين فلابُدَّ أن نشير بحديث مُقْتَضَبٍ إلى واحد من شعراء شبابنا .. الذين طرقوا هذا المجــال .

الأستاذ سعد البواردى

أديب من أدبائنا المعاصرين .. شاعر وناثر معاً . أخرج أربعة دواوين من الشعر هى :

« ذرَّاتٌ فى الأفق » و « صفَّارَةُ الإِنْذَار » و « لقطاتٌ مُلَوَّنَةٌ » و « أغنية العودة » .

كما أخرج ثلاثة كتب .. وهى :

١ ـــ أجراس المجتمع . ٢ ـــ شبح من فلسطين .

٣ ـــ فلسفة المجانين .

كما أن لديه خمسة عشر كتاباً :

ستةٌ منها قِصَصٌ ، وخمسة منها دواوينُ ، وخمسة منها مقالات وهى :

١ — خاطرة البردونى . ٢ — رسائل إلى نازك .

٣ — عن الحقيقة . ٤ — فكرة ومأساة .

٥ — فى موكب الإشعاع . ٦ — أحاسيس من الصحراء .

٧ — أعاصير فى الحب والحياة . ٨ — نفحات وزوابع .

٩ — مع الناس . ١٠ — قِصَصٌ تافهة .

١١ — عبقرى المدينة . ١٢ — قصة مَلاك .

١٣ — أجنحة إنسان . ١٤ — الجراح حين تتكلم .

١٥ — حياتنا الشعبية من خلال الأمثال .

ويبدأ عمره الأدبى ـ كما حدَّده هو ـ بالعام الذى أصدر فيه مَجَلّة الإشعاع ، [وهو] عام ١٣٧٥ هـ ، أما تاريخ حياته فهذه هى أحداثه مُقْتَضَبَةً ،

ولد عام ١٣٤٩ هـ بشَقْرَاء ، ولم يكن ذا حصيلة دراسية تذكر ، فقد ترك الدراسة ولم يتجاوز مرحلة الكفاءة ، وكان عنصرُ الحاجة وراء هذا التَّرْك ، فعمل فى كثير من المحلات التجارية ، وتنقل أثناءها من عمل إلى آخر ، وكان ذلك فى مدينة « الْخُبَر » ،

وفى عام ١٣٧٥ هـ أصدر بها مجلة « الإشعاع » التى احتجبت عام ١٣٧٦ هـ بعد صدور العدد الثالث والعشرين منها ثم تعين فى أواخر عام ١٣٧٧ هـ أمين سِرٍّ للتعليم الثانوى بوَزارة المعارف ، ثم انتقل مساعداً لِمُدِير البَعَثَات الخارجية ، ثم مديراً للإدارة .. لمجلة « المعرفة » بوزارة المعارف ، ثم مديراً لها كما تولى الأعمال الآتية ـ فى الوزارة نفسها وهى إدارة النشر والشئون العامة

وأمانة سِرِّ مجلس التعليم الأعلى ، ثم أمانة سِرِّ المجلس الأعلى للعلوم والفنون والآداب ،

كما عمل فى صحيفتى « اليمامة » و « الأضواء » فترة من الزمن ، مُحَرِّراً وفى عام ١٣٨٦ عين مستشاراً ثقافياً للشئون الإعلامية بسفارة المملكة العربية السعودية .. فى بيروت ، وما زال [حتى الآن] ،

وقد كتب عنه الأستاذ عبد الله إدريس ، [فقال] :

« كان مَشْغُوفاً بالقراءة والمطالعات الأدبية ، وفى الأدب المعاصر ، بوجه خاص ، ولقد نَمَّى فيه العاطفة الوطنية وحُبَّ الإصلاحِ الاجتماعى [بصورة واضحة]

إلا أن توفره واقتصاره على هذا الأدب وانْصِرَافَه عن الأدب القديم ، وبالتالى ـ عُزُوفَه عن ربط القديم بالحديث ـ قد أفقده شيئاً من العمق والارتواء العلمى والثقافى .. الذى تبرز حصيلته فى كتاباته النثرية ، وقصائده الشعرية

مِيزَةُ شعره المُزَاوَجة بين الرُّومانتِيكيَّة والْوَاقِعِيَّة ، وهو مع كُلٍّ منهما حسب مقتضيات الحال وقوة الدافع المؤثر ،

أما أغراض شعره فتكاد تنحصر فى الْقَوْمِيَّةِ والاجتماع ، وتَطَرُّقُهُ إلى الموضوعات الأخرى قليل جداً ، وهو [الذى] يقول عن نفسه : « إننى أكفر بكل أدب ذاتى ، ولا أرى أدباً إلا مايخدم الحياة فقط » ،

وعندى أن الرجل صاحب فكرة ، ولاشىء بعدها ، ولعل ذلك راجع إلى ماذكره الأستاذ عبد الله بن إدريس ،

أما عبد الله [1] عبدُ الجبَّار ـ فقد ألحقه بالرَّمْزِيِّينَ اعتماداً على قصيدته

---

(١) التيارات الأدبية ص ٢٤١

« سَجِينٌ فى عدَن » ، (ص ٧ من أغنية العودة) ،

أما قوالب أعماله الشعرية فجُلُّها من الشعر العَمُودِىّ[1] ، وإن ركب سبيل الحُرِّ أحياناً ، غير أنه تجَنَّى على ماسَلِمَتْ قوالبه من شعره فى كثير من الأحايين فمزَّق أبياتَه بأن كتبها على طريقة الحر : كما يقولون ، وله محاولة فى الشعر المسرحى فى ديوانه (أغنية العودة ص ٢٧) ،

والحق أنه لو لم يكن للأستاذ سعد سوى فضل السبق لـكفاه ، وذلك لأنه من الرُّوَّادِ الأوائل ، الذين تركوا بجهوداتهم العلمية والأدبية ، أثراً بالغاً على صحافتنا ، كما فتحوا بمؤلَّفاتهم الطريق أمام أبناء جيلنا ، فـكل مأخذ عليهم مُغْتَفَرٌ فى جنب ذلك السبق .

وقبل أن نغادر [مسارات الحديث عن] الأستاذ سعد يحسن بنا أن نُسْمِعَـكُم ولو قطعةً [واحدة] مما كتبه .. مما يسمونه بالشعر الحُرِّ .

والحق أنه من أجود ما كُتِبَ فى مثل هذا .

[قال] من قصيدة بعنوان :

ابتهـال

رَبَّـــــاهُ . .

كَمْ يَتَعَاظَمُونَ عَلَى مَشِيئَتِكَ الْـكَبِيرَهْ[2]

فَيَنْسَرِقُونَ . . وَيَهْدِمُونْ . .

ويَبْطِشُونَ بِدُونْ خَشْيَهْ . .

---

(١) الشعر العمودى : هو القائم على عمود الشعر العربى من وزن وقافية وشعورية .

(٢) أغنية العودة ديوان الأستاذ سعد البواردى ص ٥٤

وَيُقَوِّضُونَ بِنَغْمَةِ الْأَحْقَادِ آمالاً فَتِيَّهْ ..

وَيُزَعْزِعُونَ بِرِعْدَةِ الشَّيْطَانِ أَوْ كارًا .. وَظِلا

وَيَصْرُخُونَ ..

يُوَلْوِلُونَ إِذَا نَشَدْتَهُمُو دِثَارَا ..

رَبَّــــاهْ ..

كَمْ أَنْسَتْهُمُ الْأَطْمَاعُ نَغْمَتَكَ الْعَنِيدَهْ ..

فَمَشَوْا عَلَى وَقْعِ الْجَرِيمَةِ يَرْقُصُونْ ..

وَيُهَمْهِمُونْ .

وَيَعْبَثُونَ بِخَيْمَةِ الْمِسْكِينْ ..

يُضْحِكُهُمْ أَنِينُهْ

وَيَنْتَشُونْ

كُؤُوسُ خَمْرَتِهِمْ جَمَاجِمْ

جَمَاجِمُ الْمُسْتَضْعَفِينْ

الْمُقْعَدِينْ

وهى بكاملها فى « أغنية العودة ص ٥٤ » .

* * *

أيها السادة :

وعلى الرغم من أن الاتجاهات والمذاهب الحديثة فى الأدب قد تَفَشَّتْ فى شعر شعراء بعض البلاد العربية فإن الشعر فى نجدٍ قد بقى فى الفترة الواقعة ما بين ١٣٥٥ — ١٣٧٥ هـ من هذا القرن غَيْرَ مُتَأَثِّرٍ بتلك الاتجاهات والمذاهب .

ولعل مَرَدَّ ذَلِكَ إلى أنه ما زال فى دَوْرِ الصحوة واليقظة ، ولذا بقى (كَلاَسِيكِىَّ) الصِّبْغَةِ فى جميع مناحيه ، بل إن دائرة بعضه تبلغ أحياناً من الصنعة حداً يكون الشعر فيها ترديداً سَمِجًا لما خَلَّفَهُ السابقون .

غير أنى لا أرى فى ذلك أدنى غرابة ، . . فالشعر فى جميع الأقطار العربية قد مَرَّ بهذا الدَّوْرِ عند صحوته واستيقاظه .

ومن شعراء تلك الفترة ـ وإن كان قد أقلع عن الشعر آخر حياته وتنكر لما قال فى تلك الفترة وسماه عبث الشباب ـ : الشيخُ حَمَدٌ الجاسِرُ ، وهو أديب معروف ، وعالم اشتهر بتحقيقاته التاريخية واللغوية ، وبُحُوثِه الاجتماعية ، ورائدٌ مُجَلٍّ فى مجال الصحافة والإصلاح الاجتماعى .

ومن شعره هذه الأبيات(١) :

أَجَلْ مِنْ رُبَا نَجْدٍ بَدَا طَالِعُ السَّعْدِ
يُفِيضُ عَلَى الآفَاقِ بِشْرًا بِلاَ حَدٍّ

وَيُنْعِشُ آمَالاً وَيُبْهِجُ أُمَّةً ..
تَتُوقُ لِمَرْأًى طَيِّبِ الْفِعْلِ وَالْقَصْدِ

يُعَبِّرُ عَمَّا فى الْقُلُوبِ ابْتِهَاجُهَا
وَتُخْفِى مِنَ التَّقْدِيرِ أَضْعَافَ مَا تُبْدِى

وُجُوهٌ بِآيَاتِ السُّرُورِ مُنِيرَةٌ
وَأَلْسِنَةٌ بِالشُّكْرِ تَهْتِفُ وَالْحَمْدِ

---

(١) النهضة الأدبية فى نجد تأليف حسن محمد محمود الشنقيطى ١٩٥١ م .

خالد الفرج

أما الأستاذُ الشاعر المرحومُ خالدُ الفَرَجِ ، الذى يُعَدُّ من شعراء هذه الفترة ـ إذ وُلِدَ عام (١٣٠٦ هـ) فى الكويت ، وتوفى عام (١٣٧٤ هـ) ببيروت ـ فعلى الرَّغْم من أنه قد وُلِدَ ونشأ خارج نَجْدٍ إلا أنه [جعل] لها [من شعره] أوفر نصيب .

فهو ينتسب إلى إحدى القبائل النَّجْدِيَّةِ الواسعةِ الانتشار ، وهى قبيلةُ « الدَّوَاسِرِ » كما أن المُقَامَ قد استقر به فى هذه البلاد بعد فتح الحجاز . حيث عمل فى خدمة المغفور له الملك عبد العزيز ، حتى آخرِ حياته ، كما نظم فى جلالته كثيراً من قصائده ، ومن ذلك ملحمتان .. كلتاهما تروى تاريخ الملك عبد العزيز [و] إحداهما بعنوان : « أحسن القصص » ، والأخرى [بعنوان] الملحمة الذهبية » كما نظم فى سيرة الرسول ، وتاريخ آل سعود [كثيراً من شعره] .

وقد طرق كثيراً من الموضوعات ـ إلا أن اهتمامه كان بالشعر الوطنى والسياسى ، ثم التاريخى ، [وقد] ترجم له الأستاذ عبدُ الله بن إدريس فى كتابه « شعراء نجد المعاصرون » . وألف فيه الأديب الكويتى « خالد سعود الزيد » كتاباً سماه « خالد الفرج » ، وهو جدير بالوقوف معه وإيضاح بعض النقاط منه، لولا ضيق الوقت ، فعسى أن ييسر [الله] لنا معه وقفة أطول ..

ويعتبر شعرُه سِجِلاً لأحداث عصره ، وملاحقة الدقائق والجلائل فيه وخاصة الأحداث التى لها مساس بالسياسة ، حتى ما كان منها خارج الإطار العربى ..

ومن ذلك القصيدة التى صور فيها السياسة وهى بعنوان :

السياسة(*)

أُعْجُــوبَةٌ بَلْ أَعْجَبُ كَالُّلغْزِ بَلْ هِيَ أَصْـعَبُ

هِيَ عَقْرَبٌ هِيَ ثَعْلَبٌ هِيَ لَبْـوَةٌ هِيَ أَرْنَبُ

أَوْ حَيَّــةٌ مَلْســاء نَا عِمَةُ الْأَدِيمِ ... وَتَعْطِبُ

أَوْ مِنْ كَلَامِ اللَّيْلِ يَ مْحُــوهُ النَّهَارُ فَيَذْهَبُ(١)

أَوْ أَنَّهــا كَأَبِى بَرَا قِش لَوْنُهَــا يَتَقَلَّبُ(٢)

أَوْ مِثْلَمَا قَالُوهُ فِى الْأَمْثَالِ حِــرْبَا تَنْضُبُ(٣)

أَوْ كَالسَّرَابِ وَمــاؤُهُ لَاشَىْءَ ســاعَةَ يَقْرُبُ

تَبْــكِى ضَحــايَاهَا إِذَا قَتَلَتْ تَنُوحُ وَتَنْدُبُ

وَتَرَى ثَنَــايَا بَاسِمــا تٍ مِنْ وُجُــوهٍ تَقْطِبُ

(*) الجزء الأول لديوانه الطبعة الأولى ١٩٥٤ م (ص ٢١٤) .

(١) لعل هذا البيت مأخوذ من قول الشاعر :

كلام الليـل مدهون بزبد إذا طلع النهـارعليـه ساحا

(٢) قال فى القاموس : « أبوبراقش : طائر صغير بَرِّىٌّ كالقُنْفُذِ .. أعلى ريشـه أغرّ ، وأوسطه أحمر ، وأسـفله أسود ، فإذا هُيِّج انتفش فتغـير لونه ألواناً شتى » .

(٣) المثل ـ كما فى مجمع الأمثال للميـدانى (٢١٢:١ برقم ١١٣١) ـ هو : « حِرْباءُ تَنْضَبَةٍ » .. قال : التنضُبُ : شجر تتخذ منه السهام ـ قاله ابن سلمة ، والحرباء أكبر من العَظَايَةِ شيئاً ، وهو يلزم هذه الشجرة » .

مِثْلَ ابْتِسَامِ اللَّيْثِ حِيـ ـنَ تَبِينُ مِنْهُ الْأَنْيُبْ[1]

كَمْ مِنْ وُعُـودٍ بَرْقُهُنْ نَ لَدَى الْحَقِيقَـةِ خُلَّبْ[2]

كَذِبٌ وَلَـكِنَّ السِّيَا سَـةَ مِنْهُ أَيْضاً أَكْذَبْ

ويُعَدُّ الأستاذ خالدُ الفرجِ من فحول (الـكلاسيكيّة) الحديثة المتجددة · تلك التى يعتبر من رجالها ـ أيضاً ـ : الشيخُ عبد الله بن خَميس ·

عبد الله بن خميس

هو الأستاذ الشيخ عبدالله بن محمد بن خميس · ولد عام ١٣٣٩ ﻫ بالْمُلْقَى « قرية بوادى حنيفة قرب الدرعية » · وفى سن الطفولة انتقلت أسرته إلى « الدِّرعيَّة » وبها تعلم مبادىء القراءة والكتابة · ثم لازم والده الذى كان على جانب لا بأس به من العلم ، خصوصاً فى التاريخ والأدب الحديث ، وكان والده فلاَّحاً ، ومع ذلك لم [يمنعه اشتغال أبيه] بالفلاحة عن الاستفادة منه [كما لم يقصر فى الأخذ عن غير أبيه] فقرأ كثيراً من كتب التاريخ والأدب والشريعة ، ثم أدركته حِرْفَةُ الأدب · فأكبَّ على دراسة أمهات كُتُبِهِ ، وبدأ يشدو فى نظم الشعر وهو لم يجاوز الخامسةَ عَشْرَةَ من عمره ·

كانت هذه هى دراسته الأولى · · · وفى عام ١٣٦٤ ﻫ حينما أنشئت مدرسة

---

(١) لعل هذا البيت مأخوذ من قول الشاعر :

وابدأ عدوك بالتحية ولتكن منه زمانك خائفاً تترقب

واحذره إن لاقيته متبسماً فالليث يبدو نابه إذ يغضب

(٢) يقال : بَرْقٌ خُلَّب ، والبَرْقُ الْخُلَّب ، وَبَرْقُ الْخُلَّبِ ، وهو الْمُطْمِع المخلف ، والْخُلَّبُ ـ وحدها ـ : هو السحاب الذى لا ماء فيه ·

« دار التوحيد » بالطائف التحق بها فَبَرَّزَ فى الفنون التى سبقت له فيها دراسات وشارك مشاركةً جَيِّدةً فى الفنون الأخرى ، .. لذلك كان رئيس النادى الأدبى « فى دار التوحيد » مدة دراسته بها . وبعد أن نال شهادة الثانوية عام ١٣٦٩هـ التحق بكلية الشريعة بمكة المكرمة ، وبَرَزَ نشاطُه الأدبى شعراً ونثراً على صفحات الصحف والمَجَلَّات ، ولَمَعَ اسْمُه بها ، وفى نهاية عام ١٣٧٣هـ نال شهادة الكلية ، وعُيِّنَ من فوره مديراً لمعهد الإحصاء العلمى ، فأبدى هناك نشاطاً علمياً وأدبياً وإدارياً [كبيراً] .

وفى سنة ١٣٧٥هـ عُيِّنَ مديراً لكليتى الشريعة واللغة [العربيَّة] بالرياض وفى عام ١٣٧٦ هـ عُيِّنَ مديراً عاماً لرئاسة القضاة بالمملكة . وفى عام ١٣٨١هـ صدر مرسوم ملكى بتعيينه وكيلاً لوزارة المواصلات . ثم رئيساً لمصلحة المياه . ونائباً لرئيس اللجنة الشعبية ، لرعاية أسر ومجاهدى فلسطين .

والأستاذ عبدُ الله شاعر فحل لا يترك مناسبة من المناسبات الوطنية والإصلاحية إلا ويسجلها بقصيدة من شعره ، ويُذَكِّرُنا فيها بأسلوب رائد الشعر الحديث فى مصر « البَارُودِى » وتستقبل الجماهيرُ الأدبيةُ شعرَه دائماً بالقبول والاستحسان سواء أكان داخل البلاد أو خارجَها [خاصة] فى المؤتمرات الأدبية التى يقوم فيها ممثلا للمملكة العربية السعودية ، ولقد تَكَوَّنَ لديه من ذلك النتَاج ديوان شعرٍ مازال مخطوطاً .

وهو شديد التعصب فى المحافظة على أصالة اللفظ والبناء للقصيدة العربية .
اسمع قوله :

ظَلَمْتُ الْخَلِيلَ وَأَوْزَانَهُ وَنَازَعْتُ فِي الشِّعْرِ حَسَّانَهُ[1]

وَجِئْتُ بِهَا كَرِدَاءِ الْفَقِيرِ شُكُولاً يُؤَلِّفُ أَلْوَانَهُ

أمَّا مجهوداتُه فى مجال الفكر والأدب لجليلة ، تتمثل فيما يكتبه من شعر ونثر ، ثم فى العمل فى ميدان الصحافة . الذى من أجله أصدر مجلة « الجزيرة » عام ١٣٧٩هـ ، وهى مجلة أدبية اجتماعية ثقافية ، وقد ارتقت هذه المجلة وأصبحت خير مَجَلةٍ تصدر فى هذه البلاد ، فى فنها ، من حيثُ المَتَانَةُ فى الأسلوب ، وَرصَانَتُهُ ، ووضوحُ الهدف ، وعلوُّ المستوَى ، ثم فى مؤلفاته التى منها :

١ — « الأدب الشعبى فى جزيرة العرب » وهو مؤلَّف قيِّم يقع فى أربعمائة صفحة من القطع المتوسط ، وهو الأول من نوعه فى دراسة هذا الفن وتحقيقه .

٢ — « شهر فى دمشق » : وصف [فيه] رحلة قام بها إلى بلاد الشام ، وهو كتاب قيم .

٣ — « المجاز بين اليمامة والحجاز » [وقد وصف] فيه الأماكنَ والبقاعَ والأوديةَ والجبال ، وكلّ مايمر به المسافر من اليمامة إلى الحجاز ، سواء أكان على الطريق نفسه أم عن يمينه أو شماله ، كما يَرَاه الرَّائِي ، كذلك ذكر فى هذا الوصف كُلّ ماذكره علماء اللغة والتاريخ عن تلك الأمكنة ، وماقاله الشعراء فى

---

(١) الخليل : هو الخليل بن أحمد الفراهيدى الأزدى من أعظم أئمة اللغة والأدب ، وهو مخترع علم العروض ، وكان أستاذاً لسيبويه صاحب « الكتاب » فى النحو ، وقد توفى ـ رحمه الله ـ سنة ١٧٠ هـ /٧٨٦م ـ بعد أن عاش حوالى ٧٠ سنة .

أما حسان الشعر : فهو حسان بن ثابت رضى الله عنه ، وقد قدمنا عنه نبذة سابقة .

ذلك ، وسواء أكان هذا الشعر عربياً أم عامياً ، كما أنه لم يُغْفِلْ إيضاحَ ماتغيَّر من أسماء تلك الأماكن أوحُرِّفَ .

والآن.. وقبل أن نغادر الحديث عن الشيخ ابن خميس يطيب لنا أن نسمع من شعره هذه الأبيات من قصيدة بعنوان :

إلى الجندية(*)

أَنْجِبِيهِمْ مِنْ ثَرَاكِ الطَّيِّبِ ... وانْسُبِيهِمْ لأَبىَّ مِنْ أَبِى(١)

إنْ دَعَاهُ المَجْدُ لَبَّى وأَتَى ... عَرَبِىٌّ مِنْ صَمِيمٍ عَرَبِى

لَيسَ بالأَنْجُمِ فَخْرِى إنَّهَا ... مَا بِهَا نَيْلُ العُلاَ يَا مَنْكِبِى

شَرَفِى فِى مِدْفَعٍ أَسْطُو بِهِ ... أَوْ عَلَى قَاصِفَةٍ تَمْرَحُ بِى(٢)

شَرَفِى مَا عِشْتُ أَنِّى مُسْلِمٌ ... نَسبِى هَــذَا وَهَذا مَذْهَبِى

لَسْتُ مِنْ « بِكِّينَ » أَسْتَوْحِى الهُدَى ... إنَّمَا أَبْغِى الهُدَى مِنْ يَثْرِبِ(٣)

مارَكِبْتُ الصَّعْبَ إلاَّ جَاعِلاً ... مَجْدَ قَوْمِى وَعُلاَهُمْ مَطْلَبِى

(*) ديوانه وهو مخطوط لديه .

(١) « من أَبِى » أصلها : من أَبِيٍّ ـ بتشديد الياء ، وخففت لضرورة الشعر .

(٢) القاصفة : كناية عن الطائرة القاذفة للقنابل ، أو هو وصف لموصوف محذوف والتقدير : « أو على طائرة قاصفة » .

(٣) بكين : عاصمة الصين الشعبية « الشيوعية » ، ويثرب : اسم المدينة المنورة قبل الإسلام ـ والرسول صلوات الله عليه هو الذى سماها « بالمدينة » .

وَبِنَفْسِي هَاتِهِ الْأَرْضُ الَّتِي عِشْتُ فِيهَا وَبِأُمِّي وَأَبِي
لاَ أُرِيدُ الْهُونَ فِي جُنْدِيَّتِي أَوْ أُقَضِّي مِنْ عَدُوِّي مَأْرَبِي (١)
عَزَفَتْ عَنْ كُلِّ لَحْنٍ أُذُنِي مَاعَدَا لَحْنَ صَلِيلِ الْقُضُبِ (٢)

* * *

يَاأَبَا تَمَّامَ قَبْلَهَا الْأُلَى أَشْبَعُونَا بِكَلاَمٍ مُسْهَبِ (٣)
لَيْسَ مِثْلُ السَّيْفِ فِي أَنْبَائِهِ فَخُذُوا بِالسَّيْفِ لاَ بِالْكُتُبِ (٤)
سَمِعُوهَا صَيْحَةً مِنْ حُرَّةٍ فَرَمَوْا بِالْكَأْسِ لَمَّا تُشْرَبِ (٥)

---

(١) الهون : الهوان والذلة ، و «أو أقضى» بمعنى «حتى أقضى» وسكنت الياء للضرورة ، ومأربى : طلبى وغايتى .

(٢) عزفت ـ كصدفت وعافت ـ :صدت عنه وكرهته، والصليل الصوت والقضب : السيوف .

(٣) أبو تمام : هو حبيب بن أوس الطائى الشاعر العباسى المشهور ، المتوفى سنة ٢٣١ هـ ـ ٨٤٦م .

(٤) إشارة إلى أول قصيدة أبى تمام فى فتح عمورية ، وهو :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

(٥) إشارة إلى المرأة العربية التى استغاثت بالمعتصم قائلة : « وامعتصماه» حين دخل عليها أعلاج الروم فى بيتها بمدينة « زِبَطْرَةَ » الإسلامية ـ مسقط رأس المعتصم ـ بعد أن احتلها جيش الروم ، وقد بلغ الخبر المعتصم وفى يده كأس لبن كان يشربه قُبَيْلَ الكرى ، كما يشير إلى ذلك قول أبى تمام فى القصيدة :

لَبَّيْتَ صَوْتاً زِبَطْرِيًّا هَرَقْتَ لَهُ كَأْسَ الْكَرَى وَرُضَابَ الْخُرَّدِ الْعُرُبِ

وَمَضَوْا لبَيَّكِ هَا نَحْنُ لَهَا ... فِي عرَامِ مِنْ لُهَامٍ لَجِبِ (١)

سَائِلِ الأَقْصَى فَكَمْ مِنْ عاتِقٍ ... لَحنُهَا يَاوَيْلَتِي يَاحَرَبِي (٢)

أَلْهَبَتْ مِنْ وَجْهِهَا مُجْهِشَةً ... عَجَبِي مِنْ ذُلِّ قَوْمِي عَجَبِي (٣)

عَجَبِي مِنْ أُمَّةٍ قَدْ أَنْجَبَتْ ... خِيرَةَ الدُّنْيَا وَفَخْرَ الحِقَبِ

أَسْلَمَتْ مِنْ مَجْدِهَا مَا أَسْلَمَتْ ... وَتَمطَّتْ فِي يَبَابٍ مُجْدِبِ (٤)

وَمَضَى تَارِيخُهَا يُنْذِرُهَا ... أَنْتِ فِي الأَمْوَاتِ إِنْ لَمْ تَثِبِي

[شعراء النهضة والمذاهب الأدبية] :

أيها السادة :

وبعد عام ١٣٧٥ هـ حينما بدأت الوسائل التثقيفية - كالمدارس والصحف

---

(١) العرام - بوزن الغراب - في الجيش : حدته وشدته وكثرته ، واللهام اللجب : الجيش العظيم ، وفي هذا البيت إشارة إلى قول أبي تمام :

أجبتَه مُعْلِناً بالسيف منصلتاً ... ولو أجبت بغير السيف لم تُجِبِ

(٢) الأقصى : المسجد الأقصى ، بيت المقدس ، والمراد فلسطين كلها ، والعاتق هنا - الجارية أو ما أدركت ، أو التي لم تتزوج ، أو التي بين الإدراك والتعنيس ، والويلة : الفضيحة ، والحرب : الغَلَبُ والهزيمة ، والمراد : الذل والصغار في ظلال الاحتلال الإسرائيلي .

(٣) ألهبت من وجهها .. أي : بلطمه وضربه ، ومجهشة : فزعة تريد البكاء .. قائلة : ياعجبي .. إلخ .

(٤) تمطت : امتدت وطالت - كما يفعل الذي يستيقظ من النوم ، واليباب المجدب : الأرض المقفرة .

والإذاعة و « التليفزيون » والمكتبات ـ تؤتى بواكير ثمارها ، وبعد ماتمَّ الاتصالُ بالعالَم الخارجى بشتى الوسائل ، وغشِيَتْ المَطبُوعاتُ قديمُها وحديثُها البلاد ، فقرأ فيها شبابُنا ماأنتجته قرائح إخوانهم العرب فى مجالس الشعر والنثر بجانب اطلاعهم على تراث الآباء والأجداد ـ انفَسَحَتْ لهم آفاقٌ كانت [من] قبل مُغلَقَةً ، وجَدَّتْ لديهم عوالم كانت مجهولة [لهم] ، فوجَدُوا بَوْناً شاسعاً ـ بين ماهم فيه ، وبين مايقرؤون ـ فأقبلوا على القراءة والاطلاع بنَهَمِ الجائع الشَّرِهِ . يلتهم كلَّ ماتقع عليه يده ، لايُبَهِّهُ أكانت قطعة لحم أم قشرةَ مَوْزٍ ، فنالوا من ذلك الغَثَّ والسَّمِينَ، فانعكست آثار ذلك كله على نتَاجِهم اتِّجَاهاً وفكرةً وأسلوباً . وكان من نتائج ذلك اختلاطُ المذاهب الحديثة فى الشعر ـ كالرومانتيكيَّةِ والرمزيَّةوالرومانْسِيَّةِ والواقعية ونحوهاـبالكلاسيكيَّة فى شعر شعراء نهضتنا الحديثة .

غير أن ملامحَ تلك المذاهب لم تتحدد معالمها ولم تتميز سِماتُها إلا فى صورة طَفْحٍ .شوَّش على أديمه .

على أنا نركب شططاً ونأتى خطأً إن نحن طالبنا شُعَرَاءَنَا ـ جماعات وأفراداًـ بالتزام هذا المذهب أو ذاكَ . لأسبابٍ من أهمها :

١ ـ أن تلك المذاهب كانت فى عصور متعاقبة يقوم فيها كل مذهب على أنقاض سابقه .

٢ ـ ثم أن التُّربَة الفكرية فى مجتمعنا تختلف اختلافاً كبيراً عن التربة الفكرية التى نبتت فيها تلك المذاهب .

ولما كان الحديث لغيرها فإنا لم نستحسن الخوض فى حديث عنها حتى لاتطول بنا المُنعَرَجاتُ .

فمن أراد أن يقرأ شيئاً من ذلك ففى كتاب « الأدب ومذاهبه » للدكتور محمد مندور، وكتاب « معالم النقد الأدبى » للدكتور عبد الرحمن عثمان كثير مما يُنْشَدُ فى مثل هذا البحث . وبالله التوفيق .

أيها السادة :

وهنا يطيب لنا أن نَعْرِضَ لجوانب من شعر شعرائنا .. فى هذه الفترة التى حددناها من حياتنا ، والواقعة بعد عام ١٣٨٥ هـ :

أولا : الحنين إلى الوطن :

يتغنى الشاعر بحب الوطن فيُذِيبُ فى نَجْوَاهُ أعذب الأنغام ، وأصدق العواطف وأعمق المشاعر ، فهل كانت الأرض حبيبةَ الشاعر وحده ؟ أم لأنه أوْفى بنيها ، وأقدرهم على تصوير عواطف هؤلاء الأبناء الذين كان منها خَلْقُهُمْ وعليها كان مولدهم ومَدْرَجُهم ، ومنها كان قُوتُهم ومتاعُهم ، وإليها يعودون ومنها يخرجون تارة أخرى ؟ ؟

وإذا كانت الأواصر والروابط المختلفة .. قد شَدَّتِ الإنسان إلى الأرض وحبَّبَتْهَا إليه فإن تعلُّقَه بالجزء الذى عاش فيه منها أكثر ، وحُبَّه له أكبر[1] ، فلا بدع إذن إن هو تَغَنَّى بحب الوطن فى قصائد يسكب فيها المشاعر والأحاسيس صادقةً صافيةً ، لا يكدِّرها المَلَق والرياء ، ولا تَشُوبُها المطامع ولأغراض ، ولا تُزَيِّفُهَا الشهواتُ والنزواتُ .

---

(١) فى هذا المعنى يقول أبو تمام :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل فى الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لأول منزل

وفيه أيضاً يقول الشاعر :

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وإنى مُحَدِّثكم هنا عن وطن . لا كالأوطان . فى وفرة نصيبه من الشعراء قديمهم وحديثهم ، حتى [أولئك] الذين لم يُقدَّرْ لهم أن يطئُوا ترابه [ولكن] ردَّدُوا ذِكْرَهُ ، وتنشَّقُوا من ثنايا الشعر عِطْرَه ، بعد ما أشاع القصيدُ فى أرواحهم سِحْرَه :

إنها نجدٌ [تلك] التى يقول فيها شاعر النيل حافظ إبراهيم رحمه الله :

وَلاَ تَنْسَ نَجْدًا إِنَّهَا مَنْبِتُ الْهَوَى ... وَمَرْعَى الْمَهَا مِنْ سَارِحَاتٍ وَرُتَّعِ

ولئن تغنى بآرامِ نجد ، وطيب هواها : مَنْ لم يَطِبْ له أن يطأ ثراها .. من شعراء الجزيرة العربية حتى أقاصى بلاد العرب .. كالأندلس والمغرب ، فضلا عمَّا دُونَها فى المسافة ـ كمصر والشام ، سِيَّانِ فى ذلك قَدِيمُهُمْ وَحَدِيثُهُمْ ـ إنَّ أبناءها[1] من أيام الجاهلية حتى هذه الأيام قد مَلَئُوا سمع الأدب وبصره ـ باسم نجد ـ ثناء وتعشُّقاً ، أو حنيناً وتشوقاً ، بل لقد كان تَزَوُّدُ الظاعنين من شَذَا شِيحِهَا وقَيْصُومِهَا ، وَعَرْفِ خُزَامَاهَا وَشَمِيمِ عَرَارِها[2] .. أمْراً يَستحق الاهتمام والتَّوَاصِيَ به .. قُبَيْلَ الرحيل [كما فى قول الشاعر] :

---

(١) جملة « إن أبناءها .. إلخ » : جواب القسم ، ولهذا حذفت الفاء ، واستغنى بجواب القسم عن جواب الشرط .

(٢) الشيح والقيصوم : نبتتان من نباتات نجد العطرة ، والخزامى : نبت ، أو هو خِيرِيُّ البرّ ، وزهرهُ من أطيب الأزهار نفحة ، والتبخير به يذهب كل رائحة منتنة ، وشربه مصلح للكبد والطحال والدماغ البارد ، أما العرار : فهو بَهَارُ البَرِّ ، وواحدته : عرارة ، وهو نبات طيب الرائحة .

أَقُولُ لِصَاحِبِي وَالْعِيسُ تَهْوِي ... بِنَا بَيْنَ الْمُنِيفَةِ فَالضِّمَارِ (١)

(١) الأبيات للصِّمَّةِ بن عبد الله القشيرى ، وهو شاعر غَزِل بدوى رقيق وعابد ناسك .. من شعراء العصر الأموى : توفى سنة ٩٥هـ/١٧٤م ، .. وقيل إنها لجعدة بن معاوية العُقَيْلِي ، ويروى فى كثير من الكتب : « أقول لصاحبي والعيس تخدى .. .. .. والعيس : الإبل .. جمع عيساء . وتهوى : تسير منحدرة ، أو مسرعة ، ومعنى « تَخدِى » : . تسرع ، والمنيفة : اسم ماء بين نجد واليمامة ، وكان لتميم ، .. والضمار : موضع بينهما ، وكان الواجب أن يقال : « بين المنيفة والضمار » .. لأن « بين » لا تدخل إلا بين شيئين متباينين أو أشياء وقد يقال : إن المراد بين أجزاء « المنيفة » فأجزاء « الضمار » ، على حد ماقيل فى قول امرىء القيس :

قِفَا نبْكِ مِنْ ذكرى حبيب ومنزل ... بِسِقْطِ اللِّوَى بين الدَّخُول فحَوْمَلِ

فتُوضِحَ فالْمِقْرَاةِ لم يَعْفُ رسمها ... لمـا نسجتها من جَنُوبٍ وشمأَلِ

إذ التقدير : بين أماكن « الدخول » فأماكن « حومل » فأماكن « توضح » فأماكن « المِقْرَاةِ » وكلها ـ كالمنيفة والضمار ـ : أماكن واسعة فسيحة .

ومن شعر بعض الأعراب فى نجد :

أتبكى على نَجْدٍ وَرَيَّا ولن ترى ... بعينك رَيَّا ماحييت ولا نَجْدَا

ولا ناظراً ماعشت أبقار « وَجْرَةٍ » ... ولا واطئاً من تُربهن ثَرًى جَعْدَا

ولا واجدا ريح الْخُزَامَى تسوقها ... رياح الصَّبَا تعلو دَكادكَ أو وهدا

ألا أيهسا البرق الذى بات يرتقى ... ويجلو دجى الظلماء ذكَّرتنى « نجدا »

وهيَّجتنى من « أذرعات » وما أرى ... لنَجْدٍ على ذى حاجة طَرَباً بَعْدَا

ألم تر أن الليـل يقصر طوله ... بنجد وتزداد الرياح به بَرْدَا ؟

وقال أعرابى من أهل نجد ـ وقد كان سكن غَوْرَ تِهامة ـ يحن إلى وطنه الأول :

أرانى ساكناً من بعد نجد ... بلاد الغور والبلد التهاما
فربَّتَما مشيت بحر نجد ... وربَّتما ضربت به الخياما
وربَّتَما رأيت بحر نجد ... على اللأواء أخلاقاً كراما
أليس اليوم آخر عهد نجد ؟ ... بلى .. فاقْرُوا على نجد السلاما

وتزوجت أعرابية من سكان عقيق المدينة فى نجد، وحُمِلَتْ إليها فقالت :

إذا الريح من نحو العقيق سمت ... تجدد لى شوق يضاعف من وجدى
إذا رحلوا بى نحو نجد وأهله ... فحسبى من الدنيا رجوعى إلى نجد

وقال أعرابى يحن إلى نجد :

أكرر طرفى نحو نجد وإننى ... إليه وإن لم يُدْرِكْ الطرفُ أنْظُر
حنيناً إلى أرض كأن ترابها ... إذا أُمْطِرَتْ عُودٌ ومِسْكٌ وعَنْبَرٌ
بلاد كأن الأقْحُوَانَ بروضه ... ونَوْرَ الأقاحِى وَشْيُ بُرْدٍ مُحَبَّرِ
أحن إلى أرض الحجاز وحاجتى ... خيام بنجد دونها الطرف يَقْصُرُ
وما نظرى من نحو نجد بنافع ... أجل..لا ..ولكنى إلى ذاك أنظر
أفى كل يوم نظرة ثم عَبْرَةٌ ... لعينيك مجرى مائها يتحور ؟
متى يستريح القلب إما مجاور ... بحرب وإما نازح يتذكر ؟

وقال أعرابى آخر :

فياحبذا نجد وطيب ترابه ... إذا هضبته بالعشى هواضبه
وريح صَبا نجد إذا ماتنسمت ... ضحًى أوسرت جنح الظلام جنائبه
بأجرع ممراع كأن رياحه ... سحاب من الكافور والمسك شائبه

تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ (١)

أَلاَ يَاحَبَّذَا نَفَحَاتُ نَجْدٍ وَرَيَّا نَشْرِهَا بَعْدَ الْقِطَارِ (٢)

وأشهد لاأنساه ماعشت ساعة وما انجاب ليل عن نهار يعاتبه

ولازال هذا القلب مسكن لوعة بذكراه حتى يترك الماء شاربه

ومن شعر الصمة القشيرى أيضاً ـ حين اختلف أبوه وعمه على مهر « ريا » محبوبته وابنة عمه فسافر إلى الشام وتطوع جندياً فى الجيش ـ يذكر نجدا .

حننت إلى رَيّاً ونفسك باعدت مزارك من رَيَّا وشعبا كما معا

فما حسن أن تأتى الأمر طائعاً وتجزع إن داعى الصبابة أسمعا

ألا ياخليلى اللذان تواصيا بلومى إلا أن أطيع وأتبعا

قفا ودعا نجداً ومن حل بالحمى وقلَّ لنجد عندنا أن يودَّعا

بنفسى تلك الأرض ماأطيب الربا وماأحسن المصطاف والمتربعا

وتزوجت أعرابية من سكان عقيق المدينة فى نجد ، وحُمِلَت إليها فقالت :

إذا الريح من نحو العقيق تنسمت تجدد لى شوق يضاعف من وجدى

إذا رحلوا بى نحو نجد وأهله فحسبى من الدنيا رجوعى إلى نجد

(١) الشميم : الشم ، والعشية : المساء .

(٢) فى الأصل : « نسمات نجد » ونسمات : جمع نَسَمَة ـ بالتحريك ـ وهى الإنسان . أما نَسَمَة ـ بمعنى الريح ـ كالنسيم والنَّيْسَم ـ فجمعها أنسام ، ومثلها : النَّسَامَةُ ، ولذلك بدلناها من الرواية الأخرى للبيت وهى :

ألا ياحبذا نفحات نجد وريَّا روضه غِبَّ القطار

والنفحة : تضوع الرياح بالنسيم الطيب ، والريَّا : الشذى العبق ، والقطار جمع قَطْر ، وهو جمع قطرة ، أو اسم جمع يفرق بينه وبين واحده بالتاء ، وغب القطار : عقبه .

فأما نفحاتُ نسيمِها ورَيَّا صباها فذاك عندهم دواء العليل ، وشفاء الغليل [وهو لديهم] جديرٌ بأن تنفرج له الجبال ، وتنخفض له التِّلال :

أيا جَبَلَىْ نعمانَ بِاللهِ خلِّيا ... رِيَاحَ الصَّبَا يَخْلُصْ إلَىَّ نَسِيمُها[1]
فإنَّ الصَّبَا رِيحٌ إذا ما تَنَسَّمَتْ ... عَلَى نَفْسِ مَحْزُونٍ تَسَرَّتْ هُمُومُها

على أن الحنين إلى رُبَا نجد وصَبَاهَا ، وَعَرْفِ نَبَاتِهَا ، وَعَلِيلِ نَسَامَتِها[2] كان ـ ومازال ـ موصولَ القديم بالجديد ، والطارفِ بالتليد ، ذِكْرُهُ مع الدهر يتجدد ، تُضَاء به الأسفار وتتضوع مِسْكاً به الأخبار ، لا مندوحة لشعراء جيلنا عن الْحُذاء فى قافِلَتِهِ ، وإضافة رصيدٍ جديد إلى وافر ثروته .

مَنْ ذا الذى يستطيع نسيان بلاده ؟ ، أو التنكر لِمَنْشَئِه ومهاده ؟ ، اللهم إلاَّ أن يستطيع نسيانَ نفسـه ، وإنكار ذاته وماضيه ، .. وذلك أمر ما إليه سبيل .

من هنا كانت مبادرةُ شعرائنا سريعةً إلى نظم القصائد ، وحَبْكِ الخرائد ، حتى أتوا فى ذلك بكل زاهِيَة الطلعة ، مُشْرِقَةَ الجبين ، .. تُعَطِّرُ أردانَها بالفصاحة ، وتَشِعُّ فى أعطافها بأنوار الأصالة .

فأى دُرَّةٍ من تلكم الدرر نَخْتَارُ ؟ . وما فيهن إلا مَنْ هى أحق بالاختيار !!
لنترك المفاضلة ، ولنأخذ منها أول مصادف .

فمن قصيدة للأستاذ الشاعر محمد المسيطير بعنوان :

---

(١) نعمان : واد فيه جبلان هما نُعَيْمٌ وناعم ، ويقع قريباً من مكة فى أدنى الحِلِّ من البيت الحرام .

(٢) نَسَمتِ الأرض نسامة: نَزَّت ، والنسامة أيضاً ـ أحسن الأنسام .

أَتَذْكُرُ

أَتَذْكُرُ ذَلِكَ الْمَغْنَى وَرَبْعاً قُرْبَ أَهْلِينَا(ا)

بِهِ لِلرُّوحِ مَخْبَاةٌ كَمَاءِ الْمُزْنِ يَسْقِينَا[1]

صَبَا نَجْدٍ تُصَافِحُهُ فَنَنْشَقُ مِنْهُ مَاشِينَا

فَمِنْ شِيحٍ لِقَيْصُومٍ تَضَوَّعَ فى نَوَاحِينَا

نَعِيشُ وَفى بُلَهْنِيَةٍ بَدَتْ بَسَمَاتُهَا حِينَا[2]

ويشتدُّ الحنين إلى الوطن بالشاعر ، فيجتازُ به إليها خيالُه ، ليتجوَّلَ فى مرابعها ومغانيها ، فيَرَى فى منظر الشِّيحِ والقَيْصُومِ مَايَفُوقُ زُخْرُفَ المبانى . حتى إذا بلغ به الشوقُ حدَّه ، واشتد به الحنين .. أقسم ألا يجيب داعِىَ النَّوَى إن هو عاد .

وتلك صورة من قصيدة للأستاذ عبد الكريم الْجُهَيْمَان ـ بعنوان :

أنة غريب

ومنها [قوله] :

ذَابَ مِنْ فَرْطِ شَوْقِهِ وِجْدَانِى وَأَتَانِى مِنَ الْهَوَى مَا بَرَانِى(ب)

وَتَذَكَّرْتُ ـ فى الْبُعادِ ـ بِلَادِى وَتَذَكَّرْتُ ـ فى النَّوَى إِخْوَانِى

(ا) «شعراء نجد المعاصرون» ص٢٥٩ الطبعة الأولى .

(١) المزن : السحب ، جمع مزنة ، وهى القطعة من السحاب مطلقاً ، أو الأبيض منه .

(٢) البلهنية : الرخاء وسعة العيش.

(ب) المرجع السابق ص١٧٧ .

وَتَصَوَّرْتُ بَلْدَتِي وَضُحَاهَا وَهَوَاهَا وَطِيبَ تِلْكَ الْمَغَانِي

وَتَجَوَّلْتُ بِالْخَيَالِ مَلِيًّا فى رُبَاهَا بِمَدْمَعٍ هَتَّانِ

إِنَّ مَرْأَى الْقَيْصُومِ وَالشِّيحِ وَالْحَوْذِ

انِ أَشْهَى مِنْ زَخْرَفَاتِ الْمَبَانِي[1]

يَا بِلَادِي إِلَيْكِ مِنِّي سَلَامًا مِنْ فُؤَادِي وَمِنْ دَمِي وَلِسَانِي

* * *

يَا بِلَادِي عَرَفْتُ مَا كُنْتُ أَنْكَرْ

تُ زَمَانًا مِنْ فَضْلِكِ الْمُتَدَانِي

كُنْتُ مُسْتَهْزِئًا بِقَدْرِكِ جَهْلاً ثُمَّ إِنَّ الْإِلَهَ بَعْدُ هَدَانِي

وَأَنَا الْيَوْمَ أَبْذُلُ الْجُهْدَ أَنِّي لَا أُجِيبُ دَاعِي النَّوَى لَوْ دَعَانِي

* * *

يَا بِلَادِي سَئِمْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ غَيْرَ ذِكْرَاكِ إِنَّهَا فِي لِسَانِي

فَفُؤَادِي إِلَيْكِ يَخْفِقُ شَوْقًا وَعُيُونِي إِلَى رُبَاكِ رَوَانِي

وَأَرَى حُبَّكِ الْمُبَرِّحَ يَزْدَا دُ إِلَى أَنْ غَدَا مِنَ الْإِيمَانِ

فَاسْلَمِي وَانْهَضِي وَعِيشِي بِعِزٍّ فِي مَغَانِي الْعُلَا وَنِعْمَ الْمَغَانِي

* * *

وإذا كان لمن شَحَطَتْ به الدار ، وشطَّ به الْمَزَارُ: الْعُذْرُ .. إن هو بكى واشتكى، فما عذر من لم يبرح الدار ، ولم يَنْأَ به المزار .. إن شَفَّهُ الشوق إلى نجد ، وأضناه فى حبها الوجدُ ، فتدفقت مشاعره جَدَاوِلَ ، نُسَمِّيهَا قصائد ؟

(١) الحوذان ـ بفتح فسكون : نبات معروف .

يقول بعضهم[١] من قصيدة طويلة :

هَوَاكِ وَإِنْ رَثَّ الزَّمَانُ جَـــدِيدُ ... وَحُبِّيكِ حُبٌّ طَارِفٌ وَتَلِيدُ[١]

أَحَادِيثُهُ أَحْلَامُنَا وَشَــبَابُنَا ... فَمَــكْرُورُهُ فِي مِسْمَعَيَّ نَشِيدُ

* * *

هَوَايَ بِهَـــا ثَرُّ الْمَنَابِـعِ مُمْرِعٌ ... وَعَهْدِي بِهَا بِـكْرَ الأَصَائِلِ عِيدُ[٢]

قَضَيْتُ بِهَا زَهْرَ الشَّبَابِ وَصُحْبَتِي ... بِهَا مَعْشَرٌ زُهْرُ الطَّلَائِـعِ صِيدُ

إِذَا مَا انْتَضَى حُلْوَ الْأَحَادِيثِ ذِكْرُهُمْ ... تَمَـنَّى شَذَاهَا نَرْجِسٌ وَوُرُودُ[٣]

عَلَى نَغَمِ الْمَاضِي أُعِيدُ حَدِيثَهُمْ ... أُرُوضُ بِهِ الْأَشْجَانَ ، وَهْيَ شَرُودُ

وَأَمْضِي اللَّيَالِي أُوهِمُ النَّفْسَ بِاللِّقَا ... وَهَيْهَاتَ نَائِي الْمَوْتِ كَيْفَ يَعُودُ ؟

سَأَبْـقَى وَفِيَّ الْعَهْدِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ... وَلَوْ دَارَ صَرْفُ الدَّهْرِ حَيْثُ يُرِيدُ

وَإِنِّي لَجَمُّ الْحُبِّ لَا أَبْتَغِي بِهِ ... ثَوَابًا فَقَـلْبِي فِي الْهَوَاءِ طَرِيدُ

أَحِنُّ إِلَى نَجْدٍ وَلَمْ أَبْرَحِ الْحِمَى ... حِمَاهَا كَأَنْ قَدْ حَالَ دُونِي بِيدُ[٤]

---

(١) هو المؤلف .

(١) رث : قدم وبلى ، والطارف : الجديد ، والتليد : القديم .

(٢) ثر : غزير دفاق ، وممرع : مخصب ، والأصائل : جمع أصيل ، وهو الوقت بعد العصر وقبل الغروب .

(٣) الورد : اسم جنس جمعي يفرق بينه وبين واحده بالتاء ، وقد شاع جمعه على «ورود» .. خطأ .

(٤) فى معنى هذا البيت والذى بعده نظر إلى قول ابن الرومى :

أعانقهـا والنفس بَعْدُ مشـوقة ... إليها وهل بعد العناق تدانى

وألْثمُ فاها كى تموت حرارتى ... فيشـتد ما ألقى من الهيمان

وَأَهْفُو إِلَى أَفْيَائِهَا وَهْىَ مَسْرَحِى — وَأَصْبُو إِلَى وَصْلٍ بِهَا فَتَجُودُ
وَأَنْظُرُ وَجْدِى لَوْ نَأَيْتُ مُبَرِّحًا — وَدَمْعِى مِنْ خَوْفِ الْفِرَاقِ شَدِيدُ
تَفَيَّأْتُهَا شَعْثَاءَ غَبْرَاءَ حُلْوَةً — لَهَا مَنْزِلٌ بَيْنَ الضُّلُوعِ وَحِيدُ
فَكَيْفَ وَقَدْ نَضَّتْ ثِيَابًا وَجَدَّدَتْ — فَحَاضِرُهَا بَيْنَ الْعُصُورِ فَرِيدُ؟
سَتَبْقَى لَهَا فِى مُضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحَشَا — سَرِيرَةُ حُبٍّ بِالْبِلَاءِ تَزِيدُ (١)

ثانياً : الشعر الوجدانى :

هذا هو الميدان الذى يتلاعب الشاعر فيه بالعواطف والأحاسيس ، يُصَرِّفُهَا ويوجِّهها كيف يشاء ، وأنىَّ يريد .. ليَصُوغَ منها نَغَماً شَجِيًّا يُهَدْهِدُ الآلام والآمال ويستثير كوامن الأشجان . فتُرَدِّدُ أصداءها قُلُوبٌ تلاعبتْ بأوتارها كما تتلاعب بأوتار المِزْهَرِ رِيشَةُ الْفَنَّانِ :

ولقد قيل : « إن أول ميدان يطرقه الشاعر هو ذلك الميدان » ، كما قيل أيضاً : « الشاعر وِجْدَانىٌّ بطبيعته الشاعرية الحساسة ، لا يملك الخلاص من ذلك، أو النجاة منه ولو أراد » .

على أن هــذا المذهب عميقُ الْجُذُور ، عريقُ النسب فى الأدب العربى ، تشده إليـه أواصر ووشائج متينة ، فلا بِدْعَ إذن أن أفاض فيه شعراؤنا على

ولم يك مقدار الذى بى من الهوى — ليشفيـــه ماترشف الشفتان
كأن فؤادى ليس يشفى غليـله — سوى أن يُرى الروحان يمتزجان

(١) واضح أن هذه الأبيات متفجرة من نبعٍ شعورى ثرار ، وأنها من طرز شعرى يعلو على النضار ، وكذلك نرى شعر هذا الشاب يختـــال قوة ، ويميس رقة ، ويفيض جلالا ، وله ديوان عظيم مخطوط نرجو أن يظهر قريباً .

اختلاف مشاربهم وأذواقهم ، بل .. لقد وُجِدَ فيهم مَنْ حَبَسَ عليه جميعَ طاقاته حتى أتى فيه بكل مُعْجِبٍ مطربٍ ، بل لم يَنِدَّ فى ديوانه عن شعر الغزل إلاَّ قصيدة واحدة ـ لست أدرى : أىُّ ظرف أملاها عليه ؟ إلا أنها تدل على أنه لو قَصَدَ إلى غير الغزل لأجاد .

ذلكم هو صاحب [ديوان] « وحى الحرمان » .

إنه الأمير عبدُ الله نجل جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز .

[« وحى الحرمان » للأمير عبد الله الفيصل] :

غير أن الشاعر الأمير قد وقف ديوانه الأول : « وحى الحرمان » ـ كما أسلفنا ـ على شعر الغزل .. يذيب فيه عواطفه ، ويسكُبُ مشاعِرَه وأحاسيسَهُ وقَّادَةً ـ كنار جوَانِحِه .. أشعلها الحبُّ ، وألهبها الصدُودُ ، فقذفَتْ حممَهَا قصائدَ وِجْدَانيَّةً .. أضْفَى عليها جمالُ الأسلوب ، وفصاحَةُ اللفظ ، وحسنُ السبك وقوةُ الحَبْكِ ، وإشراقةُ الديباجة .. جمالاً على جَمَالِهَا .

وماندَّ مِنْ قَصَائِدِ « مَحرُوم » عَنْ هذا النهج سوى قصيدةٍ واحدة وطنية تحت عنوان : إلى شباب بلادى » وهى مقررةٌ فى النصوص المدرسية ومَطْلَعُهَا :

مَرْحَى فَقَدْ وَضَحَ الصَّوَابْ وَهَفَا إِلَى المَجْدِ الشَّبَابْ
عَجْلاَنَ يَنْتَهِبُ الخُطَا هَيْمَانَ يَسْتَدْنِى السَّحَابْ[1]
فِى رُوحِهِ أَمَلٌ يُضِىءُ وَفِى شَبِيبَتِهِ غِلاَبْ

وأول ظاهرة تطالعنا بها وِجْدَانيَّاتُ « محروم » أن شاعرها لم يكتف

---

(١) كذا ورد فى الأصل : « يستدنى » بمعنى يحاول ويطالب قربه ، وقد تكون محرفة عن : « يستندى » بمعنى يستمطر نداه .

بالوصف للظواهر والمحسوسات . . كما هو طابَع القدامى . . حتى الذين منهم وَقَفُوا شعرهم على أبواب الغزل وأعتابه ، كابن أبى ربيعة والأحوَص وَجَمِيلٍ وكُثيِّرٍ وغيرهم ـ وإنما جمع إلى ذلك: الغَوْصَ فى أعماق النفس البشرية فتَلَمَّسَ أحاسيسها ومشاعرها ، وتحسس آلامها وآمالها ، ليَؤُوب من ذلك بلوحات ضَمَّتْ إلى سحر الألوان قُوَّةَ الأداء ورُوفَ الظلال .

استَمِعُوا إلى قصيدته [التى كانت مما] غُنِّىَ به .

عواطف حائرة

أَكادُ أَشُكُّ فى نَفْسِي لِأَنِّى ... أَكادُ أَشُكُّ فِيكَ وَأَنْتَ مِنِّى(١)

يَقُولُ النَّاسُ : إِنَّكَ خُنْتَ عَهْدِى

وَلَمْ تَحْفَظْ هَوَاىَ وَلَمْ تَصُنِّى

وَأَنْتَ مُنَاىَ أَجْمَعُهَا مَشَتْ بِي ... إِلَيْكَ خُطَا الشَّبَابِ الْمُطْمَئِنِّ

وَقَدْ كَادَ الشَّبَابُ لِغَيْرِ عَوْدٍ ... يُوَلِّى عَنْ فَتًى فى غَيْرِ أَمْنِ

وهَا أَنَا فَاتَنِى الْقَدَرُ الْمُوَاتِى ... بِأَحْلَامِ الشَّبَابِ وَلَمْ يَفُتْنِى(٢)

كَأَنَّ صِبَاىَ قَدْ رُدَّتْ رُؤَاهُ ... عَلَى جَفْنِى الْمُسَهَّدِ أَوْ كَأَنِّى

(أ) ديوان « محروم » للأمير عبد الله الفيصل الطبعة الأولى (ص ٥٨)

(١) الفصيح فى مثل هذا التعبير : « هاأنذا » وعليه قوله تعالى : « هاأنتم أولاء تحبونهم ولايحبونكم » (الآية ١١٩ من سورة آل عمران) ، وقول الشاعر : : « وهاأنا فاتنى » خطأ شاع فى الأيام الأخيرة فوقع فيه كثير من الفطاحل دون تنبه .

يُكَذِّبُ فيكَ كُلَّ النَّاسِ قَلْبِي ... وَتَسْمَعُ فِيكَ كُلَّ النَّاسِ أُذْنِي
وَكَمْ طَافَتْ عَلَىَّ ظِلاَلُ شَكٍّ ... أَقَضَّتْ مَضْجَعِي وَاسْتَعْبَدَتْنِي
كَأَنِّي طَافَ بِي رَكْبُ اللَّيَالِي ... يُحَدِّثُ عَنْكَ فِي الدُّنْيَا وَعَنِّي
عَلَى أَنِّي أُغَالِطُ فِيكَ سَمْعِي ... وَتُبْصِرُ فِيكَ غَيْرَ الشَّكِّ عَيْنِي
وَمَا أَنَا بِالْمُصَدِّقِ فِيكَ قَوْلاً ... وَلَكِنِّي شَقِيتُ بِحُسْنِ ظَنِّي (١)

على أن هذه الثورة العارمة من الشك ـ الممتزج بالعَتْبِ والحنين ، والوجد والندم ، واليأس والأمل .. حتى كأنما الْتقَتْ فيها متناقضاتُ الحياة البشرية ـ قد صَبَغَتْ كثيراً من وِجْدَانيَّاتِ شعرائنا بِصِبْغَتِهَا ، وأفاضت عليها من رُوحِها ، حتى لم يكدْ يسلمُ منها شِعْرُ شاعرٍ طرق هذا المجال .

ومن ذلك قولُ بعضهم (١) تحت عنوان :

بعيدُ الصحو

أَيُّ وَهْمٍ عِشْتُ فِي غَمْرَتِهِ ... خَادَعَتْ أُذْنِي بِهِ قَلْبِي زَمَانَا
يَا رَفِيقِي لاَ تَسَلْ عَمَّا جَرَى ... كَانَ طَيْفاً لَمْ يَكُنْ ذَاكَ هَوَانَا
شَيِّعِ الْمَاضِي لِلَحْدٍ مُظْلِمٍ ... مُقْفِرٍ مِثْلِ الَّذِي كَانَ فَبَانَا
وَامْنَحِ النِّسْيَانَ ذِكْرَى وَهْمِنَا ... وَاصْحُ يَا قَلْبُ كَفَانَا مَادَهَانَا
حَطِّمِ الْكَأْسَ فَقَدْ حَطَّمْتَهَا ... وَاسْكُبِ الدَّمْعَ عَلَى نَعْشِ مُنَانَا

---

(١) هذه قصيدة طويلة فيها جمال وسحر ، وجاذبية فنية بعيدة المدى وضعت لها ألحان عذبة غنتها بها السيدة / أم كلثوم .. المغنية المشهورة .

(١) هو المؤلف .

سَبَقَتْ دَمْعَةُ عَيْنِي مِقْوَلِي وَأَنَا أَحْكِي عَلَى طِرْسٍ ضَنَانَا

أَيْنَ كُنَّا ؟ كَيْفَ كُنَّا ؟ عَجَبٌ !!

كَيْفَ لَمْ نَعْرِفْ إِلَى أَيْنَ خُطَانَا ؟

* * *

أَتُرَى يُطْوَى هَوَانَا بَعْدَ مَا لَفَّنَا مِنْهُ سَعِيرٌ وَطَوَانَا

يَا رَبِيعاً لَمْ يَكَدْ يَزْرَعُ فِي أَضْلُعِي مَا شَاءَ وَرْدًا وَأُقْحُوَانَا(١)

يَبْسِمُ النُّوَّارُ فِي أَفْيَائِهِ يَقْتَدِي فِيهِ الْبَشَامُ الْأُرْجُوَانَا(٢)

يَرْقُصُ الطَّيْرُ عَلَى أَنْغَامِهِ لَحْنُهَا فِي طُهْرِهِ يَحْكِي صَدَانَا

حِينَ غَنَّيْنَا وَقَدْ حَلَّ الْأَصِيلْ بِرِدَاءٍ ذَهَبِيٍّ مُلْتَقَانَا

ذِكْرَيَاتٌ كُلَّمَا هَدْهَدْتُهَا دَاعَبَتْ أَوْتَارَ قَلْبِي فَاسْتَكَانَا(٣)

بَعْدَ مَا ثَارَ عَلَيْهَا غَاضِباً ضَجَّ يَبْكِيهَا زَمَاناً وَمَكَانَا

آهِ مِنْ قَلْبِي وَمِنْ أَحْبَابِهِ وَزَمَانٍ كُلُّ مَا فِيهِ شَجَانَا

لَعِبَ الْوَسْوَاسُ فِي أَحْلَامِنَا وَانْبَرَى يَسْكُبُ لِلشَّكِّ دِمَانَا

وَافْتَرَقْنَا بَعْدَ مَا دَنَّسَنَا رِجْسُهُ حَتَّى مَضَى يَبْكِي كِلَانَا

---

(١) الأقحوان : بهمزة قطع مضمومة وقاف ساكنة وحاء مضمومة ـ ومثله القحوان ـ بضم فسكون ـ هو : البابُونَجُ ، ويجمع على أقاحِيّ وأقاحٍ ، وقد سهلت الهمزة هنا لضرورة الشعر .

(٢) البشام : شجر عطر الرائحة ، ورقه يسوِّد الشعر ، ويُستاك بقضبه . والأرجوان : الثياب الحمر ، والصبغ الأحمر ، والحمرة ، أو الأحمر من كل شيء .

(٣) هدهدتها : حركتها ، وقلبتها . . من علو إلى سفل ، واستكان : هدأ واطمأن .

رُبَّمَا عادَ إِلَى أَحْـلامِنَا صَفْوُهَا مِنْ بَعْدِ مَافُتْنَا الْأَوَانَا
يَا رَفِيقِي صَفْوُ دَهْرِي خِدْعَةٌ وَالْأَخِلَّاءُ بِهِ شَرُّ عِدَانَا

* * *

وهذا التيار (الرُّومانسِيُّ) الذي يسرى في هذا [الشعر] تلمحه في كثير من نتاج شعرائنا .. من مثل الأستاذ محمدِ السُّلَيْمَانِ الشِّبْلِ ، وعبدِ الله القَرْعَاوِي ، ومحمدِ الفَهْدِ الْعِيسَى .. وكثيرٍ غيرِهم .

غير أن سَرَيَانَ هذا التيَّار أو ذاك في شعر أحدهم لا يعني التزام هذا المذهب أو ذاك ، ولا يجوز الحُكْمُ على شاعرٍ بمذهبٍ من خلال قصيدة - أو قصيدتين - كما فعل بعضهم(١) في الحكم على هؤلاء الشعراء الثلاثة بقصائدهم التالية :

قال محمد السليمان الشبل من قصيدة طويلة(ب) :

قَالَ لِي - وَالشَّمْسُ تَنْسَابُ عَلَى كَفِّ الرُّبَا
وَحنَايَا الأُفْقِ تَفْتَرُّ بِأَنْسَامِ الصَّبَا
وَالشُّعَاعُ الْحُلْوُ فِي عَيْنِيَ يَزْهُوَ طَرَبَا(١)
هَلْ نَسِيتَ الْعَهْدَ هَلْ ضَاعَ كَمَا ضِعْتُ هُنَا

* * *

هَا هُنَا كُنْتُ أُغَنِّيكَ فَيُشْجِيكَ الْغِنَا

---

(١) هو الأستاذ عبد الله عبد الجبار في كتابه « التيارات الأدبية في قلب الجزيرة العربية » .

(ب) التيارات الأدبية (ص ٢٩٥)

(١) يزهو : لغة ضعيفة ، أو خطأ ، والأفصح : يزهى - مبنية للمفعول .

يَرْقُصُ الشَّوْقُ بِجَفْنَيْـ ـكَ فَتَشْدُو هَا هُنَا
كُنْتَ تَرْنُو كُلَّمَا الأفـ ـقُ إِلَى النَّجْمِ رَنَا
كُلَّمَا غَرَّدَ طَـــيْرٌ كُلَّمَا قَلْبٌ حَنَا

* * *

قُلْتُ: دَعْنِي مِنْ حَدِيثِ الشَّـــوْقِ لاَ أَذْكُرُ شَيَّا
إِنَّنِي الْيَوْمَ خَيَــالٌ تَاهَ فِي الْكَوْنِ شَجِيَّا
لاَ أَرَى إِلاَّ ظَــلاَماً دَامِساً فِي مُقْلَتَيَّا . .
كُلَّمَـــا هَدْهَدْتُهُ طَا فَتْ لَيَالِيـــهِ عَلَيَّا

* * *

أما الأستاذُ عبدُالله القَرْعاوِى . فمن قصيدة له قولهُ (ا) :

مَنْ أَنْتِ يَا أُنْشُودَةَ الشَّاعِرِ ؟ يَا بُحَّةَ الْأَرْغُولِ فِى السَّامِرِ (١)
تَمَوَّجَتْ أَصْـــدَاؤُهَا عَذْبَةً وَانْعَـكَسَتْ فِى قَلْبِىَ الْحَائِرِ
تَدَفَّقَتْ فِى الْأُفْقِ أَلْوَانُهـــا فَسُمِّيَتْ بِالشَّفَقِ السَّاحِـــرِ
وَانْسَـكَبَتْ فِى النَّهْرِ رَيَّانَةً وَانْطَلَقَتْ فِى مَوْجِهِ الزَّاخِرِ
تُنِيرُ أَيَّامِى بِأَفْرَاحِـــهَا وَأَنْتَشِى مِنْ كَأْسِهَا الْعَاطِرِ

ومن قصيدة للأستاذ الشاعر محمد الفهد الْعِيسَى . . قولهُ (ب) :

(أ) شعراء نجد المعاصرون (ص١٢٨)

(١) الأرغول : المزمار الطويل ، وهى كلمة غير عربية ، والسامر : النادى .

(ب) شعراء نجد المعاصرون . (ص١٢١) .

حَطِّمِى الْأَغْلاَلَ يَانَفْسُ فَإِنِّى … قَدْ سَئِمْتُ الْعَيْشَ فِى ظِلِّ التَّمَنِّى

كَمْ قَضَيْتُ الْعُمْرَ فِى ذُلٍّ مَهِينٍ … بَيْنَ آلامٍ وَأَحْزَانٍ وَغَبْنِ

لاَ أُبَالِى الْيَوْمَ إِنْ كُنْتَ وَحِيداً … بِشَقَاءٍ مِنْ تَبَارِيحِ التَّجَنِّى

فَلأُحَطِّمْ كُلَّ أَصْفَادِى بِنَفْسِى … وَلأُحَطِّمْ بِيَدِى أَسْوَا رَسِجْنِى (١)

* * *

لَيْتَ شِعْرِى أَتُرَانِى بَطَلاً … إِنْ رَغِبْتُ الْيَوْمَ عَنْ حُبِّى وَدَنِّى (٢)

لاَ فَإِنِّى قَدْ شَرِبْتُ الْكَأْسَ حَتَّى … أَثْمَلَتْنِى بَيْنَ آهَاتٍ وَحُزْنِ (٣)

وَشَدَوْتُ الْعُمْرَ أَرْجُوهُ لِقاً … وَمَلأْتُ الْأَرْضَ مِنْ شِعْرِى وَفَنِّى (٤)

حول شعر الأمير عبد الله الفيصل :

ولْنَأْخُذْ أيها السادةُ مثلاً على تضارب الآراء فى الشاعر وإلى أى مذهب يُنْسب ؟ ، وليكن هذا المثالُ هو الأميرَ عبد الله الفيصلَ .

وفى كتاب « شعراء نجد المعاصرون » . ألحق الأستاذ عبد الله بن إدريس شاعِرَنا الأميرَ بالرومانتيكية ، وأما الأستاذُ عبد اللهُ بن عبد الجبَّار فقد ألحقه بالرُّومانسيين ، وذلك فى كتابه « التيارات الأدبية فى قلب الجزيرة العربية » .

وأما عميد الأدب العربى الأستاذ الدكتور طه حسين فقد كتب عنه فى كتابه : «من أدبنا المعاصر » ١٤ صفحة بدأها بقوله :

---

(١) الأصفاد : جمع صَفَد : القيود.

(٢) شعرى : شعورى وإحساسى ، وخبر « ليت » محذوف .. تقديره : موجود ، والدَّن : زِقُّ الخمر ،وفى الأصل :« بظلال» بدل « بطلا »

(٣) أثملتنى : أسكرتنى . (٤) فى الأصل« لقاء »

« والمحروم ـ هنا ـ أميرٌ ذو وَزَارَتَيْنِ ، وجَدُّهُ ملكٌ عظيم ، وعَمُّه ملكٌ كريم وأبوه أمير ووزير خطير ، قد أتاح الله له من أسباب السعادة ونعمة المال الكثير الذى نتمنى له منه السعة والمزيد . وهو الأمير عبد الله الفيصل .

وقد حاول أن يُبَيِّنَ لنا حقائق الحرمان الذى أضناه وأشْقَاهُ ، وأوحى إليه بديوان من الشعر ، هو الذى سأحدثك عنه اليوم ، ولكنه لم يبين من هذه الحقائق شيئاً . وما كان له أن يبين منها شيئاً . . شَأْنُهُ فى ذلك شأنُ شعراء كثيرين عرفهم وطَنُهُ نجد ، ثم الحجازُ فى عصور قديمة مضت عليها قرون طِوَالٌ ، وليس هو إلا واحداً منهم ، يجب أن يضاف اسمه إلى أسمائهم وكلُّهم أحسَّ الحرمان وشَقِيَ به ، ولم يستطع أن يُبِينَ عنه ، لأنه لم يعرف حقائقه ، وإنما اتخذَ التصويرَ الرمزِيَّ وسيلَةً إلى الشكوى منه ، والتبرم به ، والتمرد عليه . . أحياناً » .

الأستاذ الدكتور إذن يرى أن الأمير رَمْزِيٌّ ، كما أنه يربط بينه وبين الشعراء العُذْرِيِّينَ السابقين كَكُثَيِّرٍ وجَمِيلٍ ، لأنهم ومن لَفَّ لَفَّهُمْ عنده كذلك[1] .

ومن يدرى ؟ فقد يخرج علينا مَنْ يَقُولُ : إن عبد الله الفيصل وَاقِعِيٌّ ، أو كلاسِيكِيٌّ ، أو غيرُ ذلك .

---

(١) كثير بن عبد الرحمن : الشاعر الأموى الغزل وصاحب عزة محبوبته المشهورة ، وقد كان حبه عذرياً عفيفاً ، وعاش حتى مات عفاً طاهراً ، وقد توفى سنة ١٠٥هـ / ٧٢٣م ، أما جميل فهو جميل بن معمر الشاعر الغزل العذرى صاحب بثينة ، وكان من أعف المحبين ، وتوفى سنة ٨٢هـ / ١٠٧م وعبارة «من لف لِفه» بتثليث لام المضاف : ومعناها : من سلك مسلكه ، ونهج نهجه واتبع طريقه .

على أن الرمزية التي يعنيها الدكتور ـ هنا ـ هي الرمزية التي يفهمها شيوخ الأدب ، وفحول الشعر : والتي يَسْتُرُ الشاعر فيها مقصودَهُ ، بسِتارٍ آخر غير مُبْهَم إبْهَاماً .. كذلك الذي يوجد في الرمزية لدى المتأخرين .

على أن الصورة الساترة قد تعطى مفهوماً آخر غير المستور الذي قد يلوح ضَلاَلَهُ من وراء ذلك الستار خاصَّةً إذا أُخِذَ بعين الاعتبار ما يحيط بالشاعر من ظروفٍ وملابساتٍ فَرَضَتْ على عمله هذا الاتجاه .

أما الرمزيَّةُ الحديثــةُ التي تُحيلُ الأدب إلى رموز وطلاسم [وَأَحَاجٍ] وألغاز ، والتي من شروطها ألاَ يتَّفِقَ فيها على مفهوم النص اثْنَانِ : فَنَوْعٌ من العبث .. أرجو أن يكون شُعَرَاؤُنَا منه بمنجاة .

وَعَرْضُ الأستاذ الدكتور لِدِيوان « وَحْيِ الحِرْمان » : عَرْضٌ شَيِّقٌ يَحْسُن قراءته ، وإن لم يَخْلُ من المــآخذ التي لولا أَنَّ المجال لغيرها لطاب لنــا الوقوفُ معها . من مثل قوله .

« وَيُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ شاعرنا الأمير سيكون موضـوع نزاع بين الجزيرة العربية التي وُلِدَ ونشأ فيها وبين لُبْنَانَ وَمِصْرَ . لأنه أَلَمَّ بهما غَيْرَ مرة ، وقرأ شعر المعاصرين من شعرائهما .

وقد ادَّعاه للبنان بالفعل شاعر لبناني كريم ، هو الصَّدِيق صلاح لِبْـكي ـ رحمه الله ـ في المقدمة التي صدَّر بها الديوان . ولم ينـكر الشاعر من هذا شيئاً .

ولـكنِّي أنا أَزْعُمُ أن الشاعر مصري اللغة بَدَوِيُّ النزعة . كما قلت .

وأ كاد أعتقد أنه تأثر باثنين من شعرائنا المعاصرين خاصة : وهما على محمود طه ، وإبراهيم ناجي ـ رحمهما الله .. ، وتأثيرهذين الشاعرين في شعر هذا الديوان أظهر من أن يَحتاج إلى دليل» .

ثالثاً : القضايا الوطنية :

إن أدنى نظرة إلى تاريخ هذا الجزء من بلادنا العزيزة توضح لنا سلامته وطهارته من رجس الاستعمار الأجنبي ، إذ لم يكن للأمم الاستعمارية فيه أدنى نفوذ . . لا فى شئونه الداخلية ولا الخارجية ، ولعل هـذا يفسِّر لنا خلوَّ شعر شعرائنا من الشعر السياسى الذى يُحَوِّمُ حول هذا الموضوع وإنما كان دَوَرَانُ شعرهم حول المشاريع العمرانية والثقافيـة والاقتصادية ونحوها ، يتغنَّوْنَ بها ويُنْشِدُونَ الأشعار ابتهاجاً بها ، وتخليداً لذكراها ، واستبشاراً بما ستحققه من رخاء وهناءة واكتفاء . وماستحققه من مستقبل زاهر فى شتى المجالات الحيويّة لِأمَّةٍ تَنْشُدُ الرخاء والاكتفاء والمستقبل الأسعد ، بعد أن حقَّق لها قائدها ، وموحد أجزائها ـ المغفورُ له جلالةُ الملك عبـــد العزيز ـ الوحدةَ والأمن والاستقرار .

[حمد الحجى يحيى الطباعة] :

ولما كان افتتاح أول مطبعة فى مدينـةٍ لم تعرف الطباعةَ بَعْدُ : حَدَثاً له أَهَمِّيَّتُه ، وجدْنَا شاعرنا الكبير حَمَداً الْحَجِّىَّ ـ شفاه الله ـ يسارع إلى نظم هذه القصيدة فى مناسبة « افتتاح مطابع الرياض » عام ١٩٧٤ هـ .

قال تحت عنوان :

تحية الطباعة

بَرَزَتْ فَـكَانَتْ دَهْشَةُ الأَبْصَارِ
بِشُعَاعِهَـا الْمُتَلَألِىءِ الأَنْـوَارِ

---

(١) شعراء نجد المعاصرون (ص ٢٥)

عَامَانِ مَا مَضَيَا عَلَى إِيجَادِهَا ... حَتَّى اسْتَحَالَتْ مُنْيَةُ النُّظَّارِ

تِلْكَ الطِّبَاعَةُ وَافِهَا يَا صَاحِبِي ... بِتَجْرِبَةٍ نَفَّاحَةٍ مِعْطَارِ

حَيِّ الطِّبَاعَةَ فِى الْبِلَادِ فَإِنَّهَا ... رَمْزُ الْفَتَاءِ بِنَهْرِهَا السَّيَّارِ

وَاطْلُعْ عَلَيْهَا فِى الرِّيَاضِ لِكَىْ تَرَى ... عَجَباً مِنَ الإِبْدَاعِ وَالإِكْبَارِ

أَحْيَا الثَّقَافَةَ عِنْدَنَا مَا قَدَّمَتْ ... مِنْ خِدْمَةٍ لِلْعِلْمِ وَالأَفْكَارِ

لَوْ كَانَ « جُوتِنْبِرْجُ[1] » حَيًّا سَرَّهُ ... مَا لِلطِّبَاعَةِ مِنْ عَظِيمِ قَرَارِ

ثُمَّ انْبَرَى يُثْنِى عَلَيْكُمْ فِتْيَةً ... قُمْتُمْ بِنَشْرِ رَوَائِعِ الأَسْفَارِ

مَنْ كَانَ يَسْعَى بِالْجَمِيلِ فَإِنَّمَا ... عَزَمَاتُهُ مِثْلُ النُّجُومِ دَرَارِى

يَا أَغْنِيَاءَ بِلَادِنَا أَبْصَرْتُمُو ... أَنَّ الْفَضِيلَةَ كَسْبُ كُلِّ فَخَارِ

فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَا فَكَيْفَ تَكَالُبٌ ... مِنْكُمْ عَلَى الدِّرْهَامِ وَالدِّينَارِ[2] ؟

هَيَّا أَنْفِقُوهَا فِى ارْتِفَاعِ بِلَادِكُمْ ... فِى مَصْنَعٍ أَوْ مَعْمَلٍ أَوْ دَارِ[3]

---

(١) مخترع الطباعة :

(٢) فى الأصل : « فإذا رأيتم ذاك كيف تكالب » ، وهو صحيح وزناً لاعربية ، أما تصحيحنا للبيت فيجمع بين الحسنيين ، والدرهام : لغة فى الدرهم وهى صحيحة فصيحة .

(٣) همزة « أنفقوها » همزة قطع ، وسهلت للضرورة .

حَتَّى تَرَوْا أَنَّ الَّذِي انْتَقَتْمُو يَنْمُو نُمُوَّ النَّبْتِ وَالْأَشْجَارِ

فَبِذَلِكَ الْعَمَلِ الْمَجِيدِ تَيَقَّنُوا .
إِلْحَاقَكُمْ بِخَوَالِدِ الآثَارِ[1]

مَا كَانَ يَخْطِرُ بِالْفُؤَادِ وَحَدْسِهِ أَنَّ الْأَثِيرَ يَجِيءُ بِالْأَخْبَارِ[2]

أَوْ أَنَّ إِنْسَانًا يَطِيرُ مُحَلِّقًا حَتَّى يَصِيرَ مُشَارِكَ الْأَطْيَارِ

أَوْ أَنَّ يَنْبُوعَ الْحَضَارَةِ رُوحُهَا مَخْبُوءَةٌ فِي الْكَهْرَبَاءِ السَّارِي

لَكِنَّهُ الْعِلْمُ الَّذِي تَسْمُو بِهِ يَهْدِيهمُو لِجَلَائِلِ الآثَارِ[3]

وَيُمِيطُ عَنْ وَجْهِ الْخَفِيِّ قِنَاعَهُ حَتَّى يُرَى كَالصُّبْحِ فِي الْإِسْفَارِ

وَيُحَقِّقُ الْأَمَلَ الْبَعِيدَ مَرَامُهُ حَتَّى يَعُودَ حَقِيقَةً بِنَهَارِ

إِنْ لَمْ نَكُنْ بِالْعِلْمِ نَشْغَلُ وَقْتَنَا وَحَيَاتَنَا مَا قِيمَةُ الْأَعْمَارِ[4] ؟

* * *

ثم [كان] افتتاح جامعة الرياض ، ثم المشروع الضخم الحديث لمياة الرياض وافتتاحُ الخط « المسفلت »[5] الجديد .. الذى يربط « الرياضَ » العاصمةَ

---

(١) تيقنوا : بمعنى تعلموا .. أى : اعلموا وتحققوا . وخوالد الآثار .. أى الآثار الخالدة .

(٢) خطر : من بابى ضرب ونصر ، والأثير : المادة المجهولة التى يحملها الهواء ، وينتقل عبرها صوت الإذاعة المسموعة .

(٣) من عيوب القافية أن تتكرر قبل مضى سبعة أبيات ، وكلمة « الآثار » هنا تقدمت قبل الأبيات الثلاثة السابقة على هذا البيت .

(٤) الصحيح فى التعبير : « فما قيمة الأعمار؟ » ولكنها ضرورة الشعر .

(٥) كلمة « المسفلت » .. أى : المعبد بمادة « الأسفلت » المعروفة ، وخير منها عربية كلمة « المرصوف » .

« بأُمِّ الْقُرَى » و « المدينة المنورة » حتى صار الحاجُّ يدخل البلادَ من شرقها ، فلا يسير إلا على خطٍّ « مُصَفْلَتٍ » حتى الأماكنِ المقدسةِ وما شاء بعدها .

وقد كان لهذه المشاريعِ ـ كما كان لغيرها ـ حظ كبير من عناية شعرائنا .

[عثمان بن سيار يحيي صحيفة «الفجر الجديد» :]

وكم [كان] يطيب لنا إيراد الكثير مما قالوه لولا ضيقُ المقام غير أنه لا يفوتنا أن نُورِدَ هنا قطعةً من قصيدة للأستاذ « عثمانَ بن سَيَّارَ » قالها مُحَيِّياً فيها صحيفةَ «الْفجر الجديد» . [وهاهى ذى القطعة التى اخترناها .. قال :]

حَيِّهَا ياشِعْرُ فِى فَجْـرِ صِباهَا ... حَيِّهَا كالرَّوْضِ مِعْطَاراً شَذَاهَا [1]

حدَّثُوا عنهـا وَعَنْ مِيلاَدِهَا ... فَاشْرَأَبَّ الْقَلْبُ وَجْداً لِلِقَاهَا

هِىَ بِنْتُ الشَّمْسِ فى إشْرَاقِهَا ... أَتُرَاهَا تَنْزِعُ الْأُمَّ عُلاَهَا

نَحْنُ فِى شَوْقٍ إلَيْهَا لَهَبـاً ... يُحْرِقُ الْأَجْفَانَ فِى لَيْلِ كَرَاهَا

بِسَنَا الْإِخْلاَصِ يَزْهُو جِيدُهَا ... وَمِنَ الْوَحْدَةِ وَالْحُبِّ رُؤَاهَا [2]

* * *

يَاحُدَاةَ « الفجر » مِنْ مَشْرِقِهِ ... أَشْرِعُوا الْأَقْلاَمَ وَاحْدُوهُ نَزَاهَا [3]

أَمْطِرُوهَا مِنْ شَبَا أَقْلاَمِكُمْ ... أَدَباً حَيّاً وَعَزْماً وَانْتِبَاهَا [4]

---

(١) شعراء نجد المعاصرون ٢٣٠

(٢) تقدم فى تعليقنا رقم (٤) على ص٦١ أن «يزهو» لغة ضعيفة أو باطلة وأن الأفصح والأصح : «يزهى» مبنية للمفعول .

(٣) أشرعوا . سددوا وصوبوا .. والمراد : هيئوها للكتابة ، ونزاهاً: جمع نزيه .. أى : طاهرة نظيفة . لاتحكمها الأغراض ، ولا توجهها المواد .

(٤) الشبا : جمع شباة ، وهى الحد من كل شىء ، والمراد هنا : سن القلم وفى البيت استعارة تبعية أو مكنية جميلة .

كما لا يفوتنا هنا أن نذكر قضية « الْبَرِيْمِىِّ » التى كان لها نصيب الأسد فى هذا السبيل .

ويحضرنى الآن قول بعضهم(١) :

نَحْنُ الْأَعَاصِيرُ الَّتِى إنْ دَمْدَمَتْ	قَذَفَتْ بِكُلِّ ثَقِيلَةِ الْأَحْجَارِ (١)
نَحْنُ السَّعِيرُ إِذَا يُلاَمِسُ زَنْدَهَا	ظُلْمٌ تَأَجَّجَ رَبْعُهَا بِالنَّارِ
نَحْنُ الَّذِينَ بِأَرْضِنَا سَطَعَ الْهُدَى	فَتَضَوَّعَتْ مِنْ عَرْفِهِ الْمِعْطَارِ (٢)
كُلُّ الْبَسِيطَةِ بَعْدَ مَا خَفَقَتْ عَلَى	أَرْجَائِهَا الرَّايَاتُ بِالْإِبْشَارِ (٣)
رُفِعَتْ بِأَيْمَانِ الْأُبَاةِ جُدُودِنَا	خَفَقَتْ بِهِمْ فِى أَمْنَعِ الْأَمْصَارِ (٤)

(١) المؤلف .

(١) الدمدمة : الغضب ، ودمدم عليه ، كلّمه مغضباً ، والمراد إن ثارت ومارت .

(٢) الهدى : الإسلام ، والعرف : الشذَى والأَرَجُ والرائحة الطيبة ، والمعطار : الكثير العطر ، وفاعل « تضوعت » ضمير يعود إلى «أرضنا» .

(٣) الإبشار : مصدر « أبشر » .. أى : أبلغ البشرى .. فهو كبشر . بالتضعيف . تماماً .

(٤) أمنع الأبصار : أشد الأقاليم مَنَعة وتحصيناً ، وكانت فى الأصل «أمتع» بالتاء المثناة ، وهو تحريف من الآلة الكاتبة ، وقد يقال : أكثرها متعة لسكانها ، ولكنه ضعيف .

أَيَعِيثُ فِي أَرْضِ الْبَرِيمِي غَاصِبٌ
نَصَبَ الشِّرَاكَ لِزُمْرَةِ الْأَحْرَارِ؟!(١)

يَا أَيُّهَا الْمُسْتَعْمِرُ الْبَاغِي كَفَى فَبِلَادُنَا لَمْ تَرْضَ بِاسْتِعْمَارِ
عَبْدُ الْعَزِيزِ أَظَلَّهَا بِحُسَامِهِ يَا لَلْحُسَامِ الصَّارِمِ الْبَتَّارِ!!

رابعاً : القضايا العربية

وإذا كانَ شعراؤنا قد فاتهم مصارعةُ الاستعمارعلى أديمِ وطنهم الأصيل لسلامة هذا الوطن من رجسه ــ كما أسلفنا ــ فإنَّهُ لم يَفُتْهُمْ مشاركةُ إخوانهم العرب والمسلمين فيما ابتُلُوا به من ذلك ، بل ضربُوا فى هذا الميدان المقدَّسِ بأنفذِ سهم ، وكان لهم فيه أوفرُ نصيب ، شفَعُوا به ما كان لهم من مشاركةٍ كُبْرَى فى الميدان الاقتصادى ، وعلى الصعيد السياسى .

وكلما كانت القضيةُ أكبَرَ وشأنُهَا أخطرَ كانت عنايتُهم بها أكثرَ وكان نصيبُها فى شعرهم أَوْفَرَ .

ومن هنا نجد :

[أولا : قضية فلسطين :]

[إن] قضيــةَ فِلَسْطِينَ واللاجئين كانت أخطرَ القضــايا لديهم حتى

---

(١) البريمى : واحـــة من واحات نجد كانت القوات الإنجليزية المحتلة لإمارات الخليج العربى قد اعتدت عليها واحتلتها ، ولعله نسبة إلى البريم ـ بوزن أمير ـ بمعنى الصبح ، أو بمعنى اللفيف من القوم ، أو بمعنى الجيش ، وبعض الصحف يكتبها « البوريمى » .

ليُمكِنُنا — وبلا أدنى تعمُّلٍ — أن نُخرِجَ من ذلك النِّتاجِ أسفاراً .. إذ لم يَخلُ شعرُ شاعرٍ منهم من عَبْرَةٍ متألِّم ، ودعوة ناصح شفيق ، وشأنُهم في ذلك شأنُ جميع شعراء العرب .

فلْنَسْمَعْ مع الشاعر صالح الأحمدِ العُثَيْمِين . بعضاً من قصيدة له بعنوان :

فلسطين

فِلَسْطِينُ يَا جَنَّـةَ الْخَالِدِينَ ... وَمَهْدَ الْفَخَارِ وَمَغْنَى الشَّمَمْ(١)

فِلَسْطِينُ يَا كَـعْبَةَ اللاَّجِئِينَ ... وَيَا شُعْـلَةً بِالْأَسَى تَضْطَرِمْ

فِلَسْطِينُ يَا بَلَدَ الْأَكْرَمِينَ ... وَرَمْزَ الْبُطُولَةِ مُنْذُ الْقِدَمْ

أَرَاكِ عَلَى مُقَلِ الْحَادِثَاتِ ... جَحِيماً يَؤُجُّ بِجَمْرِ الْحِمَمْ(١)

* * *

أَرَاكِ وَشَتَّى الرُّؤَى شُعْـلَةٌ ... تُذِيبُ الظَّلاَمَ تَفُلُّ الْحَدِيدْ

فَأَنْتِ تَرِفِّينَ فِى كُلِّ قَلْبٍ ... يُبَارِكُ كُلَّ صَبَاحٍ جَدِيدْ

أَيَا مَوْكِباً فِى شِعَابِ الْأَمَانِى ... رَقَى تَائِهاً كَخَيَالٍ شَرِيدْ

وَيَا دَمْعَةً مِنْ دُمُوعِ الْحَيَاةِ ... تُطَوِّفُ وَلْهَى كَحُلْمٍ طَرِيدْ

وَيَا شَهْقَةً فِى صُدُورِ الضَّحَايَا ... تُزَمْجِرُ مَحْمُومَةً بِالْخُطُوبْ

وَتَعْصِفُ مَشْحُونَةً بِالْمَآسِى ... وَتَغْفُو عَلَى وَشْوَشَاتِ اللَّهِيبْ

(١) ديوانه شعاع الأمل .

(١) المقل : جمع مقلة ، وهى شحمة العين التى تجمع البياض والسواد ، أو الحدقة ، ويؤج : يلتهب ويتوقد .

وَيَا شُعْلَةً مِنْ جَحِيمِ المَنَايَا يُحَوِّمُ فِيهَا الشَّقَا والْكُرُوبْ[1]
تُوَلْوِلُ خَفَّاقَةً بِاللَّظَى وَتَخْفِقُ صَاخِبَةً بِالْقُلُوبْ

ومنها :

بِنَفْسِيَ أَبْنَاؤُكِ التَّائِهُونَ حَيَارَى جَفَاهُمْ لَذِيذُ الْكَرَى
يَهِيمُونَ كَالْوَهْمِ عَبْرَ الأَسَى كَطَيْفِ الْخَيَالِ إِذَا مَا سَرَى
وَدَمْدَمَةُ الثَّأْرِ فِي عَزْمِهِمْ تَكَادُ تَهُزُّ أَعَالِي الذُّرَا
وَعَصْفُ الْفِدَاءِ بِأَرْوَاحِهِمْ يَكَادُ يُضَرِّمُ بَطْنَ الثَّرَى

* * *

[ثانياً : ثورة الجزائر :]

وحينما هبَّ الشعب الجزائريُّ لاسترجاعِ سيادته ، ودَفْعِ الغاصب لحقوقه ، المستعمرِ لأرضه ، وَجَدَتْ قَضِيَّتُهُ تحتلُّ مركزاً من الصدارة في نِتَاجِ شعرائنا .

فلقد دبَّجُوا القصائدَ .. في الدعوة إلى المناصرة والتأييد ، ونَظَمُوا الخرائدَ .. في التَّغَنِّي بالبُطُولات والأمجاد ، وَرَجَّعُوا قِصَصَ الكفاح والانتصارات .. حتى لكأنَّما [كان] شعورهم ملحمةً تحكى قصة كفاح ذلكم الشعب المكافح .. الذى ضرب أروع الأمثلة في قِصَصِ الكفاح والنضال .

---

(١) في الأصل المطبوع بالآلة الكاتبة « الشقى الكروب » ، والصحيح ماأثبتناه ، لاتفاقه مع المعنى .

خُذُوا مَثَلاً هذه الصورة [التى] يرسُمُها الأستاذُ الشاعرُ (١) إبرهيمُ المُحَمَّدُ الدامغُ ، وهى بعنوان :

روابى الخلد

يَارَوَابِى الْخُلْدِ يَامَهْ	دَ الأُباةِ الثَّائِرِينَا
يَا منَارَ المَجْدِ والإِشْ	رَاقِ قُولِى حَدِّثِينَا
أَىُّ نَوْرٍ فِى رُبَاكِ الْ	خُضْرِ تُهْدِيهِ القُرُونَا
أَىُّ نَبْعٍ دَافِقِ الإِلْ	هَامِ يَعْلُو مُسْتَبِينَا
أَىُّ عَزْمٍ فِى ذُرَاكِ الشُّ	مِّ سَامٍ خَبِّرِينَا

ومنها :

حَدِّثِينَا يَا رَوَابِى الْ	خُلْدِ مَهْدَ العَبْقَرِيَّةِ
يَا ظِلَالَ الدَّوْحَةِ الفَيْ	حَاءِ ظِلٍّ الأَبَدِيَّةْ
فَالدَّمُ الزَّاكِى لَهِيبٌ	فِى نُفُوسٍ يَعْرُبِيَّةْ
وَهُتَافُ الْحَقِّ نَادَى	فِى المَلَايِينِ الأَبِيَّةِ
وَانْطِلَاقُ الثَّائِرِ العِمْ	لَاقِ يَمْضِى فِى حَمِيَّةْ
وَيُنَادِى فِى جُمُوعِ الزَّ	حْفِ والثَّأْرِ القَوِيَّهْ
نَحْنُ فِى أَعْمَاقِ هَذَا الشَّ	عْبِ رُوحٌ عَرَبِيَّهْ

وفى آخرها يقول :

سَوْفَ تَلْقَى أُمَّةُ العُرْ	بِ انْطِلَاقًا واقْتِدَارَا

(١) فى كتاب « شعراء نجد المعاصرون » .

وَدِفَاعاً يُلْهِبُ التَّـــا رِيخَ عَزْماً وَاصْطِبَارَا
وَانْدِفَاعاً فَجَـــلَاءً تَمَّ إِكْلِيلاً وَغَارَا
سَوْفَ تَحْـــيَا أُمَّتِى يَا مُجْرِمَ الْحَرْبِ الْوَقَارَا
سَوْفَ نَحْيَا رَغْمَ أَنْفِ الْـــغَدْرِ سِلْماً وَانْتِصَـــارَا
وَظَلِيلاً وَارِفَ الْأَفْ يَاءِ عِزّاً وَفَخَـــارَا[1]
يَادَعِىَّ الْحَرْبِ أَسْدِلْ فَوْقَ مَاضِيكَ السِّتَارَا

* * *

[ثالثاً : الاعتداء الثلاثى على مصر :]

وعندما وَقَعَ العدوان الثلاثى على مصر لم يَهُنْ عَزْمُ شعرائنا عن أن يقوم بنصيبه فى المعركة وَافِرًا غَيْرَ منقوص ، وإنما كان ذلك نتيجة الإحساس الصادق بوجوب مشاركة الإخوان السَّرَّاء وَالضَّرَّاء .

ومما يحسن ذكره هنا أَنَّ حَرَكاتِ التدريب ـ للمكافحين والفدائيين ـ قد انتشرت فى جميع أنحاء المملكة .. استعداداً للمشاركة إذا لزم الأمر .

وقد عَبَّرَ الشعرُ عن بعض تلكم المشاعر فى مثل القصيدة [الآتية وهى] للأستاذ الأديب الشاعر عبدِ الله بن إدريس(ا) بعنوان :

---

(١) فى الأصل : « ظلالا » وهى لاتتفق مع الوصف « وارف » ولذلك بدلناها حتى يصح التعبير ، والظليل : المكان ذو الظل . ووَرَفَ الظل يَرِفُ وَرْفاً ووَرِيفاً ووُرُوفاً : اتسع وطال وامتد .

(ا) فى كتابه « شعراء نجد المعاصرون » .

بور سعيد

ومنها :

حِقْدٌ أَمَضَّ قُلُوبَهُمْ وَسُعَارُ   فَتآمَرُوا فَتَجَلَّتِ الْأَسْرَارُ

ضَاقُوا بِوَعْيِ الشَّرْقِ إِذْ نَفَضَ الْكَرَى
وَاسْتَنْهَضَ الْمُسْتَعْبَدِينَ فَثَارُوا

وَمَضَى يُحَطِّمُ ـ جَاهِدًا أَغْلاَلَهُ   وَعَلَيْهِ مِنْ أَمَلِ النَّجَاحِ شِعَارُ

لاَ الْعَسْفُ يُوهِنُ مِنْ رَبَاطَةِ جَأْشِهِ
فَشِعَارُهُ : الْإِقْدَامُ ، وَالْإِصْرَارُ

أَبَدًا وَلَوْ مَلَأَ الْوِهَادَ فَجِيعُهُ   لاَ يَنْثَنِي أَوْ يَعْتَرِيهِ فِرَارُ(١)

أَبْنَاءُ يَعْرُبَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ   صُبُرٌ على الْهَيْجَاءِ وَهْيَ تُدَارُ

وَهُمُ مَتَى مَا سُولِمُوا فَأَكَارِمٌ   أَوْ حُورِبُوا فَأَشَاوِسٌ أَحْرَارُ

* * *

يَاأَيُّهَا الْمُسْتَعْمِرُو . . أَخِلْتُمُو   أَنَّ الْكِنَانَةَ لُعْبَةٌ وَقِمَارُ ؟!

جُرْتُمْ عَلَى أَطْفَالِهَا وَنِسَائِهَا   أَكَذَا الْبُطُولَةُ أَيُّهَا الْأَغْمَارُ ؟!

مَاذَا أَفَدْتُمْ مِنْ نَذَالَةِ صُنْعِكُمْ   أَوْ نِلْتُمُو بِالْغَدْرِ يَا فُجَّارُ

حَاوَلْتُمُو إِخْضَاعَ شَعْبٍ آمِنٍ   بِجَرِيمَةِ الْإِرْهَابِ وَهْيَ بَوَارُ

فَنُكِبْتُمُو بِالْغَدْرِ أَبْشَعَ نَكْبَةٍ   وَالْغَدْرُ مَرْتَعُهُ الرَّدَى وَالْعَارُ

---

(١) الفجيع ـ هنا : بمعنى الفاجع ، والذى أحفظه ، فاجع وفجوع .

فَسَلُوا الْقَنَاةَ تُجِبْكُمُو أَعْمَاقُهَا :
إِنَّ الْغُزَاةَ بِقَعْرِهَا قَدْ صَارُوا
وَسَلُوا مَدِينَةَ بُورْسَعِيدَ فَعِنْدَهَا رَكَعَ الطُّغَاةُ لِهَامِهِمْ وَانْهَارُوا

* * *

رابعاً : قضية عُمَانَ :

ولما قام العُمَانِيُّونَ ليدفعوا خطر الاستعمار البريطانى عن بلادهم أطلق كثير من شعرائنا عِنَانَ قصائدهم ، معلنين بها مؤازرتهم لإخوانهم ، ومناصرتهم لهم ، ففاضت قرائحهم بكل مُلْهِبَةٍ متأجِّجة تفيضُ بالحماس ، وتندى بالوفاء والإخلاص .. من مثل قول الأستاذ سَعْدٍ البَوَارِدِي من قصيدة بعنوان :

عمان الثائرة

مطلعها :ـ

بأَرْض «عُمَانَ» تَرَامَتْ جُنُودُ (١)
وَأَثْقَلَهَا غَاصِبٌ وَحَقُودُ
بِأَرْضِ عُمَانَ لَهِيبٌ عَنِيدٌ
يُوَاكِبُهُ فِي الزَّوَايَا عَنِيدٌ

وكذلك كانَ شَأْنُ شعرائنا مع كلّ قضية عربية أو إسلامية . حتى القضايا العالمية كقضية «السلام والذرّةِ وَغَزْوِ الفضاء» ونزع السلاح .

ومن ذلك على سبيل المثال : قول بعضهم(ب) . من قصيدة بعنوان :

---

(١) ديوان (أغنية العودة) ص ٣٦

(ب) المؤلف

السلام

أَيَقُودُ فِي سُبُلِ السَّلَامِ مَعَاشِرٌ
جَعَلُوا السَّلَامَ إِرَادَةَ الْفُجَّارِ؟
تُمْلِي عَلَى الْأُمَمِ الضَّعِيفَةِ حُكْمَهَا
حُكْمَ الْقَوِيِّ الظَّالِمِ الْمَكَّارِ
يَتَشَدَّقُونَ بِأَنَّهُمْ لَا غَيْرُهُمْ رُسُلُ السَّلَامِ وَقَادَةُ الْأَحْرَارِ
وَهُمُ كِلَابُ الْحَرْبِ وَلَّاغُوا الدِّمَا
فَالسِّلْمُ عِنْدَهُمُ لَهِيبُ النَّارِ
كُلٌّ يُغَنِّي لِلسَّلَامِ وَطَيْفِهِ وَيَرَى حَصِيلَتَهُ مِنَ الْمُشْتَارِ
إِنَّ السَّلَامَ خُرَافَةٌ مَزْعُومَةٌ تُحْكَى لَنَا عَنْ أَلْسُنِ الْأَطْيَارِ
مَا لَمْ يُحَكَّمْ فِيهِ دُسْتُورُ السَّمَا وَكَلَامُ أَحْمَدَ صَفْوَةِ الْأَخْيَارِ

المحاضرة الثالثة

الشاعر حمد الحجى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا و نبينا محمد الذى قال : « إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكْمَةً ، وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْراً » وعَلَى آله وصحبه ـ والتابعين له بإحسان ـ وبعد:

فيأيها السادة :

حديثنا هذه الليلة حديثٌ . . لا كالأحاديث ، فَلَيْلَتُنَا به لا كاللَّيَالِي لأنه عن شاعر . . لا كالشعراء .

[إنَّه] شاعرٌ بَزَّ الفحول البُزَّل ، وهو مازال ابنَ لَبُونٍ[1] .

لم أَرَ له نظيراً فى شعراء العربية سوى طَرَفَةَ بن العبد[2] . [على] رغم الفوارق البيئيَّة ـ الزمنية منها والاجتماعية ـ بين الشاعرين .

---

(١) بز : فاق وسبق ، والبُزَّل ـ بوزن ركَّع ـ كالبُزُل ـ بوزن كتب والبوازل : جمع بازل أو بَزُول . . وصف للجمل ـ أو الناقة ـ إذا بلغ تسع سنوات ، وابن اللبون : ولد الناقة . . إذا كان فى العام الثانى واستكمله ، أو إذا دخل فى الثالث ، والأنثى: بنت لبون .

(٢) الشاعر الجاهلى الشاب . . قتيل الصحيفة مع الْمُتَلَمِّسِ ، والمتوفى سنة ٦٠ ق هـ/٥٦٤ م .

أما الشابى[1] فلم يبلغ شعرهُ من الفحولة والتجويد هـذا المبلغ الذى بلغه شعرُ شاعرنا هذا .

فمَنْ هو ؟ وأين ومتى وكيف نشأ ؟ وما نوع ومبلغ ثقافته ؟ وما العوامل التى صيرته هكذا ؟ فلا يهزُّ دَوْحَةَ البلاغة ، فتتهادى دُرَرُها مُشْرِقَةً على بساط شاعريته ، ليتَنَخَّل من فوائدها أغلى خرائده ولآلئـه ، فتجِىءُ قصائِدَ تُزْرِى بنفائس العُقود ، وتهزأ باللُّؤْلُؤِ المنضود ، .. تَشِـعُّ من أعطافها أنوارُ الأصالة ، وتفوح من أرْدَانها طُيُوبُ الفصاحة ، فتأسِرُ الألباب ، وتنعش الـكُتَّاب ، وتؤنس الأغْراب .. فى عالم الفـكر المبهم الدُّرُوب .. أمام إنسان العصر الحديث ، عصر الاختراع والابتـكار ، عَصْرِ الذَّرَّة وغَزْوِ الفضاء ، واكْتِنَاهِ مجاهل الوُجود .

[تعريف بالشاعر :]

هو الأستاذ الشاعر حَمَدُ بن سعد الحِجِّى ، ويرجع نَسَبُه إلى « هُذَيْل » ، وهى إحدى القبائل : العربية المشهورة .

[وقد] ولد عام ١٣٥٧ هـ ببلدة «مَرَّات» من إقليم « الْوَشْمِ » .. من أب

---

(١) أبو القاسم الشاعر التونسى المتدفق بأصوات الثورة على الاستعمار ، والمناداة بالـكفاح المرير ضد المستعمرين فى كل مكان ، وقد تخرج فى جامع الزيتونة ونال شهادة الحقوق سنة ١٣٤٨هـ/١٩٣٠م ،وظل يكافح وينافح حتى لقى ربه سنة ١٣٥٣هـ/١٩٣٤ ، وهو صاحب الأبيات المشهورة التى مطلعها :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة ... فلابد أن يستجيب القـدر

ولابد لليـــل أن ينجلى ... ولابد للقيــــد أن ينكسر

عُرِفَ بقرض الشعر العامىِّ ، أما أُمُّهُ فقد تُوُفِّيَتْ وهو صغير ، فَحُرِمَ بذلك حَنَانَ الأم .

وليت الأمر وقف عند هـذا الحَدِّ ، فلقد كان أبوه فقيراً ، كما كان لزمن طويل ـ يعيش عزَباً .. لم يتزوج ، الأمْرُ الذى حمـل أولادَه على النِّفَارِ من البيت .

فأما شاعرنا فقد وجد فى كنف أخته .. زوجةِ الشيخ محمدِ بنِ علىٍّ بن دُعَيْجٍ .. موطئاً له وموئلا عَوَّضَهُ بعضاً ممـا فقد .. ، فواصـل دراسته فى المدرسة الابتدائية .. حتى نال شهادتها عام ١٣٧١ هـ ، وبعدها انتقل إلى مدينة « الرياض » حيث التحق بمعهد الرياض العلمى عام ١٣٧٢ ، وواصل دراسته حتى نال شهادته من هـذا المعهد عام ١٣٧٦ هـ ، ثم التحق بعد ذلك بكلية الشريعة « فى الرياض » أيضـاً عام ١٣٨٧ هـ . وعند بدء الدراسـة فى المرحلة الثالثة . وجَدَ منه المسئولون مُيُولاً كبيرةً لعلوم اللغة العربية . واستعداداً أوفر فى هذا المجال .

وكان فضيلةُ المغفورِ له الشيخُ عبدُ اللطيف بنُ إبراهيمَ نائبُ رئيس الكليات والمعاهد يُقدِّرُ موهبة الشاعر ويُجِلُّه .. من أجل ذلك ، ويعطف عليه ، ومن هنا وافقت الرياسة العامة على إلحاقه حسب رغبته بالسنة الثالثة بكلية اللغة العربية .

وكان الشاعرُ الموهوب يعيش بإحساسٍ مُرْهَفٍ قابلٍ للتفاعل مع ما تَلَقَّى به الحياة فى طريقه ؟ فأرهقه تعاقب الآلام . وتعاوُرُ المصائب ، وتكاثُرُ الرَّزايا فاعْتَرَتْهُ أمراض كان للوَهْم والوَسوسة منها أوفرُ نصيب . فانقطعت به الطريق وتوقفت بذلك تلك الشاعرية الفَذَّةُ عن التدفق ، فراعَ ذلك المخلِصِينَ ، فسعى أُولُو العزم منهم إلى الأخذ بيـده ، فكان أن قاد الأمِيرُ الشهم سَلْمَانُ بن

عبد العزيز حملةً فى الصحف ـ الغرَضُ منها جمعُ التبرعات لعلاجه ـ وَأَسْهَمَ فيها سُمُوُّهُ بنصيب وافر ، وكان أن جَمَعَ مايزيد على ثلاثين ألفاً [من الريالات السعودية] فأرْسِلَ إلى لُبْنَانَ . واتجه إلى الشفاء إلاَّ أن المرض عاوده بعد رجوعه ، فأرسله أحَدُ المحسنين إلى الكُوَيْتِ على حسابه .. حيث بقى [هناك] عاماً تحسَّن بعده تحسناً يسيراً جداً ، غير أن المرض كَرَّ عليه من جديد بعد رجوعه ، ومازالت الأحوال تتقلب به حتى آل به الأمر إلى مستشفى «شِهَار»(١) بالطائف .

فهل من جهود جديدة تبذل فى انتشال هذا الفحل من هذا القاع السحيق الذى هوَى فيه ؟!!

تلكم لمحة عاجلة عن حياة شاعرنا الذى قال عنه الأستاذ عبد الله بن إدريس فى كتابه « شعراء نجد المعاصرون » :

« شاعر أصيل يمتاز شعره بالجزالة والرُّوَاء ، والتناسق فى البناء العضوى للقصيدة ، وهو من الشعراء البائسين التُّعَسَاء ، وكثيراً ما [كان] يصور حياته فى شعره . غير أنه [كان] مضطرب الفِكْر : لنوازع القلق التى [كانت] تهز كيانه . . من جراء البؤس والفاقة إلا أنَّ شيئاً جوهرياً فى العمل الفنى ينقص شاعرنا هذا .. وهو التركيز ، فلو توفرت لديه أداة التركيز فى العمل الفكرى والتصويرى غير المُشَوَّش لما شُقَّ له غبار خاصة فى الميدان التأملى .

وعسى أن تنأى عنه أو تتبخَّر فى وجوده حدة الوسوسة والاضطراب النفسانى . وتخف عليه وطأة الحياة القاسية ، ليرى طريقه إلى النور .. إلى الصفاء الذهنى ، ، والرخاء والخصب . بعد إجدابٍ مادِّىٍّ مُرِيعٍ . وبلبلة فكرية عارمة » .

---

(١) شهار ـ فى الأصل ـ مصدر شاهره .. إذا استأجره .

عصر الحجى : الحجى شاعر معاصر مازال على قيد الحياة بلا حياة .

قضى قبل أن يشتد به المرض قرابة أربعة وعشرين عاماً ، عاشها ما بين عامَىْ ١٣٥٧ ، ١٣٨١هـ قضى منها ستة عشر عاماً فى بلدته ، والباقى فى مدينتى «الرياض والطائف» ولبنان ، ثم استقر به المُقام بعد تجوال طويل ـ أكثره بلا قصد . بمستشفى « شِهَار » بالطائف (مستشفى الأمراض العقلية) .

لقد عاش الحجى فترة أولها فى غاية الإجداب ، وآخرها أخذ بنصيب من الإخصاب . فلقد واكب مولدُه مولدَ المدارس . فى نجد ـ وهى ـ وإن كانت على نطاق ضيق عند بدايتها ـ لم تلبس أن اتسعتْ اتساعاً هائلاً . . حتى إنه لم تكن السبعينيات من هذا القرن تنقضى حتى انتشرت المدارس بمراحلها الابتدائية والمتوسطة والثانوية . . فى سائر أنحاء المملكة ـ ومنها نجد ـ ثم لحقت بذلك المرحلةُ الجامعية .

وقد صحب الحركةَ التعليمية والمدرسية ظهورُ الكثير من الوسائل التثقيفية السائرة إلى الأمام فى طريق الترقى والنمو بالسرعة التى تقتضيها روح العصر وتتطلبها البلاد المتحفِّزَةُ لبناء المستقبل الأفضل ، مُتَرَسِّمَةً فى ذلك خُطَا مليكها المتوثبة الخالصة المؤمنة بهَدْىِ المصطفى عليه الصلاة والسلام .

فالمكتبات التجارية « حوانيت الكتب » ثم المكتباتُ العامَّة بدت طلائعها فى السبعينيات . . كالمكتبة العامة التى أنشأها صاحب السمو الملكى الأمير مُساعِدُ بن عبد الرحمن فى بيته ، وفَتَحَ أبوابها للرُّوَّاد ، والمكتبةِ التجارية للأستاذ عبد المحسن أبى بُطَيْنٍ [وغيرهما من] مكتبات عامة وأخرى تجارية يضيق المجال عن عَدِّها

ثم الصحافةُ التى كانت الباكورةُ فى ميدانها صحيفةَ « اليمامة » التى صدرت بالرياض عام ١٣٧٢هـ ، وتبعتها حركةٌ صحفية متحركة

أما المطابع فقد كانت صاحبةُ السبق فيها مطابعَ الرياض التى بدأت العمل عام ١٣٧٤ ﻫ ، ولحقت بها بعد ذلك زميلاتٌ أُخَرُ

أيها السادة :

إن الحديث عن هذه الوسائل التثقيفية ـ الخاصة منها والعامة ـ حديثٌ يتطلب البسط والإيضاح ولَـكَمْ [كان] يسرنا ذلك لولا أن الحديث لغيرها .

غير أن هناك أمراً تجدر الإشارة إليه ، وهو أن البعوث الخارجية واستقْدَام المدرسين من الخارج .. ثم غشَيَان المطبوعات الحديثة من كتب وصحف ومجلات ثم المذياعَ الذى غَشِيَ البيوت ثم التليفزيونَ . كل ذلك كان له الأثر البالغ فى مجال التوعية والتثقيف وإزالة كابوس الجهل الذى كان مطبقاً على هذه البلاد . وما كان [ذلك] ليتم لولا جهود المغفور له الملك عبد العزيز ، ثم أبنائه البَرَرَةِ وفَّقَهم الله وسدَّد خُطَاهم .

وإذا كان الشاعر الحجى قد انتقل من قريته إلى مدينة « الرياض » عام ١٣٧٣ ﻫ . بعد ما نال الشهادة الابتدائية فإن تلك الفترة هى الفترة التى بدأت فيها الوسائل التثقيفية تَغْشَى أُفُقَ « الرياض » فأقبل عليها طلاب العلم ورُوَّاد المعرفة ، ينهلون من مَعِينها ويكرعون مِنْ مواردها ، ويتسابقون فى ذلك تَسَابُقَ الأفراس الجياد .. فى حَلْبَةِ الميدان ، كُلٌّ يريد أن يكون له الحظُّ الأوفرُ ، والقِدْحُ المعلَّى .

وكان الحجّى — شفاه الله — من أولئك الشباب الطامح إلى بلوغ ذُرَا المعرفة ، واستجلاء معالم الفكر الإنسانى ، التالِد منه والطريف ، غير أنه امتاز من بينهم بالْفَهْم العظيم .. فقد أصيب ـ إن صح هذا التعبير ـ بداء القراءة حتى اعْتَبَرَ البعضُ ذلك أحد الأسباب التى شَحَنَتْ صدره بالوساوس والأوهام .

* * *

عصر الحجى ـ إذن ـ عصر نُقْلَةٍ فُجَائِيَّةٍ قفزت بالبلاد من مستوى قَرَوِيٍّ

جاهل متخلِّف ، لاتربطه بالعالَمِ المُعـاصِرِ المتحضِّر ، ومُنْجَزاته وابتـكاراته ومخترعاته ، ووسائل عيشه الحديث ـ أدنى رابطة ، ولاتشدُّه أضعف وشيجةٍ إلى حياة حضارية مُتَمَدْيِنَة ، يمزِّق فيها العلمُ سِتْرَ الجهل ، ويَمْلأ جنباتها ضياء المعرفة .. حياةٍ تأخذ بشتى وسائل التقدم التى وصل إليها إنسان العصر الحـديث فى كافة مجالاة حياته المادية وغير المادية ، فانـكشفت بها للبلاد جَميعُ العوالم وربطتها بها بشتى الروابط والصلات ، فجارت [غيرها] فى ذلك الميدان ، وأرخت لنفسها وجهدها فيه العنان ، فنالت فى أقصر الأوقات مالم ينله الـكثير إلا بعد طول كَدٍّ وَجُهْد ومعاناة .

على أن مضاعفات مثل هذة النُّقلة أخطر ، ووسائل إنجاحها أندر ، لَـكِنْ عندما تصح العزيمة تُذَلِّلُ الصعاب .

شعره :

حينما نريد النظر فى شعر شاعرنا الحجى لا نجد بين أيدينا منه إلا قصائد معدودة . يرجع الفضل فى بقائها إلى كتاب « شعراء نجد » للأستاذ عبد الله ابن إدريس ، والبعض منها أسعفنى به بعض الإخوان .. ممن يُهِمُّهم هذا الأمر ، ومنها ما وجدتُه فى بعض قُصاصات من الجرائد عندى ، غير أن تلك القصائدَ على قلة عددها ـــ كافية [إجمالا] لأخذ صورة واضحة المعالم وافية الدِّلالة على ما كان يتمتع به ـ شفاه الله ـ من شاعرية جمعت إلى صفائها ونقائها : قوة الدفع ، وغزارة اليَنْبُوع ، مع عمقٍ فى النظر ، ودقةٍ فى الإحساس ، ورَهَافة فى الشعور .

استَمِعُوا إليه فى هذه القصيدة التى كأنَّما يترجم بها عن مشاعره وإحساساته التى تصطرع داخل نفسه ، وتحاول أن تجد لها مخرجا فَتَصْطَدِمُ بذلك الرُّكَامِ الهائل ، من متناقضات الحياة التى صَبَغَت بِصِبغَتِها تلك أخلاقَ أهلها وطباعَهم .

إنها قصيدة [نقلناها] من صحيفة « اليمامة » فى ١٩/٨/١٣٧٧ هـ [وفيها] يقول بعنوان :

فى زمرة السعداء

أَأَبْقَى عَلَى مَرِّ الجدِيدَيْنِ فِي جَوًى ... وَيَسْعَدُ أَقْوَامٌ وَهُمْ نُظَرَائِي؟؟[1]

أَلَسْتُ أَخَاهُمْ قَدْ نَظَرْنَا سَوِيَّةً ... فَكَيْفَ أَتَانِي فِي الحَيَاةِ شَقَائِي؟

أَرَى خَلْقَهُمْ مِثْلِي وَخَلْقِيَ مِثْلَهُمْ ... وَمَا قَصَّرَتْ بِي هِمَّتِي وَذَكَائِي

يَسِيرُونَ فِي دَرْبِ الحَيَاةِ ضَوَاحِكاً ... عَلَى حِينِ دَمْعِي ابْتَلَّ مِنْهُ رِدَائِي

أَكَانَ لِسَانِي إِذْ نَطَقْتُ مُلَعْثَماً ... وَكَانُوا إِذَا نَاجَوْا مِنَ الْفُصَحَاءِ؟[2]

وَهَلْ كُنْتُ إِمَّا أَشْكَلَ الأَمْرُ عَاجِزاً

وَكَانُوا لَدَى الْجُلَّى مِنَ الْحُكَمَاءِ ؟

وَلَسْتُ فَقِيراً أَحْسَبُ الْمَالَ مُسْعِداً ... وَلَيْسُوا ـ إِذَا فَتَّشْتُهُمْ ـ بِثَرَاءِ[3]

وَهَلْ لَهُمْ جُودٌ بِمَا فِي أَكُفِّهِمْ ... وَأَنِّي مَدَى عُمْرِي مِنَ البُخَلَاءِ؟

وَهَلْ أَصْبَحُوا فِي حِينَ أَمْسَيْتُ مَانِعاً ... يَجُودُونَ بِالنُّعْمَى عَلَى الفُقَرَاءِ ؟

---

(١) الجديدان : الليل والنهار .

(٢) فى الأصل المكتوب فى الآلة الكاتبة «إن نطقت» والصحيح «إذ» كما أثبتنا .

(٣) فى الأصل المكتوب بالآلة الكاتبة : «وكيسوا» ثم صححها المؤلف «وكانوا» وما أثبتناه هو الصحيح .

وَهَلْ كُلُّهُمْ أَصْحَابُ فَضْلٍ وَمِنَّةٍ وَكُنْتُ أَنَا الْمَفْضُولَ فِي الْفُضَلَاءِ؟(١)

وَهَلْ ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ شَرْقاً وَمَغْرِباً
وَكُنْتُ مَلِلْتُ الْيَوْمَ طُولَ ثَوَائِي؟(٢)

وَهَلْ كُلُّهُمْ أَوْفَوْا بِكُلِّ عُهُودِهِمْ وَمِنْ بَيْنِهِمْ قَدْ غَاضَ مَاءُ وَفَائِي؟(٣)

بَلَى : أَخَذُوا يَسْتَبْشِرُونَ بِعَيْشِهِمْ
سِوَايَ فَقَدْ عَايَنْتُ قُرْبَ بَلَائِي

وَهُمْ نَظَرُوا فِي الْكَوْنِ نَظْرَةَ عَابِرٍ
يَمُرُّ عَلَى الْأَشْيَاءِ دُونَ عَنَاءِ

وَأَصْبَحْتُ فِي هَذِي الْحَيَاةِ مُفَكِّراً
فَجَانَبْتُ فِيهَا لَذَّتِي وَهَنَائِي(٤)

وَمَنْ يُطِلِ التَّفْكِيرَ يَوْماً بِمَا أَرَى
مِنَ النَّاسِ لَمْ يَرْتَحْ وَنَالَ جَزَائِي

وَمَنْ يَمْشِ فَوْقَ الْأَرْضِ جَذْلَانَ مُظْهِراً
بَشَاشَتَهُ يَمْرُرْ بِكُلِّ رُوَاءِ

* * *

---

(١) المفضول : من يقع عليه الفضل ، والفاضل خير منه .. قال الشنفرى الأزدى :

وماذاك إلا بسطة عن تفضل عليهم وكان الأفضل المتفضِّلُ

(٢) الضرب فى الأرض : التنقل فى أفيائها . والثواء : الإقامة .

(٣) غاض : ذهب وبعد فى القاع .

(٤) المعروف : هناءة .. وهناء : قليلة ، أو غير صحيحة .

تُغَنِّي عَلَى الدَّوْحِ الْوَرِيقِ حَمَامَةٌ فَيَحْسَبُهُ الْمَحْزُونُ لَحْنَ بُكَاءِ[1]

وَتَبْكِي عَلَى الْغُصْنِ الرَّطِيبِ يَظُنُّهَا
حَلِيفَ الْهَنَا تُشْجِي الْوَرَى بِغِنَاءِ

أَلاَ إِنَّمَا بِشْرُ الْحَيَاةِ تَفَاؤُلٌ تَفَاءَلْ تَعِشْ فِي زُمْرَةِ السُّعَدَاءِ

* * *

ولئن كان شعر شاعرنا يطفح بالتشاؤم والتبرم بالحياة وأهلها وما جبلوا عليه من تناقض ومخالفات ـ إنه لم يكن انطوائياً يعيش بِمَعْزِلٍ عن أحداث بلاده وقومه ، بل كان يبادر إلى الإشادة بأمجادها والتغنى بها . . لكن لا : بأسلوب المادح المتزلِّف ، وإنما : بأسلوب المواطن الذى أذاب رُوحَه فى سبيل إخلاصه لبلادِهِ وأُمَّتِهِ .

استمع إليه يبتهج بافتتاح « جامعة الرياض » ويغرد فى موكبها عام ١٣٧٧ هـ . . إذ يقول(١) :

فِي مَوْكِبِ الْبَعْثِ غَنِّ الشِّعْرَ تَغْرِيدَا
وَأَرْسِلِ اللَّحْنَ فِي دُنْيَاكَ تَرْدِيدَا

وَأَسْمِعِ الْكَوْنَ أَنْغَامًا مُرَتَّلَةً
وَامْنَحْ خَيَالَكَ أُفْقًا لَيْسَ مَحْدُودَا

فَقَدْ رَأَيْتَ بِأَرْضِ الْعُرْبِ جَامِعَةً
قَدْ شَيَّدُوهَا عَلَى الْإِيمَانِ تَشْيِيدَا

---

(١) الوريق : المورق .

(١) شعراء نجد المعاصرون .

تُلَقِّنُ الْعِلْمَ تبغِى رَفْعَ مِشْعَلِهِ لِتَبْعَثَ الْفِكْرَ إِيجَاداً وَتجْدِيدَا

وَتَدْفَعُ الْجِيلَ مُنْسَاقاً بِعَزْمَتِهِ كَيْمَا يُسَايِرَ رَكْبَ الْعِلْمِ مَجْدُودَا

النَّاسُ تُضْحِى لَهُمْ مِصْبَاحَ دَاجِيَةٍ

وَمَنْهَلاً للشَّبَابِ الْحَىِّ مَوْرُودَا

هَذِى الشَّوَاهِدُ أَنَّا سَيْرُنَا أَمَمٌ وَلَمْ نَعُدْ نَسْتَسِيغُ الْعِلْمَ تَقْلِيدَا

* * *

شَبَابَ يَعْرُبَ هَذِى فُرْصَةٌ. سَنَحَتْ

لِكَىْ تُوَاصِلَ نَحْوَ الْعِلْمِ مَجْهُودَا

وَيَوْمُكَ الْيَوْمُ .. لاَ تَرْكَنْ إِلَى كَسَلٍ

وَأَوْلِ مَا رُمْتَ إِسْرَاعاً وَتَجْوِيدَا

مَا نَامَ قَوْمٌ وَشَادُوا صَرْحَ مَمْلَكَةٍ

وَلاَ تَوَانَى فَتًى قَدْ رَامَ تَسْوِيدَا

وَالْعِلْمُ يَخْلُقُ لِلأَقْطَارِ نَهْضَتَهَا

وَيُورِثُ الْفَرْدَ تَكْرِيماً وَتَخْلِيدَا

* * *

وتَستشرف نفسُ شاعرنا إلى الانطلاق ، فتبحثُ عن بلاد لا تحدُّهُ فيها قيود اجتماعية ، ولا تلاحقه فيها على دُروب الحبيب ، عَيْنُ رقيب ، فيسافر إلى لُبنان ولكن .. هل ينسيه [وَطَنَهُ] صخبُ الحياة هنالك وما فيهامن مغريات ومسليات؟ ، هل ينسيه بلادَهُ « نَجْدَ »؟؟ ، كلاَّ .. بل لقد زاده ذلك حنيناً إليها ، وتعلُّقاً بها ، فراح يتغنى باسمها ، ويكرره .. فَيُبْدِىء ويُعِيد : وكأنه يريد أن يُعَوِّضَ نَفْسَهُ عن بعضٍ مما افتقدته فى ساعتها ، فيشدُو باسم نَجْد فى مثل قوله :

أَسْمَاءُ فِي نَجْدَ مَغْنَاهَا وَمَرْتَعُهَا ... يَا حَبَّذَا فِي رَوَابِي نَجْدِ أَسْمَاءُ(ا)

ويعود إلى نَجْدٍ فيفرح به إخوانه ، ويُسَرُّ به محبُّوه ، ولـكن هل يطيب له بها المقام ؟ وهل يستطيع أن ينسى لبنان ؟ .

استمعوا إليه يحدِّثْكم بنفسه عن ذلك فى هذه القصيدة .. التى [أنشأها] تحت عنوان :

ذكرى لبنان(ب)

النَّازِحُ الْعَانِي طَوَاهُ ضَنَاهُ ... فَبَكَا دِمَاءً حِينَ طَالَ نَوَاهُ(١)

وَجَفَا الْمَرَابِعَ إِذْ تَذَكَّرَ فِتْيَةً ... غُرًّا شَجَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ شَجَاهُ(٢)

هُمْ رُفْقَتِي بِالشَّامِ لاَ أَنَا وَاجِدٌ ... بَعْدَ الْوُجُوهِ الزُّهْرِ مَنْ أَرْضَاهُ(٣)

شُمُّ الْأُنُوفِ كَأَنَّمَا أَخْلاَقُهُمْ ... نَشْرُ الْخُزَامَى قَدْ عَلاَهُ نَدَاهُ(٤)

(ا) هذا البيت من قصيدة له فى الحنين إلى نجد لم أوفق بعد للعثور عليها . وانظر أيضاً قصيدة « ياعيد » التى ستأتى .

(ب) هذه القصيدة مناولة من بعض الإخوان .

(١) العانى : الأسير : ويراد به ـ هنا ـ المقيد ، والضنى : الألم ، والنوى : البعد .

(٢) المرابع : الملاعب وأماكن اللهو ، والشجى : الحزن .

(٣) الرفقة ـ بتثليث الراء : الأصحاب .

(٤) شم : جمع أشم ، والشمم : هو الأنفة والإباء والتعالى على الصَّغائر أو الصِّغار ، والخزامى : نبت طيب الرائحة ـ كما تقدم .

كَمْ لَيْلَةٍ حَمْرَاءَ فِى أَكْنَافِهِمْ ... كَادَتْ تُعِيدُ لِذِى المَشِيبِ صِبَاهُ (١)

فَاسَمْتُهُمْ مُتَعَ الحَيَاةِ جَمِيعَهَا ... الكَأْسُ كَأْسٌ وَالشِّفَاهُ شِفَاهُ

* * *

وَسَرِىِّ قَوْمٍ ذُبْتُ فِيهِ مَوَدَّةً ... فَلَقِيتُهُ يَا حَبَّذَا لُقْيَاهُ (٢)

هُوَ زَامِرُ الحَىِّ الَّذِى قَدْ حَدَّثُوا ... عَنْهُ وَقَالُوا : لاَ يَطِيبُ غِنَاهُ (٣)

لَمْ يَحْنِ جَبْهَتَهُ لِغَيْرِ اللهِ إِذْ ... حُنِيَتْ لِأَغْرَاضِ الحَيَاةِ جِبَاهُ

سَارُوا وَسَارَ مَعَ اللَّيَالِى فَاهْتَدَى ... بِالنَّجْمِ تَخْفِقُ فِى سَمَاهُ رُؤَاهُ

لَوْ كَانَ يَرْضَى بِالمَدِيحِ مَدَحْتُهُ ... وَذَكَرْتُهُ لَكِنَّهُ يَأْبَاهُ ..

كُلٌّ يُقَالُ : لَهُ شَبِيهٌ فِى العُلاَ ... فَأَقُولُ : هَذَا مَالَهُ أَشْبَاهُ

خُلُقٌ إِلَى عِلْمٍ إِلَى وَطَنِيَّةٍ ... هَذَا الَّذِى لَمْ يَجْتَمِعْ لِسِوَاهُ

---

(١) الليلة الحمراء : ليلة اللهو والعبث ، وحمرتها تنسب لفعل الكؤوس فى النفوس ، وتأثير الخمر فى الدورة الدموية .. فتعلو الوجوه حمرة كاذبة لاتلبث أن تزول وتحول .. إلى ضعف وتراخ شديد .

(٢) السرىّ : الشريف الكريم ، وفعله من أبواب « دَعَا وَرَضِىَ وَكَرُمَ » سَرَاوَة ، وسَرًى وسَرْوًا وسَرَاءً ، ويجمع « سَرِىٌّ » على أَسْرِيَاء ، وَسُرَوَاء ، وسُرًى » .

(٣) فى الأصل الذى لدينا : « هو من ترى هو زامر الحى الذى قد حدثوا .. إلخ » والصحيح مافعلناه .. بحذف جملة « هو من ترى » التى يجوز أن تكون أول بيت آخر ، ويمكن أن يكون أصل الشطر الاول :

« هو من ترى ذاك الذى قد حدثوا » إلخ .

إيهِ أبَا «مَيٍّ» إليْكَ تحيَّــةً ... مِنْ شاعِرٍ قاسَمْتَهُ بَلْوَاهُ (١)

لَمْ أنسَ قُرْبَ الْبحْرِ مجْلِسَنا وَقَدْ ... نُشِرَ الظّلاَمُ فَكُنْتَ أنْتَ سَنَاهُ

لُبنَانُ يا بَلَدَ الطَّبِيعَةِ وَالْهَوَى ... وَالشِّعْرِ فِي أدْنَاهُ أوْ أقْصَاهُ

أهْوَى الجَدَاوِلَ وَالصُّخُورَ إذَا مَشَتْ
عِنْدَ الأصِيلِ عَلَى الصُّخُورِ ـ مِيَاهُ

أهْوَى الحِسَانَ إذَا مَشَيْنَ تَدَافُعاً ... كَالْبَانِ غَضًّا قَدْ عَلاَهُ صِبَاهُ .. (٢)

يَضْحَكْنَ أوْ يَغْمِزْنَ مَنْ لاقَيْنَهُ ... يَاوَيْحَ قَلْبِي مِنْ لِحَاظِ صِبَاهُ (٣)

إنِّي أمُوتُ عَلَى مَصِيفٍ فِي رُبَا ... لُبْنَانَ لاَ رَاعَ الزَّمَانُ رُبَاهُ

لَكِنَّنِي خَالِي الْوِفَاضِ وَمِثْلُهُ ... بَلَدٌ جَدِيبٌ لِلْفَقِيرِ مَتَاهُ (٤)

مَا حَلَّهُ إلاَّ أمِيرٌ أوْ أخُــو ... مَالٍ وَمِثْلِي قَدْ يُعَارُ رِدَاهُ (٥)

جَنَّاتُهُ غَرْقَى بِضَافِي حُسْنِهِ ... هَرِمَ الزَّمَانُ وَحُسْنُهُ أعْيَاهُ

أرْضٌ كَمَا وُصِفَ الْخُلُودُ لِعَابِدٍ ... يَبِسَتْ لِطُولِ صَلاَتِهِ قَدَمَاهُ

إنِّي لأذْكُرُ فِيهِ أيَّاماً خَلَتْ ... فَتَكَادُ تُدْمِي خَافِقَيْ ذِكْرَاهُ (٦)

---

(١) لعله يقصد إلى الكاتبة المشهورة «مى» التى كانت تكتب فى جريدة الأهرام أيامه .

(٢) الصبا ـ هنا ـ : صغر السن ، والشباب ، والمراد : رواؤه ولمعته .

(٣) الصبا هنا – الجهل والطيش والانحراف .

(٤) فى الأصل «فتاه» وهو تحريف .. صوابه ماأثبتناه .

(٥) أخو مال : صاحب مال ، « ورداه » مقصور من «رداؤه» .

(٦) الخافقان : الليل والنهار .

أقدم قصيدة وأحدث قصيدة قالها :

وكما حَرِصْتُ على أن أجمع كلّ ما أعثر عليه من شعر شاعرنا ـ الحجى ـ حَرَصْتُ أيضاً على تَبَيُّن أقدم وأحدث ما حصلتُ عليه ، غير أن الحكم على هذه القصيدة أو تلك: بأنها أقدم أو أحدث ماقال : مُتَعَذِّرٌ مالم تَحْصُل على مادَوَّنَهُ هو ، وذلك شبه متعذر الآن.. غير أنه يمكننا أن نعطى حكماً تقريبياً على مافى أيدينا من نَتاجه الوافر . وأقول: الوافر .. لأن الرجل كان شاعراً مطبوعاً يكتب الشعر وكأنما يُمْلَى عليه إملاءً ـ كما حدثنى بذلك بعض زملائه ومُساكِنيه ـ .

قال الأستاذ حَمَدُ بن دُعَيْج :

فى بعض الأحيان يكون الحِجِّى بيننا ونحن منهمكون فى الحديث فيتناول الورقة والقلم ، وماهى إلا دقائق ، حتى يخرج علينا من ذلك الصمت القصير بقصيدة تتجاوز خمسة عشر بيتاً كتبها . وكأنما تُملَى عليه إملاءً .

وشاعرٌ هذه حاله لابد أن يكون مُكْثِراً .. لكنْ أين ذلك النِّتَاجُ الوافـــر ؟.

إذا لم يتم شفاؤه ، أو تحدثْ معجزة لا يمكننا الإجابة على هذا السؤال ؟!

أما مافى أيدينا من شعره فإن أقدم قصيدة فيه [هى] تلك التى قالها فى الإشادة بمطابع « الرياض » الحديثة.. عند افتتاحها عام ١٣٧٤ هـ ، وقد تقدمت فى المحاضرة السابقة (١)

أما أحْدَثُ قصيدة فيما عثرتُ عليه من شعره : فهى القصيدة التى قالها إبَّانَ علاجه فى لُبنَان ، ونشرتْها مجلة « الورود » اللبنانية ، ونقلتها عنها صحيفة « القَصِيم » وهى بعنوان :

---

(١) راجع ص ٦٤

ثورة نفس

قال فيها :

فِي سُكُونِ اللَّيْلِ قُدْتُ الزَّوْرَقَا ... قَاصِداً شَطْءَ رَجَائِى الشَّيِّقَا(١)

مُبْحِراً نَحْوَ الغَدِ المَجْهُولِ فِي ... حُلْكَةٍ لَمْ أَجْلُ فِيهَا أُفُقَا

كَمْ يَثُورُ الْبَحْرُ حَوْلِي مُزْبِداً ... لَاهِبَ الْغَضْنِ مَغِيظاً مُحْنَقَا(٢)

حَمَلَتْ أَمْوَاجُهُ مِنْ قَاعِهِ ... زَعَقَاتِ الذُّعْرِ مِمَّنْ غَرِقَا(٣)

رُبَّ ضَلَّ الْعَقْلُ فِي غَيْهَبِهِ ... فَارْحَمِ اللَّهُمَّ عَقْلِي الْمُرْهَقَا(٤)

زَوْرَقِي فَوْقَ مِيَاهٍ عَصَفَتْ ... بَاتَ مَجْنُوناً وَبَاتَتْ زِئْبَقَا

عِشْتُ بِالْأَنْجُمِ مِنْ سَلْسَالِهَا ... أَعْرِفُ الضَّوْءَ وَأُطْفِى الْحَرَقَا(٥)

ثُمَّ مَاتَتْ فَمَا أَنَى صَخْرَةٌ ... يَبِسَتْ بَعْدَ كَرِيمِ الْمُسْتَقَى

---

(١) الشطء هنا : شاطىء النهر ، ومثله «الشط» بتضعيف الطاء .

(٢) فى الأصل : «لاهب الغصن» بالصاد المهملة ، وهو تحريف ، والصحيح «الغَضْن» بالضاد المعجمة الساكنة ، أو المتحركة ـ مع فتح الغين ، وهو : كل تثن فى ثوب أو جلد أو درع ، والمراد : سطح الماء وتموجاته ، ولاهب : أبيض ساطع .. لكثرة الرغوة والزَّبَد .. من تحرك الموج وهياج البحر .

(٣) زعقات : جمع زَعْقَة ، وهى الصيحة ، والفعل من باب « منع » ، والذعر : الخوف .

(٤) الغيهب : بوزن جعفر : الظلمة .. كالغيهبان .

(٥) السَّلسال ـ كالسَّلْسَلِ ـ : الماء العذب ، أو البارد ، ومثلهما : السُّلاسِلُ ، والحرق ـ بالتحريك ـ : النار أو لهبها ، وأثر الاحتراق .

كَانَ حَوْلِي دَوْرَقُ النُّور فَلَمَّا سَجَى لَيْلِي افْتَقَدْتُ الدَّوْرَقَا(١)

كَانَ فِي كَأْسِى بَقَايَا صَحْوَةٍ أُهْرِقَتْ فِي التُّرْبِ فِيمَا أُهْرِقَا

يَا إِلَهِي أَظْلَمَ الْكَوْنُ فَلَمْ تَرْعَيْنَ فِي دُجَاهُ أَلَقَا(٢)

أَمَلٌ يَخْبُو وَقَلْبٌ يَرْتَمِي فَوْقَ أَشْوَاقِ الضَّنَى مُنْسَحِقَا

وَمَسَاءٌ لَيْسَ فِيهِ نَجْمُهُ وَصَبَاحٌ نَبْعُهُ مَا انْدَفَقَا(٣)

ظُلُمَاتُ الْيَأْسِ ما فِيهَا سِوَى جَمْرَةٍ فِيهَا فُؤَادِي احْتَرَقَا

أَعْشَقُ الشَّمْسَ فَيَاوَيْحَ فَتَى فِي بِلَادٍ لِلضُّحَى قَدْ عَشِقَا

سَوْفَ يَحْيَا فِي صِرَاعٍ وَالْمُنَى وَالرَّدَى عَنْ دَرْبِهِ مَا افْتَرَقَا

يَالَعَيْنِي مِنْ تَصَارِيفِ النَّوَى يَالَرُوحِي مِنْ تَبَارِيحِ الشَّقَا

كَفِّنِي يَا شَمْسُ مِنِّي هَيْكَلاً كَفِّنِيهِ هَيْكَلاً مُحْتَرِقَا

وَادْفِنِيهِ جَانِبَ النَّهْرِ فَقَدْ يَتَلَقَّى الصُّبْحُ غُصْنًا مُورِقَا

لَا يُرِيدُ الْعَيْشَ قَلْبِي وَهْوَ فِي قَيْدِهِ نَحْوَ الضِّيَا مَا انْطَلَقَا

إِيهِ يَادُنْيَا اعْبِسِي أَوْ فَابْسِمِي إِنَّ كَأْسًا بِالْأَسَى قَدْ فَهِقَا(٤)

يَا حَيَاتِي مَا الَّذِي فِيكِ يُرَى يُبْهِجُ النفْسَ وَيُغْرِي بِالْبَقَا ؟

---

(١) الدورق : الجَرَّةُ ذات العُرْوَة .

(٢) الدجى : جمع دُجْيَة ، وهى الظلمة ، والألَقُ : الالتماع ، وأصله بسكون اللام ، وحرك للضرورة .

(٣) فى الأصل : « وسمائى » وهى محرفة عن «ومساء» ولهذا صححناها لتتناسب مع « وصباح » فى الشطر الثانى .

(٤) فهق الإناء ـ كفرح ـ فهقاً ، ويحرّك : امتلأ .

سَوْفَ أَطْوِى صَفْحَةَ الْعُمْرِ فَمَا أَسْتَطِيعُ الْعَيْشَ عَبْداً مُوثَقَا

لاَ تَقُولِى كَيْفَ فَارَقْتَ الْمُنَى؟ كَيْفَ حَطَّمْتَ صِبَاكَ الرَّيِّقَا؟

أَنَا أَدْرَى مِنْكِ بِالْعُقْبَى فَلِلْأُفْقِ السَّامِى نَصَبْتُ الْمُرْتَقَى

وَدِّعُونِى يَا رِفَاقِىَ وَاذْهَبُوا وَامْضَغُوا الْأَحْلاَمَ حَتَّى الْمُلْتَقَى

سوفَ أَغْفُو يَا نَدَامَاىَ فَإِنْ طَلَعَ الْفَجْرُ فَحَيُّوا الْمَشْرِقَا

وَانْفُخُوا فِى جَدَثِى مِنْ رُوحِهِ وَاغْرِسُوا فَوْقَ ثَرَاىَ الزَّنْبَقَا[1]

الحجى والمذاهب الحديثة :

سبق أن قلنا : إن المذاهب الأدبية الحديثة لم تتبلور بعد فى أدبنا، أو بعبارة أخرى : التقت فيه ينابيعها ، فتم بذلك الالتقاء ازْدِوَاجُ تلك المذاهب ، فمن الصعب ـ والحال هذه ـ الحكمُ على هذا الشاعر أو ذاك بمذهبٍ معيَّنٍ .

غير أن بعضها كالرُّومانْتِيكِيَّة والرُّومانسِيَّة كانت أبلغ تأثيراً من الأخرى كالرمزية ، وذلك ما يظهر جليا فى شعر شاعرنا الحِجّى .. على أنه بلا منازع أعمقُهم تأمُّلاً ، وأقواهم قدرةً على التسلُّل إلى أعماق النفس البشرية ، وتلمس أحاسيسها ومشاعرها : ثم إبراز تلكم المشاعر والأحاسيس فى لوحات شعرية عميقة التعبير، بارعة التصوير.. لولا ما يعلوها من غُبَار التشاؤم والتبرُّم بالحياة وأبنائها .

ولعل ما أسلفناه عن شعره كاف لتكوين هذه الصورة، وتجليتها لحضراتكم فما الذى بقى علينا قوله ؟

---

(١) الجدث : القبر ، والزنبق ، وَرْدٌ معروف

إن سؤالاً هاماً يعترض طريقنا ونحن نحاول إنهاء الحديث ـ هو :

مَنِ الشاعر الذى تأثّر الحِجِّيُّ طريقه ؟

كلما قرأت شعر الحجى وجدتنى أفكر فى شاعرين من شعراء العصر الحديث هما : إيلْيَا أبو ماضى(١)، وأبو القاسم الشابىّ .

فهل يعنى هذا أن الشاعر قد قرأ لهذين الشاعرين وأُعْجبَ بهما ؟

هذا ما لا أَعْلمهُ .

غير أننا لو عقدنا موازنة سريعة بين الحجى وبين كل واحد منهما لظهر لنا سرُّ ذلك واضحاً جلياً ، وهذا ما سنُحَاوِل [كشفه] فيما يلى :

أولا : إيلياَ أبو ماضى :

فأما شاعر التفاؤل والتشاؤم مَعاً « إيليا أبو ماضى » فلا يجمعه مع شاعرنا سوى أشياء قليلة فى كَمِّهَا : لـكنها عظيمة الـكَيْفِ ، جليلة الشأن ، لا ينالها إلا ذو ثقافة واسعة ومَلَـكَةٍ موُغِلَةٍ فى الرُّسوخ ، وشاعريَّةٍ جاوزت المألوف لاكتشاف المجاهل .

ومن أهم تلك الأمور التى يلتقى فيها إيليا بشاعرنا :

١ ـــ الأصالةُ والعمقُ فى اللغة والتعبير والفـكرة والأسلوب .

٢ ـــ الانسياق وراء الأفـكار التأمليَّة إلى ما وراء المألوف .

وأى شىء أدل على فحولة الشاعر وأصالته وتجلِّى عبقريته : إن لم يـكن ذلك هو الدليل ؟

(١) أحد شعراء لبنان الذين هاجروا لأمريكا ، ولم ينسوا لغتهم العربية ، وبها كتبوا المنثور ، ووزنوا الشعر الغزير .

ثانياً : الحجى والشابِّى :

لقد عاش الشابِّى ٣٦ عاماً مُلِئَتْ بالحيويَّة الأدبية والنِّتاج الشعرى [على] ما كان يصارعه من آلام جسمانية .

كما عُرِف عنه فى شعره تلك النظرة التشاؤميَّةُ والتبُّرمُ بالحياة والناس ، وطلب النجاة منهم ومن شرور مخالطتهم .. باللجوء إلى الطبيعة والارتماء بين أحضانها ، لينعم بالحرية مع الطيور والأشجار ، وقُطْعَان الماشية ، وبين الصخور والكهوف ، وفى أحضان الأودية ، وعلى هامات الجبال . يصغى لِهَمَسَات الأنسام وحَنِيف الأغصان ، وخَرِيرِ الماء ، وتغريد الأطيار .

ولذا جاء شعرُه مُشْرِقَ الديباجة - كالشمس ، جميلَ الصورة - كالروض .. يُحِيط به أحياناً عَتَمَةُ الليل ، وتكاثفُ الضَّباب ، وقد تَدْفقهُ الينابيع الثَّرَّةُ سَلْسَالاً صافياً ، فما هو إلا أن تَمسَّه لَفْحَةُ سَمُومٍ خاطرةٍ تشدُّه لواقع بلاده المُسْتَعْمَرَةِ حَتَّى لا تكادَ تسمعَ إلا هَزِيمَ الرُّعُود ، وَزَمْجَرَةَ الأمواج ، ودَمْدَمَةَ العواصف .

على أنه - مع ذلك كله - قريبُ التناول ، سهل المآخذ ، تَعْتَرِيه اليَسَارَةُ[1] أحياناً كما تتخلله أخطاءٌ كثيرةٌ خاصَّةً فى القافية .

وقد اعْتُذِرَ عنه فى ذلك بأمورٍ ليس هذا مجالَ ذِكْرِها .

أما الْحِجِّى فإن المرض النفسى قد داهمه ولم يجاوز الرابعة والعشرين من عمره ، فعَطَّل فيه كلَّ قُدرة منتجة ، وأعاق تلكم العبقرية المبكِّرة والطاقة

---

(١) فى الأصل : « البساطة » مراداً بها السهولة ، ومعناها الحقيقى : الاتساع والامتداد ، - واليسارة أدق وأحد أداء للمعنى المراد .

الشاعرية الهائلة ، فحَرَمَنا بذلك من شاعرٍ لو سَلِمَ لكانت له شئون .. ولله الأمر من قبل ومن بعد ، ولا رادَّ لما قضاه وقَدَّره .

ولم يبق لنا إلا أن نرفع أكُفَّ الضراعة إليه تبارك وتعالى بأن يعيد لنا شاعرنا ، فنحن أحوج ما نكون إليه ولأمثاله .

ومن أين لنا المِثْلُ وقد اكْتَنَفَنَا عَصْرٌ وَصَفَ شِعْرَ إيليا أبى ماضى بهذا الوصف الذى نورده عنه حيث قال (١) :

«قَلَّ المجيدون وكَثُرَ المتشاعرون . سُنَّة الطبيعة أن يتوالد البعوض بالملايين وألاَّ تلد الصقور إلاَّ عدداً نزرا ، لم أجتمع بشاعريَّةٍ ضاحكةٍ فى هذه الرحلة . بل وجدتُ الشعراء مصابين بأمراض النساء النفسانية . فهم كالنساء يغرُّهم الثناء وكالنساء يميلون إلى البكاء .

أما قرائحهم فجافة كالأرض المَوات . تحتاج إلى سَمَاد كثير ، وتعب أكْثَرَ قبل أن تَخْضَرَّ و تُنْبِتَ شيئاً .

إما أنهم يَنْسَلِخُون على رُفَاتِ حضارةٍ انطوت ، وإماَّ أنهم يتسلقون على أدب غريب سيصير رُتَاناً .

وإنك لو جمعت كل شعرائنا المُحْدَثين لم يُكَوِّنُوا شاعراً عالَمِياً واحداً»

* * *

وعندما نستعرض ما فى أيدينا من نماذج شعر الحجى - على قلتها - يتضح لنا التقاؤه مع الشابى فى كثير مما ذكرنا وما لم نذكر [بعد] .

فمما اتفق فيه معه :

١ ــ صفاء الديباجة وتأجج العاطفة ، وصدق التعبير .

٢ ــ النظرة المتشائمة .. المتبرمة بالحياة والناس

(١) (أدبنا وأدباؤنا فى المهجر) لجورج صيدح الطبعة الثالثة ٩٢٠ .

٣ — الطموح ونِشْدَانُ ماهو أفضل وأكمل .

٤ — قوة الدفع ، وتلاحم الصور والمعانى ، وأَخْذُ بعضها بِحُجَز بعض .

٥ — السِّنُّ والشاعرية المُبَكِّرَةُ .

ويختلف عنه فى أشياء أكثر من ذلك .. منها :

أولا : أحيط الشابِّى بعاطفة الأمومة ، كما نَعِمَ بالرخاء واستقرار المعيشة .

أما الحجِّى فقد حُرِمَ ذلك كلَّه ، فقد توفيت أُمُّه وهو صغير ، وبقى أبوه عزَبًا حتى نفَرَ أولادُه من البيت .

وزاد الطين بِلَّةً أن كان والده عاجزاً عن أن يُؤَمِّنَ له ولبنيه الآخرين عيشة هانئة .

فانعكست آثار ذلك كله على نفسية شاعرنا وأخلاقه وطباعه وتصرفاته .. التى لو سلم منها لما أصيب بما أصيب به من أمراض نفسية .

ثانياً : أحيط الشابِّى ببيئة طَبِعِيَّة خصبة ، وبيئة اجتماعية متسامحة ، أعفته من كثير من القيود الخُلُقِيَّة والدينية .

أما الحجى فقد حُرِمَ من الأولى ، وسَلِمَ من الثانية .

ثالثاً : كان للشابِّى مركزٌ اجتماعىٌّ ، فرَضَهُ مركز أبيه .. الذى كان من علماء تُونُس وقضاتها .

أما الحجى فابن صُعْلُوكٍ لامركز له ولا مال .

رابعاً : وإذا كانت اليَسَارَةُ والخطأ ـ خاصَّةً فى القافية ـ قد تخالَ شِعرَ الشابِّى منها ماتخلله فإنّ شعر الحجى قد كتبت له السلامة من ذلك كله .

خامساً : أن الحجى عندما بَرِمَ بالحياة والناس لم يلجأ إلى الهرب ونِشْدَانِ السعادة فى مَعْزِلٍ عن النـــاس ، وإنما تمنى لو قَدَرُوا على فهمه ، واستطاعوا معاشرته ، ولما لم يكن فى مقدورهم ذلك فقد اكتفى بالتحسر عليهم ، والتضجر من معاملتهم وسوء تصرفهم معه ، فتعاظمت الوَحْشَةُ فى نفســه ، حتى أقفرت فأحسَّ بالغُرْبَةِ وهو فى أهله ، و[بين] ذويه .

سادساً : وكما وجد الشابِّى من الظروف البيئية والاجتماعية مساعداً له على تحقيق مأربه ، فلقد وجد أيضاً فى الأوساط الأدبية من المُعْجَبِينَ به مَنْ يُرَدِّدُ ذكره ، ويُشِيدُ بعبقريته وشاعريته الفَذَّة ، فكتب فيه وفى شعره الكاتبون . وتغنَّى بِهِ المُنْشِدون ، فكان لذلك كلِّه أبعد الأثر فى الدفع به إلى الأمام ، كما أنه قد جمع ديوانه ، وأعَدَّهُ للطبع .. قبل وفاته .

أما الحجى فلم يكن له من ذلك نصيب ، بل أدْهَى مِن ذلك وأَمرُّ أنه وجد مَنْ يحسدُه وينفَسُ عليه ، ويستخف به وبنبوغه ، ويتهمه بالْهَلْوَسَة وَالْوَسْوَسَة والجنون .. الأمرُ الذى ضاعف العبء عليه ، وزاد فى إرهاقه ، وقوَّى ساعد قَلَقِهِ ، فازدادت الكثافةُ فى اسوِدَادِ مِنْظاره ، فكانت حصيلةُ ذلك كله دَفْعَهُ بسرعة إلى ذلك المصير السحيق .. الذى آل إليه أمره .

أيها السادة :

إن الحديث عن شاعِرَىِ الشباب ـ الحجى والشابِّى ـ كلما طال كلما كان ألذ وأحلى ، ولكنه يكون أطيب وأجلى لو سمعنا نصَّيْن [لهما] .. مما يظهر فيه التشابه أو التباين بينهما .

فمن قصيدة للشابِّى بعنوان :

مناجاة عصفور (١)

يا أَيُّهَا الشَّادِي الْمُغَرِّدُ هَا هُنَا ثَمِلاً بِغِبْطَةِ قَلْبِهِ الْمَسْرُورِ
مُتَنَقِّلاً بَيْنَ الْخَمَائِلِ تَالِياً وَحْيَ الرَّبِيعِ السَّاحِرِ الْمَسْحُورِ
غَرِّدْ فَفِي تِلْكَ السُّهُولِ زَنَابِقٌ تَرْنُو إِلَيْكَ بِنَاظِرٍ مَنْظُورِ
غَرِّدْ فَفِي قَلْبِي إِلَيْكَ مَوَدَّةٌ لَكِنْ مَوَدَّةُ طَائِرٍ مَأْسُورِ
هَجَرَتْهُ أَسْرَابُ الْحَمَائِمِ وَانْبَرَتْ
لِعَذَابِهِ جِنِّيَّةُ الدَّيْجُورِ (١)
غَرِّدْ وَلاَ تَرْهَبْ يَمِينٌ .. إِنَّنِي مِثْلُ الطُّيُورِ بِمُهْجَتِي وَضَمِيرِي
لَكِنْ لَقَدْ هَاضَ التُّرَابُ مَلاَمِحِي
فَلَبِثْتُ مِثْلَ الْبُلْبُلِ الْمَأْسُورِ (٢)
أَشْدُو بِرَنَّاتِ النِّيَاحَةِ وَالأَسَى مَشْبُوبَةً بِعَوَاطِفِي وَشُعُورِي

* * *

غَرِّدْ . وَلاَ تَحْفِلْ بِقَلْبِي .. إِنَّهُ كَالْمِعْزَفِ الْمُتَحَطِّمِ الْمَهْجُورِ
رَتِّلْ عَلَى سَمْعِ الرَّبِيعِ نَشِيدَهُ
وَاصْدَحْ بِفَيْضِ فُؤَادِكَ الْمَسْجُورِ (٣)

---

(١) أغاني الحياة الطبعة الأولى (ص ٥٥)

(١) الديجور : الظلام الحالك ، وجنيته : الشيطانة التي تخرج فيه .. وهذا الكلام على العقائد العامة التي تقول بأن الجن يخرجون ليلا ليخيفوا الناس .

(٢) هاض : كسر وحطم ، ولبثت : أقمت و بقيت .

(٣) المسجور : الملتهب المضطرم بالنار .

وَانْشُدْ أَنَاشِيدَ الْجَمَالِ فَإِنَّهَا رُوحُ الْوُجُودِ وَسَلْوَةُ الْمَقْهُورِ (١)

* * *

أَنَا طَائِرٌ مُتَغَرِّدٌ مُتَرَنِّمٌ لَكِنْ بِصَوْتِ كَآبَتِي وَزَفِيرِي
يَهْتَاجُنِي صَوْتُ الطُّيُورِ لِأَنَّهُ مُتَدَفِّقٌ بِحَرَارَةٍ وَطُهُورِ
مَا فِي وُجُودِ النَّاسِ مِنْ شَيْءٍ بِهِ يَرْضَى فُؤَادِي أَوْ يُسَرُّ ضَمِيرِي
فَإِذَا اسْتَمَعْتُ حَدِيثَهُمْ أَلْفَيْتُهُ غَثًّا يَفِيضُ بِرِكَّةٍ وَفُتُورِ
وَإِذَا حَضَرْتُ جُمُوعَهُمْ أَلْفَيْتُنِي مَا بَيْنَهُمْ كَالْبُلْبُلِ الْمَأْسُورِ (٢)
مُتَوَحِّداً بِعَوَاطِفِي وَمَشَاعِرِي وَخَوَاطِرِي وَكَآبَتِي وَسُرُورِي
يَنْتَابُنِي حَرَجُ الْحَيَاةِ كَأَنَّنِي مِنْهُمْ بِوَهْدَةِ جَنْدَلٍ وَصُخُورِ
فَإِذَا سَكَتُّ تَضَجَّرُوا وَإِذَا نَطَقْ
تُ تَذَمَّرُوا مِنْ فِكْرَتِي وَشُعُورِي
آهٍ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ بَلَوْتُهُمْ فَقَلَوْتُهُمْ فِي وَحْشَتِي وَحُبُورِي
مَا مِنْهُمْ إِلَّا خَبِيثٌ غَادِرٌ مُتَرَبِّصٌ بِالنَّاسِ شَرَّ مَصِيرِ (٣)

---

(١) انْشُدْ : فعل أمر ـ من نَشَدَ الضَّالَّةَ ـ إذا طلبها ، ويجوز أن تُضْبط بكسر الشين ـ من أنشد الضالة ـ إذا عرَّفها أو استرشد عنها ـ وتكون الهمزة قد سُهِّلَتْ للضرورة .

(٢) إعادة كلمة «المأسور» فى القافية بعد الأبيات الثمانية المتقدمة جائز قافية

(٣) هذا ترديد لما قاله الشعراء من قبل ، ولما أثبتته الحوادث ـ ومن ذلك قول الشاعر أبى فِراسٍ الحَمْدَانىِّ :

وقد صار هذا الناس إلا أقلهم ذئاباً على أجسادهن كلاب

وقول الآخر :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطير

وَيَوَدُّ لَوْ مَلَكَ الْوُجُودَ بِأَسْرِهِ   وَرَمَى الْوَرَى فِي جَاحِمٍ مَسْجُورِ (١)

لِيَبُلَّ غُلَّتَهُ الَّتِي لاَ تَرْتَوِي   وَيَكُدَّ نَهْمَةَ قَلْبِهِ الْمَفْغُورِ (٢)

وَإِذَا دَخَلْتُ إِلَى الْبِلاَدِ فَإِنَّ أَفْـ

كَارِي تُرَفْرِفُ فِي سُفُوحِ « الطُّورِ »

حَيْثُ الطَّبِيعَةُ حُلْوَةٌ فَتَّانَةٌ   تَخْتَالُ بَيْنَ تَبَرُّجٍ وَسُفُورِ

مَاذَا أَوَدُّ مِنَ الْمَدِينَةِ وَهْيَ غَا   رِقَةٌ بِمَوَّارِ الدَّمِ الْمَهْدُورِ ؟ (٣)

مَاذَا أَوَدُّ مِنَ الْمَدِينَةِ وَهْيَ لاَ   تَرْثِي لِصَوْتِ تَفَجُّعِ الْمَوْتُورِ ؟

مَاذَا أَوَدُّ مِنَ الْمَدِينَةِ وَهْيَ لاَ   تَعْنُو لِغَيْرِ الظَّالِمِ الشِّرِّيرِ ؟

مَاذَا أَوَدُّ مِنَ الْمَدِينَةِ وَهْيَ مُرْ   تَادٌ لِكُلِّ دَعَارَةٍ وَفُجُورِ ؟

* * *

يَاأَيُّهَا الشَّادِي الْمُغَرِّدُ هَاهُنَا   ثَمِلاً بِغِبْطَةِ قَلْبِهِ الْمَسْرُورِ

قَبِّلْ أَزَاهِيرَ الرَّبِيعِ وَغَنِّهَا   رَنَمَ الصَّبَاحِ الضَّاحِكِ الْمَحْبُورِ (٤)

---

(١) الجاحم: المكان الشديد الحر، ومثله الجحيم، وتكرار كلمة « مسجور » قانونى.. لأنه بعد ١١ بيتاً.

(٢) الغلة ـ كالغليل ـ : شدة العطش، والنهمة ـ كالنَّهَم ـ : شدة الرغبة، والمفغور: المفتوح، وفى الأصل: «المغفور» بتقديم الغين على الفاء وهو تحريف.

(٣) الموّار: المضطرب المتموج، والمهدور، اسم مفعول من « هَدَرَهُ يَهْدُرُهُ» بمعنى: أبطله وألغاه، والفعل لازم ومتعد.

(٤) الرَّنَمُ ـ بالتحريك ـ : الصوت، والمحبور: المسرور.

وَاشْرَبْ مِنَ النَّبْعِ الْجَمِيــــلِ الْمُلْتَوِى
مَا بَيْنَ دَوْحِ صَـــنَوْبَرٍ وَغَدِيرِ
وَاتْرُكْ دُمُوعَ الْفَجْـــرِ فِى أَوْرَاقِهَا
حَـتَّى تَرَشَّفَهـــــا عَرُوسُ النُّورِ (١)
فَلَرُبَّمَا كَانَتْ أَنِيناً صَـاعِداً فِى اللَّيْلِ مِنْ مُتَوَجِّعٍ مَقْهُورِ
ذَرَفَتْهُ أَجْفَانُ الصَّبَاحِ مَدَامِعاً أَلاَّقَةً فِى دَوْحَـةٍ وَزُهُورِ

* * *

وهذه قصيدة للشاعر الحجى تبلغ أبياتُهـا (٧٠) بَيْتاً (حَسَبَ ماذُكِرَ فى صحيفة « اليمامة » . العدد ١٦٥ لعـام ١٣٧٨ هـ)...

أما ماذكره (ا) الأستاذ عبد الله ابن إدريس [منها] فهو ٣٣ بَيْتاً ، وقد أثبتُّها هنا كاملة ، كما أثبتُّ أيضاً ما عَثَرْتُ عليه من قُصَاصات .. [فيها] قصائد أخرى سقطت منها بعض الأبيات.. فى كتاب « شعراء نجد المعاصرون » .

أما هذه القصيدة التى نحن بصددها الآن فإنها أطول ماعثرتُ عليه من شعره والجميل منها أنك تقرؤها حتى آخرها فلا تحسُّ بها كلمة قَلِقَةً أو قافيةً مضطربةً فـكلُّ كلمة ـ قافيةً كانت أوغيرَ قافية ـ قد استقرت فى مكانها هادئة مطمئنة . شأنُها فى ذلك شأنُ جميع شعره .. قِصَارُهُ وطِوَالُهُ فى ذلك سواء .

---

(١) ترشفها : فعل مضـارع ـ أصله : تترشفها ، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً ، والثلاثى من أبواب « نصر وضرب وسمع » ؛ ومعناه : تنـاول المـاء بالشفتين ، وعروس النور : الشمس.

(ا) لم يتركها ابن إدريس جهلاً بها وإنما اختار منها .

لقد وضع الشاعر لهذه القصيدة عنوانًا عامًا ، ثم قسمها إلى ستة أقسام .. جعل لكل قسم [منها] عنوانًا خاصًا، وعنوانها « من أعماق نفسى » .

وهو العنوان الذى اختاره الشاعر لمطولته .

والحق أنك تحس مع كل بيت أنه خرج من أعماق نفس الشاعر .. ليستقر فى أعماق نفسك ، فجميعها من الأعماق إلى الأعماق .

« خلف المنظار الأسود »

هذا هو عنوان المقطع الأول من قصيدة الأعماق [وقد] بدأه بمطلع حشد فيه كل معنى للجمال متجلِّيًا فى المنظر الخَلَّاب . غير أن النفس المتشائمة تأبى على الشاعر أن ينعَمَ بذلكم المنظر ، فتَعرِضُ أمامه لَوْحَةَ المصير المظلم الرهيب ، ليرى الجمال وقد طُوِىَ فى أكفانه .. بعدما شمله البِلَى .

وإن فرَّحَتْهُ الحيـاة بزورة الأحباب . دفعت تلـكم النفسُ الشقيَّةُ أمامه صورةَ الفِراق الطويل .

وإن جمعه مع الأخِلَّاءِ مجلس طاب فيه الحديث والسَّهَر .. صَرَفَتْهُ عن طيب الحديث ، وأنسَتْهُ فُنُونَ الشباب ، وصبَّت فى أذُنِهِ أصوات تحطيم الأكواب ، وأرَتْه النَّدَامَى وقد عصفت بهم كف المَنُون فصاروا حُطَامًا فى حُزْمَةِ حاطب ، ثم تركَتْه من بينهم باكيًا ، يخاله الصِّحابُ يبكى سرورًا ، وأين إليه السرور؟!

والشاعر [دائمًا] يحس بهول ذلك ويَعْجَبُ منه ، ولـكنَّ هذا هو واقعه .. يصحب الحياة فى عناء [ويتجمل] للشقاء المرير متصابيا .

فلنسمع معه هذا المقطع :

[خلف المنظار الأسود] :

إنْ نَظَرْتُ الْجَمَالَ غَضًّا طَرِيًّا يَتَجَلَّى فِي الْمَنْظَرِ الْخَلَّابِ
لاَحَ لِي أَسْوَدُ الْمَصِيرِ ـ كَمُسْوَدِّ اللَّيَالِي ـ مُكَشِّرَ الأَنْيَابِ
فَرَأَيْتُ الْجَمَالَ يُطْوَى بِأَكْفَا نٍ وَيَبْلَى مُمَزَّقَ الأَسْلاَبِ

* * *

وَإِذَا مَا الْحَيَاةُ قَلْبِيَ يَوْمًا فَرَّحَتْهُ بِزَوْرَةِ الأَحْبَابِ
أَيْقَنَتْ نَفْسِيَ الْفِرَاقَ طَوِيلاً وَرَأَيْتُ الْوِصَالَ مِثْلَ السَّرَابِ

* * *

وَإِذَا مَا الْكُئُوسُ صُفَّتْ أَمَامِي يَتَرَاقَصْنَ مِنْ مُصَفَّى الشَّرَابِ
وَاحْتَسَاهَا قَوْمٌ وَغَنَّى الْمُغَنِّي بِلُحُونٍ تُطِيحُ بِالأَلْبَابِ
صِرْتُ وَحْدِي الْبَاكِي يَظُنُّ بِأَنَّ الدَّمْعَ دَمْعُ السُّرُورِ لاَ الأَوْصَابِ
وَاجْتَنَبْتُ الطِّلاَ وَلَمْ أَسْمَعِ اللَّحْ نَ وَلَمْ أَدْرِ عَنْ فُتُونِ الشَّبَابِ(١)
وَتَنَاهَى لِمِسْمَعِي صَوْتُ كَفٍّ عَصَفَتْ بِالشَّرَابِ وَالأَكْوَابِ
وَمَحَتْ آيَةَ السُّرُورِ وَأَبْقَتْ حَزَنًا ـ حَلَّ ـ أَسْوَدَ الْجِلْبَابِ
وَتَرَاءَى لِيَ النَّدَامَى وَقَدْ صَا رُوا حُطَامًا فِي حُزْمَةِ الْحَطَّابِ

* * *

هَكَذَا كُنْتُ فِي حَيَاتِي عُجَابًا يَا لَقَلْبِي مِنْ هَوْلِ هَذَا الْعُجَابِ

---

(١) الطلا : ـ بكسر أوله ـ : الخمر .

أَلْحَظُ الْقَاتِمَ الْمَرِيرَ مِنَ الْعَيْـ ـشِ وَأَبْكِي عَلَى الضِّيَاءِ الْخَابِي[1]

وَإِذَا لاَحَ لِي الْبَهَاءُ وَضِيئًا

قُلْتُ: يَادَهْرُ لَيْسَ ذَا مِنْ حِسَابِي

وَإِذَا أُعْجِبَ الْأَنَامُ بِشَيْءٍ بِتُّ مِنْهُ فِي مَوْقِفِ الْمُرْتَابِ

هَـكَذَا أَصْحَبُ الْحَيَاةَ .. فُؤَادِي

فِي عَنَاءٍ وَلِلشَّقَا .. ذُو تَصَابِي

لاَ أَرَى الْبَرْقَ فِي السَّحَابِ ضَحُوكًا

وَبِأُذْنِي بُكَاءُ رَعْدِ السَّحَابِ

أَتْرُكُ الزَّهْرَ فِي الرَّوَابِي وَأَرْنُو نَحْوَ جَاثِي الصُّخُورِ تَحْتَ الرَّوَابِي

إِنْ تَغَنَّتْ حَمَائِمٌ مِلْتُ عَنْهَا .. ثُمَّ أَرْهَفْتُ مِسْمَعِي لِلْغُرَابِ

لاَ أَرَى حُمْرَةَ الْوُرُودِ وَيُدْمِي شَوْكُهَا أَنْمُلِي كَبَعْضِ الْحِرَابِ[2]

لاَ أَرَى فِي الْهِضَابِ إِلاَّ وُحُوشًا أَيْنَ مِنِّي مَا يَزْدَهِي فِي الْهِضَابِ؟

٢ — طموح وعذاب :

ويبلغ الإجهادُ بالشاعر مَبْلَغَه فيزيح لك الستار عن نفسه فى هذا المقطع الذى لن تُعَلِّقَ عليه إلا بأنه صورة صادقةٌ لنفسه ، جَلَّى فيها خبايا زواياها .

---

(١) القاتم : الأسود المعتم ، وفى الأصل : «القائم» بالهمزة وهو تحريف صححته ـ بالتاء ، حتى يتناسب مع « الضياء » .

(٢) قدمنا مايفيد أن «الورود» ليست عربية لأن « الورد » اسم جنس جمعى يفرق بينه وبين واحده بالتاء ، ولكن الكتاب والشعراء يستعملون الأخطاء .. دون رجوع لمصادر اللغة ، وليته قال : « الزهور » بدل «الورود» .

فاسمعوا مايقوله فيه :

وَاشْتِيَاقِي عَلَى الدَّوَامِ لِكُلِّ خَفِيٍّ مُجَنَّحٍ مُنْسَاب
فَإِذا مَا اسْتَبَانَ وَجْهٌ لِأَمْرٍ
رُحْتُ أَرْنُو نَحْوَ الْمَعَانِي الْغِرَابِ(١)

لَوْ تَرَانِي وَقَدْ طَحَا بِي فِكْرِي وَأَطَارَتْ مِنِّي الشُّؤُونُ صَوَابِي
لَتَوَهَّمْتَنِي بَرِيئًا مِنَ اللُّبِّ ضَعِيفًا مُحَطَّمَ الْأَعْصَابِ
ثُمَّ لَمْ تَدْرِ أَنَّنِي فِي سَمَاء الْـ فِكْرِ أَحْيَا كَعَابِدٍ أَوَّابِ
هَكَذَا عِيشَتِي .. رَحِيلٌ مَعَ الْفِكْـ
رِ بَعِيدٌ أَوْ نَظْرَةٌ فِي كِتَابِ
أَوْ بَقَاءٌ مَعَ الشَّقَاءِ أُنَادِيـهِ بِأَزْهَى الْأَسْمَاءِ وَالْأَلْقَابِ
وَإِذَا مَا سَأَلْتَنِي : لِمَ هَذَا ؟ فَسُكُوتِي عَنِ الْجَوَابِ جَوَابِي
لَسْتُ أَدْرِي لِمَ الدُّنَا حَمَّلَتْنِي
مَا أَرَى الْغَيْرَ مِنْهُ خِلْوَ الْوِطَابِ ؟
أَلِأَنِّي [قَدْ] نِلْتُ بَعْضَ نَعِيمٍ تُلِيَتْ كَأْسُهُ بِأَقْدَاحِ صَابِ ؟
أَمْ لِأَنِّي أُسَرِّحُ الْفِكْرَ فِي الْكَوْ
نِ وَفِي الْخَلْقِ فِي ذُرَا مِحْرَابِي ؟
أَمْ لِأَنَّ الدَّهْرَ الْغَدُورَ قَدِ اجْتَاحَ بُرُوجًا شَيَّدْتُهَا عَنْ رِغَابِي ؟
أَمْ لِأَنَّ الْجَمَالَ يُصْمِي فُؤَادِي بِسِهَامِ الْعُيُونِ وَالْأَهْدَابِ ؟

---

(١) الغراب ـ بكسر الغين ـ جمع «غريب» كـكرام .. جمع «كريم».

أَمْ لِأَنَّ الْحَبِيبَ قَدْ فَرَّ عَنِّى … أَمْ لِأَنِّى مِنْ جُمْلَةِ الْعُزَّاب ؟

أَمْ لِأَنِّى أَرَى الْأَنَامَ بِأَجْسَا … مٍ تَوَارَتْ فِيهَا نُفُوسُ الذِّئَاب؟[1]

بَيْنَ نَذْلٍ وَخَائِنٍ وَعَدُوٍّ … وَحَسُودٍ وصَاحِبٍ ذِى كِذَابِ[2]

لَسْتُ أَدْرِى سِرَّ التَّعَاسَةِ إِلاَّ … أَنَّنِى تُهْتُ فِى دُجَى سِرْدَابِى

رَبِّ تَاهَتْ سَفِينَتِي فى ثَنَايَا الْ … يَمِّ فَارْتَعْتُ مِنْ رُؤَى الْأَكْرَابِ[3]

يَا إِلٰهِى إِلَيْكَ أَشْكُو انْقِبَاضِى … وَاعْتِزَالِى وَخَلْوَتِى وَانْتِحَابِى

تَقْرَعُ الْحَادِثَاتُ بَابِى وَلَمْ أُبْصِرْ … سُرُورًا ـ يَوْماً ـ يَمُرُّ بِبَابِى

٣ — الناس والحزين :

وفى هذا المقطع الثالث يزيدُ الشاعر صورة نفسه وضوحاً .. إلا أن أجدر ما فيه بالملاحظة ـ وكله جدير بها ـ : هذا التساؤلُ الذى يُحَمِّلُ النَّاسَ فيه مسئوليةَ ما حلَّ به ، لأنهم لم يَرْفُقُوا به حين أَمْسَى فى عَنَاء ، وأَمْسَى الدهرُ خِدْنَ انقلابه .. كأنما تلقَّوْا من الدهر عهوداً أنه لن يصيبهم ما أصابه :

(١) فى الأصل «أرانى» وهو خطأ ـ لعله من الكتابة ، وهذا المعنى مأخوذ من البيت الذى قدمناه فى التعليق على صفحة (٨٤) ، وهو قول أبى فراس الحمدانى :

وقد صار هذا الناس إلا قلهم … ذئاباً على أجسادهن ثياب

(٢) الكذاب : الكذب .

(٣) الأكراب : الكروب والهموم .

مَالَقِيتُ الْأَنَامَ إِلَّا رَأَوْا مِنِّى ابْتِسَاماً وَلَيْسَ يَدْرُونَ مَا بِى ؟

أُظْهِرُ الإِنْشِرَاحَ لِلنَّاسِ حَتَّى يَتَمَنَّوْنَ أَنَّهُمْ فِى ثِيَابِى

لَوْ دَرَوْا أَنَّنِى شَقِىٌّ حَزِينٌ ضَاقَ فِى عَيْنِهِ فَسِيحُ الرِّحَابِ

لَتَنَاءَوْا عَنِّى وَلَمْ يَنْظُرُونِى ثُمَّ زَادُوا نُفُورَهُمْ بِاغْتِيَابِى

فَكَأَنِّى آتِى بِأَعْظَمِ جُرْمٍ لَوْ تَبَدَّتْ تَعَاسَتِى لِلصِّحَابِ

هَكَذَا النَّاسُ يَطْلُبُونَ الْمَنَايَا لِلَّذِى بَيْنَهُمْ جَلِيلُ الْمُصَابِ

لِمَ لَمْ يَرْفُقُوا بِى حِينَ أُمْسِى فِى عَنَاءٍ وَالدَّهْرُ خِدْنُ انْقِلَابِ ؟

هَلْ تَلَقَّوْا مِنَ الزَّمَانِ عُهُوداً

أَنَّهُمْ مِنْ صُرُوفِهِ فِى اجْتِنَابِ ؟

أَمْ تَعَامَوْا عَنِ الْحَقِيقَةِ حَتَّى جَهِلُوا أَنَّ عَوْدَهُمْ لِلتُّرَابِ

سَيَئُوبُونَ لِلتُّرَابِ كَمَا قَدْ خُلِقُوا مِنْهُ بِئْسَ ذَا مِنْ مَآبِ [1]

٤ — أمانى :

وفى هذا المقطع ـ وهو الرابع ـ تتجلى أسمى صور الإنسانية فى نُكْرَانِ الشاعر لذاته ، وتمنيه لو استطاع إذابتها على دروب الإنسانية.. لتسعدَ ، فيسعدُ هو بذلك ، ولكن هل يمكنه ذلك ؟ :

كَمْ تَمَنَّيْتُ أَنَّنِى بَسْمَةٌ فِى خَاطِرِ الْبَائِسِ الْقَنُوطِ الْكَابِى

---

(٤) فى مثل هذا المعنى جاء قول الشاعر العباسى :

خلقت من التراب فصرت حياً وعُلِّمْتَ الفصيحَ من الخطاب

وعدت إلى التراب فصرت فيه كأنك ماخرجت من التراب

أَوْ مَنَامٌ يَمْحُو سُهَادَ الأَيَامَى   وَالْيَتَامَى وَالْمُبْتَلَى بِاكْتِئَابِ (١)

أَوْ ضِيَاءٌ أُنِيرُ لِلشَّعْبِ سُـــبْلَ الْـ

خَـــيْرِ يَدْعُو إِلَى ارْتِـكَابِ الصِّعَابِ

لِبِنَاءِ الْأَمْجَادِ تَسْمُو وَتُودِي   بِالْخُرَافَاتِ وَالْأَذَى وَالْعَابِ (٢)

لِدُخُولِ الْحَيَاةِ مِنْ بَابِهَا الْفِضْـ   ـفِيِّ نَحْوَ الآمَالِ وَالآرَابِ (٣)

لِانْقِضَاضِ الْحَقِّ الصَّرِيحِ عَلَى الْبَا

طِلِ يَهْوِى مِثْلَ انْقِضَـــاضِ الشِّهَابِ

كَيْ نَرَى الشَّعْبَ بَيْنَ غَازٍ دَؤُوبٍ

أَوْ مُغَـــنٍّى بِالْفِـكْرِ وَالآدَابِ

لَيْتَ.. لَـكِنْ: لَيْتَ لَمْ تَبْقَ إِلاَّ   نَغَمًا ظَلَّ وَاهِيَ الْأَسْبَابِ

* * *

٥ ــ لــو !!:

ماالذى سيفعلهُ . . لو استطاع ؟ :

لَوْ مَلَـكْتُ الْقُوَى لَرُحْتُ بَعِيداً   وَتَسَامَيْتُ فِى الشُّعَاعِ الْمُذَابِ

أَوْ تَوَجَّهْتُ نَحْوَ خَالِقِيَ الأَعْـ   ـظَمِ أَوْذُبْتُ فِى كَثِيفِ الضَّبَابِ

(١) السهاد : الأرق وعدم النوم ، والأيامى جمع « أَيِّمْ » وهى التى لم تتزوج .

(٢) تودى : تذهب وتهلك ، والعاب : العيب ، ومثله : الذامُ .. كالذَّمِّ .

(٣) الآراب ـ بالراء ـ : جمع أَرَب ، وهو الحاجة ، وفى الأصل « الآداب » وهو تحريف .

أَوْ غَدَوْتُ الْحَقْلَ الْجَمِيلَ تَبَدَّى   دَافِقَ النُّورِ نَاضِرَ الْأَعْشَابِ
أَوْ صَحِبْتُ النَّجْمَ اللَّمُوعَ جَلَتْهُ   ظُلْمَةُ اللَّيْلِ سَاطِعاً فِي اضْطِرَابِ [1]
لَوْ مَلَكْتُ الْقُوَى لَحَقَّقْتُ آمَا   لِي .. لَأَزْجَيْتُ نَحْوَهُنَّ رِكَابِي [2]

٦ — إنابة :

ولما كان الشاعر قد مَلَّ تَجْوَالَهُ في تلك المتاهات الفكرية.. التي راعه ما لقي فيها من عذاب ، فإنه ـ وهو في طريقه إلى مداواة جروحه بالأَوْبَةِ والرُّجُوع ـ يضرع إلى الباري .. جلّت عظمتُه .. أَنْ يَتُوبَ عليه ، ويساعدَه ، فبدونه ـ تبارك وتعالى ـ لن يستطيع الإياب :

رَبِّ آمَنْتُ بِالْحَقِيقَةِ فَاجْنُبْـ   ـنِي مَتَاهَاتِ أَوْبَتِي لِلْعَذَابِ
رَبِّ إِنِّي أَدْرَكْتُ حَقَّكَ فَلْتُشْـ   ـرِقْ بِنَفْسِي نُوراً يُضِيءُ جَنَابِي
هَأَنَا قَدْ مَلِلْتُ تَجْوَالَ عَقْلِي   فِي سَحِيقِ الْأَجْوَا وَلُجِّ الْعُبَابِ [3]
أَنَا يَارَبِّ إِنْ أُدَارِي جِرَاحِي   مِنْ صُنُوفِ الْآلَامِ وَالْأَلْقَابِ [4]
فَاهْدِنِي لِلصَّوَابِ إِنِّي مُنِيبٌ   ذُو تَسَامٍ إِلَى الْهُدَى وَالصَّوَابِ

أغـراض شعر الحجي :

إن ما في أيدينا من شعر شاعرنا حمد الحجي قليل ـ كما أسلفنا ـ ولا يمكن

---

(١) اللموع : وزن قياسي من صيغ المبالغة ، ولكن لم أعثر على استعماله في كتب اللغة أو الأدب ، ويبدو أنه استعمال حديث !! .

(٢) أزجى ـ كزجّى وزجّى ـ : ساق ودفع ولعلها كانت : «وأزجيت» .

(٣) الأسلوب الصحيح : « هأنذا » . ولكن الشاعر تحلل من هذه القاعدة ، والعباب : البحر .

الحكم به على شعر هذا الشاعر الفَحْلِ الذى كان يقول الشعر وكأنما [كان] يُمْلَى عليه إملاءً ـ كما ذكرنا سابقاً .

حُدِّثتُ أنه كان يستصحب معه دفتراً يسجل فيه كل ماينْظِمُ ، غير أنه ـ شفاه الله ـ لم يُمَكِّن منه أحداً ، بل الأدْهَى من ذلك ، أنه كان قليل الارتياح لإنشاد الناس شعرَه على مَسْمَعٍ منه .

حَدَّثنى بعضُ الإخوان أنه بعد مرضه وانقطاعه عن الدراسة كان يمر بالطلاب فى المساجد والحدائق ـ حيث يذاكرون ـ فإذا مااستقر به المجلس معهم أنشدوا شيئاً من شعرِه ، فيطأطِئُ رأسه ، ثم تظلِّلُهُ غَمامةُ اكتئاب وصمت رهيب ، يَنْسَلُّ بعدها من مجلسهم ، ويولِّى مُطْرِقَ الرأس ، مضطرب الحركات .

فما سر ذلكم التصرف الغريب ؟ ؟

لست أدرى .. إلا أن يكون ذلك جزءاً من بَرَمِهِ بالحياة والناس ، وسوءِ ظنه بهم ، والاستخفافِ بتصرفاتهم ، أو الامتعاض منها .

وربما كان ذلك نتيجة الشعور بمرارة الهزيمة أمام ذلك المَرَض .. الذى أقعده عن مُوَاكبة ركب أولئك الطلاب ، وربما كان غير ذلك كله ، والله سبحانه [هو] العليم بذلك .

لِنَتْرُكْ مالا سبيل إلى علمه ولنعلِّقْ بشىء من الحديث عن أغراض شعر شاعرنا هذا فنقول :

إن أغراضاً أربعةً ـ هى : التأمل ، والوطنية ، والوصف ، والغزل ـ ، تكاد تسيطر على مافى أيدينا من شعر هذا الشاعر .

١ ـــ فأما التأملُ ، فغرض تخلل جميع قصائده ، لاتكاد تمر بواحدة منها

حتى تلمحه يَلُوحُ فى ثناياها ـ وإن تَجلَّى فى بعضها دون البعض الآخر ـ وقد عرضنا فيما مرَّ إحدى مُطوَّلاته التى يتجلَّى فيها ذلك تمـام التجلى ، وهى قصيدة « من أعماق نفسى » .

٢ — [وأما] الشعر الوطنى : فيبرز عندما يعرض [الشاعر] للحديث عن المشاريع والمُنجَّزَات : كافتتاح مطابـع الرياض ، وافتتاح الجـامعة ، أو عندما يتذكر بلادَه وهو عنها ناءٍ .

وقد سبق أن أوردنا تلك القصائد قريباً .

٣ — [وأما] الوصف[1] : فإنك حينما تقرأ قصيدتيه « ذكرى لبنان » و « يابدر » تتجلَّى لك قدرة الشاعر فى وصف ماعَرَضَ لوصفه ، سواء منه ما كان مُدْرَكاً بالحِسِّ وما كان مُدْرَكاً بالعقل .. فأما الأولى فقد سبقت أيضاً[2] ، وأما الثانية [فهى] التى نظمها فى مناسبة زيارة الأستاذ أحمد زكى لمدينة الرياض عام ١٣٧٧هـ ، وأهداها إليه ، وهاهى [ذى] :

« يابدر »

يَابَدْرُ إِنَّكَ فِي الظَّلَامِ سَمِيرِى   مَالِي سِوَاكَ مُنَاغِمٌ لِشُعُورِى

أَرْنُو إِلَيْكَ وَمِلْءُ نَفْسِي وَحْشَةٌ   فَأَعُودُ مَوْسُومَ الْمُنَى بِالنُّورِ

أَجِلْ بِضَوْئِكَ يُخْفِقُ الإِظْلَامَ فِي

حَلَكَاتِ يَأْسِى إِنْ دَجَا دَيْجُورِى

---

(١) انظر قصيدة وصف الربيع التى ستأتى .

(٢) راجع صفحة ٧٧ .

أَهْوَاكَ إِنْ هَبطَتْ ذُكَاءُ فَإِنْ تَغِبْ
أَمْسَى هَوَايَ لِكَوْكَبٍ مَسْحُورِ
يَهْتَزُّ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ كَأَنَّمَا .. مَرْآهُ مَرْأَى رَاعِشٍ مَغْرُورِ
عَيْنِي تُنَاجِي الْقَلبَ أَنَّكَ مَرْتَعِ الْ
أَمْلَاكِ بَيْنَ مَزَاهِـــرٍ وَدُهُورِ
هَلْ فِيكَ نَبْعٌ ضَاحِكٌ مُتَرَقْرِقٌ يَنْسَابُ بَيْنَ جَدَاوِلٍ وَصُخُورِ؟
هَلْ فِيكَ جَنَّاتٌ تَغَنَّى طَيْرُهَا وَتَمَوَّجَتْ بِنَسَائِمٍ وَعُطُورِ؟
وَالْحُبُّ قُلْ لِي: مَا الَّذِي تَدْرِيهِ مِنْ
أَمْرِ الْهَوَى إِنْ كُنْتَ جِدَّ خَبِيرِ؟
أَلَدَيْكَ «قَيْسٌ» مَاتَ مِنْ شَوْقٍ إِلَى
«لَيْلَى» وَلَمْ يَكُ وَصْلُهَا بِيَسِيرِ؟
هَامَتْ بِكَ الشُّعَرَاءُ قِدْماً حِينَمَا وَجَدُوا لَدَيْكَ عُلَالَةَ الْمَوْتُورِ
وَرَأَوْكَ نَهْراً مِنْ لُجَيْنٍ خَالِصٍ شَاقَتْ حَوَاشِيهِ بِكُلِّ نَمِيرِ
رَوَّى الْعَوَالِمَ مُنْذُ كَانَ بِفَائِضٍ مِنْ عَسْجَدٍ يَجْتَازُ كُلَّ أَثِيرِ

* * *

يَا بَدْرُ هَلْ بِكَ مِثْلُ مَا بِالأَرْضِ مِنْ
نَتْنٍ يُشَبُّ كَمَوْقِدٍ مَسْجُورِ(١)
إِنْ أَقْبَلَ الصَّارُوخُ نَحْوَكَ فَاتِحاً فَادْفَعْ أَذَاهُ بِنَفْخَةٍ فِي الصُّورِ

---

(١) النَّتْن : الرائحة الكريهة .

أَوْ جَاءَ إِنْسَانٌ إِلَيْكَ فَرُدَّهُ   نَحْوَ التُّرَابِ بِخَيْبَةِ الْمَقْهُورِ

هُمْ أَفْسَدُوا هَذَا الثَّرى وَتَطَايَرُوا   لَكَ كَيْ تَمُورَ بِفِتْنَةٍ وَشُرُورِ

نَظَرُوا إِلَيْكَ فَشَمَّرُوا عَنْ عَزْمَةٍ   عُرِفَتْ بِسُوءِ الْقَصْدِ فِى التَّدْبِيرِ

مَا عِنْدَهُمْ إِلاَّ الأَذَى وَمَكَائِدٌ   لاَ يَسْتَقِلُّ بِعَدِّهَا تَعْبِيرِى

فَاكْبَحْ جِمَاحَهُمُ فَإِنَّهُمُ أَبَوْا   إِلاَّ الْفَسَادَ بِسَائِرِ الْمَعْمُورِ

وَاسْحَقْ وَكُنْ كَالشَّمْسِ فِى عَلْيَائِهَا
وَاصْمُتْ وَلاَ تَبْعَثْ لَهُمْ بِسَفِيرِ

* * *

يَا بَدْرُ إِنِّى فِى الْحَيَاةِ مُعَذَّبٌ   أَحْيَا عَلَى هَذَا الثَّرَى كَأَسِيرِ

مَنْ لِى بِمُنْطَادٍ يُجَنِّحُ بِى عَلَى   هَذِى الْجِوَاءِ بِمَيْشِىَ الْمَيْسُورِ

لاَ أَلْتَقِى بِالْحَىِّ فِى أَرْجَائِهَا   أَبَداً وَلاَ أُسِىءُ لِلْمَقْبُورِ

إِنِّى سَئِمْتُ مِنَ الأَنَامِ وَمَكْرِهِمْ
وَرَأَيْتُ رُوحِى فِى حَشَا تَنُّورِ

إِيهِ طُيُورَ النَّحْسِ فِى أَرْضِى قِفِى   فَإِذَا شَخَصْتُ إِلَى السَّمَاءِ فَطِيرِى

* * *

يَا سَوْرَةَ الأَشْوَاقِ رِفْقاً بِى فَقَدْ   صَيَّرْتِنِى فِى هَيْئَةِ الْمَنْحُورِ (١)

خَلَّيْتِنِى أَمْشِى وَحِيداً يَائِساً   قِيثَارُ عُمْرِى شَهْقَتِى وَزَفِيرِى (٢)

(١) السورة : الحدة ، ومثلها « السُّوَارُ » .

(٢) فى الأصل : « قلبتنى » وهو تحريف .

مَنْ لِي بِإِخْرَاجِي مِنَ السِّجْنِ الَّذِي
مَافِيـهِ إِلاَّ الصَّمْتُ . صَمْتُ قُبُورِ ؟

قَدْ حَاطَنِي سُورُ الظَّلاَمِ بِرُعْبِهِ هَيَّا افْتَحِي ثُقْباً بِهَذَا السُّورِ

قَسْراً مَلِلْتُ جَحِيمَ حَبِّي بَاكِياً مَايَصْنَعُ الإِنْسَانُ بِالْمَقْدُورِ ؟

أَمَلِي هَوَى كَالْجَمْرِ فِي لُجَجِ الرَّدَى
أَكَذَا نِهَايَةُ دَرْبِ كُلِّ صَبُورِ ؟ !

رَبَّاهُ لاَ تَجْعَلْ مَصِـيرَ أَحِبَّتِي أَنْ تُلْحِقَ الأَذَى بِهِمْ كَمَصِيرِي

* * *

يَابَدْرُ قَاسِمْنِي الْمَرَارَةَ وَالأَسَى فَلَقَدْ تَكُونُ مِنَ الأَنَامِ نَصِيرِي

فِي مَسْبَحِ الأَفْلاَكِ جِرْمُكَ سَابِحٌ يَبْدُو صَغِيراً وَهُوَ جِدُّ كَبِيرِ

وَكَذَاكَ فِي قَلْبِي الْجِـرَاحُ تَضَاءَلَتْ
لِلنَّاسِ وَهِيَ عَمِيـقَةٌ بِضَـمِيرِي

إِنِّي لأُعْذِرُ إِنْ سَكَتَّ وَلَمْ تُجِبْ
مَادُمْتَ فِي هَـذَا الظَّلاَمِ سَمِـيرِي

* * *

على أن شاعرنا قد أغفل وصف المخترعات الحديثة ـ كالبرق والسيارة والطائرة والذَّرَّة وما إلى ذلك ـ مما تَعِـجُّ به الحياة الجديدة فى هذا العصر .

وكل نصيبه من ذلك إشارةٌ عابرة إلى « الـكَهْرَبَاءِ وَالرَّادْيُو » وغزو الفضاء .

ولعله كان فى شُغْلٍ شاغل عن ذلك بما هو فيه من صِرَاع نفسىٍّ مرير ..

صرفه عن مثل تلكم الميادين التى جال فيها شعراء العصر كبيرُهم وصغيرهم .

فالشيخ محمدُ عبدِ المطلب ومعروفٌ الرُّصافى وأحمدشوقى وكثيرٌ [سواهم] طرقوا هذا المجال .

غير أن الاستقرار الذهنى الذى نَعِمَ به أَمثالُ هؤلاء ، والذى يُعْتَبَرُ ضرورةً لطَرْقِ مثل هـذا الموضوع قد حُرِمَ منه الحجى ، فلعلَّ هذا هو عِلَّةُ ذاك ، وما العلم إلا لله .

٤ — الغزل : وله فى ذلك قصائدُ ثلاثٌ تنطق بالعواطف الصادقة المتأججة والحُبِّ المُوغِلِ فى أعماق نفس الشاعر ، إلا أنه حُبٌّ تُكَدِّرُه مرارةٌ عميقة ويظلِّلُهُ اكتئاب مظلمُ ، ويكتنفه الخوف المُرْبِكُ ، والتشاؤم الموحش ـ شأْنُه فى جميع شعره ـ إلا أنه فيه أعطى حبيبه كُلَّ ما مَلَكَتْه عاطفته ، وما استطاع [أن] يتناوله خياله الخصبُ الجَمُّ العطاء .

فمن ذلك قصيدته .

« فتنــــة »

أَيَا فِتْنَةَ الْعَاشِــقِ الْمُسْتَهَامِ أَتَرْضَيْنَ لِي سَيِّئَ الْمُنْقَلَبْ ؟

أَظُنُّكِ لَسْتِ مِنَ الْإِنْسِ بَلْ مَلَاكٌ يَسِيرُ يَشُقُّ الْحُجُبْ

وَإِنْ كُنْتِ حُورِيَّةً فِي الْجِنَانِ فَكَيْفَ أَتَيْتِ . وَمِمَّ الْهَرَبْ ؟

* * *

تَذَكَّرْتُ خَدَّيْكِ عِنْدَ الْوُرُودِ فَهَاجَ الْفُؤَادُ أَسًى وَاضْطَرَبْ

وَمَالَ بِبُسْتَانِنَا الْغُصْنُ غَضًّا فَوَافَى بِقَدِّكِ لَمَّا انْقَلَبْ

وَهَبَّ النَّسِــيمُ بِعِطْرِ الزُّهُورِ فَجَــاءَ بِرَيَّاكِ لِي حِينَ هَبْ

وَمَا نَفْحَةٌ مِنْ شَذَاكِ الْحَبِيبِ كَنَفْحِ الزُّهُورِ وَعِطْرِ الْعُلَبْ

* * *

سَأَحْفَظُ حُبَّكِ فِى مُهْجَتِى وَأُودِعُهُ صَفَحَاتِ الْكُتُبْ

لِيَقْرَأَهُ النَّاسُ وَالْمُغْرَمُونَ فَيَدْرُونَ مَاذَا يُلاَقِى الْمُحِبْ ؟

* * *

على أنَّ مما يلفت النظر فى مطالع شاعرنا :

١ ـــ اطِّرَاحه للنسيب فى جميع شعره [على] رغم وَلُوعِ شعراء العربية القُدَامَى ، والكثيرِ من المتأخرين بذلك .

٢ـــ وأخذَه بالغرض الذى قصده من أول بيت إلا أنه [مع ذلك] يبقى محافظاً على وحدة القصيدة وتماسك البناء العُضْوِىِّ فيها [على] رغم طغيان (مُودَاتِ) التجديد فى هذا الموضوع لدى أبناء عصره ـ فى جميع أقطار العربية حتى [فى] هذه البلاد التى يجب أن يترفع أبناؤها عن مثل هذا العبث [والعَيْثِ والفساد الكبير] .

[وإليك بعض قصائده الجيدة .. فى أغراض متعددة]

صدى يوم الجزائر :

وقد قَدَّمَ لهذه القصيدة بقوله :

هَذَا الْيَوْمُ الذى ظهرت فيه النَّجْدَةُ العربية والأُخُوَّةُ العريقة والكرم الأصيل .. من العرب والمسلمين نحو الجزائريين المكافحين .. هذَا اليَوْمُ خالد .. إنه غرة فى جبين هذا العام(١) .

---

(١) عن صحيفة اليمامة عام ١٣٧٧ هـ ، الموافق ١٠/٩/١٣٧٧ عدد ١١٦

(١ – يوم الجزائر[١])

أَمْسَيْتُ أَرْتَقِبُ الصَّبَاحَ طَوِيلاَ وَرَأَيْتُ لُبْثِي فِي المَسِيرِ ثَقِيلاَ

حَتَّى بَدَا الْفَجْرُ الضَّحُوكُ فَأَبْصَرَتْ

عَيْنَايَ صُبْحًا بَاسِمًا وَجَمِيلاَ

يَوْمُ الْجَزَائِرِ قَدْ أَطَلَّ كَأَنَّهُ عِيدٌ يُصَافِحُهُ الْوَرَى تَقْبِيلاَ

يَوْمٌ بِهِ أَهْلُ الْمَكَارِمِ وَالنُّهَى

بَذَلُوا النَّفِيسَ : مَعَ الدَّقِيقِ جَلِيلاَ

يَوْمٌ لِهَيْبَتِهِ رَأَيْتُ عَجَائِباً كِيسُ الْبَخِيلِ بِهِ غَدَا مَحْلُولاَ

الْمُصْلِحُونَ تَرَقَّبُوهُ فَكَبَّرُوا لَمَّا رَأَوْهُ وَهَلَّلُوا تَهْلِيلاَ

* * *

يَا مُنْفِقِينَ بِغَيْرِ مَنٍّ مِنْكُمُو قَدْ كَانَ هَذَا مِنْكُمُ الْمَأْمُولاَ

جُدْتُمْ بِخَيْرِ الْمَالِ مِنْ أَيْدِيكُمُو وَرَأَيْتُمُ الْبَذْلَ الْكَثِيرَ قَلِيلاَ

هَـذِي عَطَايَاكُمْ جِزَالٌ قَدْ بَدَتْ

لِلْمُجْتَلِي وَالْمَنُّ لَيْسَ جَزِيلاَ

لاَ خَيْرَ فِي الْمَالِ الْوَفِيرِ يَحُوزُهُ مَنْ لاَ تَرَاهُ بَاذِلاً وَمُنِيلاَ[٢]

---

(١) المراد به : يوم جمع التبرعات للثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسى .

(٢) كلمة « الوفير » : من الأخطاء الشائعة ، والصحيح « الوافر ، والوَفْرُ والموفور » ولكن الأخطاء شائعة دون فحص أو محص ، ولو قال الكثير أو الغزير لأصاب .

–

جَاهَدْتُمُو فَالْجُـودُ سَيْفُ جِهَادِكُمْ
فَـكَأَنَّهُ السَّيْفُ الْجُـرَازُ صَـقِيلاَ(١)

وَنَصَرْتُمُو إِخْوَانَـكُمْ وَرَجَـوْتُمُو
أَنْ تَنْتَضُوا سَيْفَ الْوَغَى مَسْـلُولاَ

حَـتَّى تَرَوْا أَرْضَ « الْجَزَائِرِ » حُرَّةً
وَتُشَاهِدُوا جَيْشَ الْعِـدَا مَفْـلُولاَ(٢)

* * *

عَجَبًا !! فَرَنْسَا قَدْ تَدَجَّى لَيْلُهَا فَمَضَتْ تُـكَبِّلُ غَيْرَهَا تَـكْبِيلاَ

كَمْ مِنْ بَرِىءٍ فِى « الْجَزَائِرِ » هَادِىءٍ
أَخَـذُوهُ فِى أَصْفَادِهِمْ مَغْـلُولاَ

كَمْ شَيْخِ قَوْمٍ طَاعِنٍ فِى سِنِّهِ طَعَنُوهُ حَتَّى جَنْدَلُوهُ قَتِيلاَ(٣)

كَمْ مِنْ فَتَاةٍ قَدْ أَبَاحُوا عِرْضَهَا مَا مِنْهُمُو أَحَدٌ بِذَاكَ حَفِيلاَ(٤)

كَمْ أَخْرَجُوا مِنْ رَاتِـعٍ فِى نِعْمَةٍ
فَرَآهُمُو شَرًّا عَلَيْهِ وَبِيـلاَ

كَمْ مِنْ مَـكَانٍ آهِلٍ مُسْتَوْطَنٍ جَاءُوا فَأَخْلَوْا رَبْعَهُ الْمَأْهُولاَ

(١) فى الأصل : « الجزار » وهو تحريف أصلحناه ، و « الجراز » القاطع .

(٢) فى الأصل : « مرة » وهو تحريف « حرة » والمفلول ـ بالفاء ـ : المكسور ، ويجوز « مغلولا » ـ بالغين ـ بمعنى : « مقيداً فى الأغلال » .

(٣) جندل : فعل شائع ، ولكن صوابه : « جدّل » .

(٤) حفيل : مهتم ومبالغ فى الاهتمام .

مُذْ حَلَّ جَيْشُ الظُّلْمِ فِي أَوْطَانِهِمْ
مَا اسْتَنْشَقُوا فِيهَا صَباً وَقَبُولاَ(١)

إِلَّا صَبَا الْحُرِّيَّةِ الْحَمْرَا فَقَدْ هَبَّتْ عَلَيْهِمْ بُكْرَةً وَأَصِيلاَ(٢)

* * *

إِنْ كُنْتِ لَيْلاً يَا « فَرَنْسَا » حَالِكاً
فَبَنُو « الْجَزَائِرِ » أَشْعَلُوا الْقِنْدِيلاَ

أَوْ كُنْتِ ذِئْباً ضَارِياً فَأَرَاهُمُو أُسْدًا حَمَتْ آجَامَهَا وَالْغِيلاَ

الثَّوْرَةُ الْحَمْرَاءُ مِنْ أَبْنَائِهَا
شَبَّتْ فَكُنْتِ وَقُودَهَا الْمَأْكُولاَ

* * *

إِنَّ « الْجَزَائِرَ » مِنْ مَوَاطِنِ يَعْرُبٍ
وَلَوَ اسْتَحَمَّ نِضَالُهُ مَوْصُولاَ

مَا لِلْفَرَنْسِيِّينَ فِى جَنْبٍ لَهُ سَكَنٌ وَإِنْ طَلَبُوا لَدَيْهِ مَقِيلاَ

---

(١) فى الأصل «أوطانه» وهو خطأ صوبناه، والصَّبَا : ريح طيبة تحمل الشذا العبق، والأرج الفواح، وتهب من الثريا إلى « بنات نعش »، ونجدٌ من ميادينها الفسيحة، والقبول : هى ريح الصبا، وسميت بذلك لأنها تقابل «الدَّبُور» أو لمقابلتها باب الكعبة، أو لأن النفس تقبلها، وذكرها بعد «الصبا» : تفسير أو توكيد.

(٢) الحرية الحمراء : التى تُنتزَعُ بالدم، وتسيل فيها النفوس، قال الشاعر:

وللحرية الحمراء باب عليه كل آونة يُدق

يَا ابْنَ « الْجَزَائِرِ » قِفْ لِأَرْضِكَ وَاحْمِهَا
حَتَّى تُطَهِّرَ عَرْضَهَا وَالطُّولاَ

وَخُذِ الْقَنَابِلَ وَالسِّلَاحَ اضْرِبْ بِهِ
مَنْ فِي حِمَاكَ مُزَاحِمًا [و] دَخِيلاَ

وَإِذَا ظَفِرْتَ بِهِ وَأَنْتَ غَضَنْفَرٌ
فاصْبُبْ عَلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ سُيُولاَ

قَدْ سِرْتَ فِي تَحْرِيرِ أَرْضِكَ مُسْرِعًا
فَقَطَعْتَهَا بَعْدَ الْحُزُونِ سُهُولَا[1]

وَدِمَاءُ أَعْدَاءِ الْعُرُوبَةِ قَدْ غَدَا ... مِنْهَا سِلَاحُكَ نَاهِلاً مَعْلُولَا

سِرْ فِي أَمَانِ اللهِ وَاحْثُثِ الْخُطَا ... وَادْفَعْ أَمَامَ الْغَاصِبِينَ الْغُولَا[2]

لَا تَسْأَمَنَّ مِنَ الْجِهَادِ وَطُولِهِ ... أَوَلَيْسَ سَعْيُكَ لِلْجَلِيلِ جَلِيلَا؟

إِنَّ الْبِلَادَ بِأَهْلِهَا فَبِعَزْمِهِمْ ... يُبْنَى لَهَا الْمَجْدُ الرَّفِيعُ أَثِيلَا[3]

* * *

يَامَعْشَرَ الْعَرَبِ الْكِرَامِ تَحِيَّةً ... « أُورَاسُ » تَبْعَثُهَا لَكُمْ تَأْهِيلَا[4]

وَتَقُولُ : إِنَّ الرِّيحَ تَعْبَقُ بِالشَّذَا ... جَاءَتْ إِلَيْكُمْ بِالثَّنَاءِ رَسُولاً

شَارَكْتُمُونِي فِى الْكِفَاحِ فَكُنْتُمُو
خِلاً صَدُوقًا قَدْ أَغَاثَ خَلِيلاَ

---

(١) فى الأصل : « فقطفتها » وهو تحريف .

(٢) الغُولُ ـ بضم الغين ـ : الهلكة والداهية .

(٣) أوراس : سلسلة جبال فى شمال إفريقية ، تمر بالجزائر .

لِلّهِ دَرُّكُمُو رِجَالَ مُلِمَّةٍ .. مَا كَانَ خَطْبِي عِنْدَكُمْ مَجْهُولاَ

كَذَبَ الْفَرَنْسِي إِذْ يَقُولُ بِأَنَّهُ
قَدْ بَاتَ لِلْكَرَمِ الْأَصِيلِ سَلِيلاَ

كَذَبَ الطُّغَاةُ إِذِ ادَّعَوْا شَرَفاً لَهُمْ
مَا كُلُّ قَوْلٍ مِنْهُمُو مَقْبُولاَ

شَرَفُ الطُّغَاةِ لَوَ انَّهُ مُتَجَسِّمٌ لَبَدَا ضَئِيلاً فِي الْوُجُودِ نَحِيلاَ

مَا عَاشَ مَنْ سَفَكَ الدِّمَاءَ وَدَائِماً
خَابَ الَّذِي ظَلَمَ الْأَنَامَ فَتِيلاَ

وَرَعَى الْإِلَهُ مِنَ الْأَمَاجِدِ فِتْيَةً صَاغُوا الْكَمَالَ لِهَامِهِمْ إِكْلِيلاَ

يَسْعَوْنَ فِي طَرَفِ الْفَخَارِ بِهِمَّةٍ وَثَّابَةٍ لاَ يَعْرِفُونَ قُفُولاَ (١)

٢ ـ ليلة مع الآمال(ا)

اللَّيْلُ بِالْإِظْلاَمِ مُعْتَكِرُ وَالْكَوْنُ فِي الدَّيْجُورِ مُنْذَعِرُ

قَدْ نَامَتِ الْأَحْيَاءُ فِيهِ كَأَنْ قَدْ رَاعَهَا كَالشَّرِّ يَنْتَشِرُ

وَبَقِيتُ بَعْدُ مُرَتِّلاً سُوَراً يَاحَبَّذَا التَّرْتِيلُ وَالسُّوَرُ

أَبْكِي بِجَوْفِ اللَّيْلِ لِي أَمَلاً يَهْوِي كَمَا تَهْوِي بِهِ الزُّهُرُ (٢)

---

(١) القفول : الرجوع والهزيمة والارتداد .

(ا) عن صحيفة اليمامة بتاريخ ١٣٧٧/٧/٢٧ العدد (١١٠)

(٢) الزهر : ـ جمع زهراء ـ : النجوم ، وهويها: تساقطها .

أَيْ : أَدْمُعِي . مَاأَنْتِ رَاحِضَةٌ قَدْ عَزَّ بَعْدَ الْمَوْرِدِ الصَّــدَرُ (١)

أَوَّاهُ . . خَــرَّ الْعِقْدُ مُنْفَرِطًا وَالْجِيــدُ مِنْهُ ازْدَانُ وَالنَّحَرُ (٢)

* * *

آمَالَ نَفْسِي صِرْتُ مُنْقَبِضــاً آمَالَ نَفْسِي مَسَّنِي الضَّجَــرُ

آمَالَ نَفْسِي الْيَوْمَ لِي أَمَــلٌ فِي أَنْ يَزُولَ الْهَمُّ وَالسَّهَرُ

قَدْ رَنَّقَتْ صَفْوِى الْحَيَاةُ فَمَنْ يَرْضَى بِعَيْشٍ كُلُّهُ كَدَرُ ؟ (٣)

تَتَطَــايَرُ الآلاَمُ فِي أُفُــقِي كَالنَّارِ طَارَ يَشُبُّهَــا الشَّرَرُ

يَاأَيُّهَــــا الآمَالُ قَدْ فَهِقَتْ كَأْسِي وَفِيهَا الْحُزْنُ وَالْفِــكَرُ

أَوَ تَذْهَبِينَ وَلَسْتِ رَاجِعَــــةً مِثْلَ الزُّجَاجَةِ حِينَ تَنْــكَسِرُ ؟

* * *

أَنَا نَبْعَةٌ مَا كَانَ أَنْضَرَهَا وَالْمَاءُ عَنْهَا الْيَوْمَ مُنْحَسِرُ (٤)

---

(١) الراحضة : الغاسلة . رَحَضَهُ ـ كأرحضه ـ : إذا غسله ،وفى الأصل: واخصة ـ بالخاء المعجمة والصاد المهملة ـ وهو تحريف .

(٢) النحر ـ بالتحريك ـ للضرورة ، أو بالتسكين مع الزحاف ، وفى الأصل كانت «النر» بدون حاء .

(٣) فى الأصل : «رفقت» بالفاء ، وصححت فى الصورة الأصلية «كدرت» وواضح أنها محرفة عن « رنقت » بمعنى « كدرت » ، و« الرَّنْقُ » من الماء «الصافى» و «الـكَدِر» ـ ضد .

(٤) فى الأصل : « أنظرها » بالظاء بدل « الضاد » والحرفان يتعاوران الأماكن فى عامية البلاد العربية كلها .

قَدْ كَانَ لِلأَطْيَارِ شَقْشَقَةٌ فِيهَا كَمَا يَتَرَنَّمُ الْوَتَرُ (١)
بَاتَتْ لَهَا الأَرْوَاحُ قَاصِمَةً تَتَسَاقَطُ الأَوْرَاقُ وَالثَّمَرُ (٢)
لاَ غَرْوَ أَنْ ذَبُلَتْ غَضَارَتُهَا فَلَقَدْ ذَوَى زَهْرُ الرُّبَا الْعَطِرُ

* * *

وَبَدَا الصَّبَاحُ بِنُورِهِ فَعَدَا عَنْهُ الظَّلاَمُ وَكَانَ يُحْتَضَرُ (٣)
وَسَرَى الضِّيَا فِي الْكَوْنِ مُنْبَثِقاً فَإِذَا الْحَيَاةُ جَمِيعُهَا صُوَرُ
وَدَفَنْتُ آمَالِي بِمَقْبَرَةٍ لَكِنَّهَا فِي الْقَلْبِ تُحْتَفَرُ (٤)
وَرَأَيْتُ أَفْوَاجَ الأَنَامِ مَشَوْا كُلٌّ لَهُ فِي صَحْبِهِ وَطَرُ
فَنَسِيتُهَا وَمَشَيْتُ مُنْدَفِعاً لَكِنَّنِي لِلَّيْلِ مُنْتَظِرُ

٣ ـ إلى باعث الشكوى (١)

أَيَا بَاعِثَ الشَّكْوَى . . بِنَفْسِي أَلَمْ يَحِنْ
لِقَاهُ لِكَيْلاَ تَسْتَبِدَّ بِيَ الشَّكْوَى ؟
بَكَيْتُ وَلَوْ أَنِّي عَلَى الصَّبْرِ قَادِرٌ
كَتَمْتُ وَلَكِنِّي عَلَى الصَّبْرِ لاَ أَقْوَى

---

(١) الشقشقة : الأصوات المبهمة ، وفى الأصل « كما تمرتم » وهو تحريف
(٢) الأرواح : الرياح ، وقاصمة : كاسرة فاصلة .
(٣) يحتضر ـ بالبناء المجهول ـ : يموت ... بمعنى : يذهب ويزول .
(٤) فى الأصل : « تُحْتَضَرُ » بدل « تحتفر » ، وهى تحريف .
(١) هذه القصيدة مناولة من بعض الإخوان .

لَقَدْ ذُقْتُ مِنْكَ الْحُبَّ مُـرًّا مَذَاقُهُ
وَإِنِّى لَأَرْجُو أَنْ تُصَـيِّرَهُ حُـلْواً

أَلَسْتُ إِذَا مَا عَنَّ أَمْرٌ لِخَاطِرِى
أَتَيْتُ الَّذِى تَهْوَى وَجَانَبْتُ مَا أَهْوَى

فَإِنْ كُنْتُ لِلذَّنْبِ الْجَلِيلِ مُقَارِفًا
فَآمُلُ مِنْكَ الْيَوْمَ عَمَّا مَضَى عَفْوَا

فَلَوْ أَنَّ جُسْمَانَا تَقَطَّعَ بِالْجَوَى لَمَا أَبْقَتِ الْأَشْوَاقُ مِنِّى وَلَا عُضْوَا

وَكَمْ قُلْتُ لِلْقَلْبِ : اسْلُ عَمَّنْ تَوَدُّهُ
فَإِنَّ كَبِيرَ النَّفْسِ أَخْلَقُ بِالسَّلْوَى

وَلَـكِنَّ قَلْبِى كَانَ لِلشَّوْقِ طَيِّعًا
فَلَمْ يَلْتَفِتْ لِى بَلْ أَطَاحَتْ بِهِ الْأَهْوَا

* * *

سَكَنَّا . بِقَرْوَى . وَالْحَبِيبُ جِوَارَنَا
فَلِلَّهِ مَغْنًى قَدْ سَكَنَّاهُ فِى « قَرْوَى » (١)

شَرِبْنَا بِهِ كَأْسَ الصَّبَابَةِ وَالْهَوَى
وَحَمَّلَنِى ـ يَاوَيْحَهُ ـ أَعْظَمَ الْبَلْوَى

وَكُنْتُ أَظُنُّ الْوَجْدَ شَيْئًا مُيَسَّرًا
فَأَمْسَى بِرُوحِى عَاصِفُ الْوَجْدِ قَدْ أَلْوَى

(١) حى بالطائف [و « جوارَنا ـ بفتح الراء ـ على نزع الخافض ـ أى : فى جوارنا] .

٤ ـ بين النشوة و العذاب [(١)]

كَمْ لَيَالٍ مِنْ حُسْنِهَا بَعَثَتْ فِي الـــرُّوحِ رَوْحاً مَعِينُهُ لاَ يَنْضُبْ [(١)]
كُنْتُ مِنْ فَرْحَتِي أَظُنُّ دُجَى اللَّيْـ ـلِ نَهَاراً وَأَحْسَبُ الكَأْسَ أَشْنَبَ
وَلَيَالٍ بالشَّوْقِ قَدْ أَحْرَقَتْنِي فَعَـــلَى حَرِّ جَمْرِهَا أَتَقَلَّبْ
طَوَّقَتْنِي الأَحْـدَاثُ مِنْهَا فَبَاتَتْ
لَيْسَ مِنْهَا مَنْجًى سِوَى قَوْلُ : يَارَبْ
لَيْتَ دَهْرِي رَبَّى الفُؤَادَ عَلَى الحِلْـ ـمِ فَلاَ يَنْتَشِي وَلاَ يَتَعَذَّبْ

* * *

لم يكد الإعلان عن المحاضرة الأخيرة التى قدمتها تحت عنوان : « الحجى حياته وشعره » يُنْشر حتى وصلنى خبر عثور أحد الإخوان على قصيدة له تحت عنوان« ياعيد » ، ثم عثرت أيضاً على قصيدة أخرى بعنوان : «مفاتن الربيع» ثم على قصيدة ثالثة تحت عنوان«الْحُسْنُ فى الطائف »

وكانت النفس تَنْزِعُ للحديث عن أثر المَعَرِّى [(١)] فى قصائد الحجى ـ غير [أنى رأيتُ] أن هذا الموضوع يستدعى دراسة تحليلية عميقة لنفسية كل من الشاعرين ، ولما لم أكن على استعداد لذلك فى هذا الوقت لِتَطَلُّبه تفرغاً كاملا ، وتكيفاً ذِهْنِيًّا خاصاً ـ فقد آثرتُ أن أكتب هذه العُجالَةَ . . إذ بدونها يبقى الحديث عن هذا الفحل «الحجى» مبتوراً .

---

(١) «شعراء نجد المعاصرون » الطبعة الأولى :

(١) رَوْحًا : راحة ورحمة ، والمعين : النبع ، ولا ينضب : لا يجف .

(١) هو أبو العلاء : أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرى التنوخىّ الشاعر العربى الفيلسوف . المولود سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٣م ، والمتوفى سنة ٤٤٩هـ /١٠٥٧م .

١ — الحجى وأبو العلاء المعرّى :

لقد كان الحجى ـ عافاه الله ـ كثير القراءة لأشعار المعرّى ، كثير الإعجاب بآرائه ، عظيم التعلق بحكمه وأمثاله ، .. لا يَملّ من ترديدها والتمثل بها ، كما كان يرى أن المعايير المَعرّيّة ـ فى تقييم الحياة والناس ـ : أصْدَقُ المعايير وأَمْثَلُها ويرى أنه فى ذلك قدوة .

ومما يدل على ذلك قوله :

لِأَبِى العَلَاءِ مَعَـــايِيرٌ مُوَفَّقَةٌ
فِى النَّاسِ مَوْسُومَة بِالْعَدْلِ وَالرَّشَدِ

وقوله :

مَعَرِّيَّةُ الْأَعْرَافِ يَنْدَى أَدِيمُهَـا
بِأَذْفَرَ تُزْرِى ـ إِذْ تَضَوَّعُ ـ بِالْعِطْرِ[1]
وَتُفْضِى إِذَا مَا اسْتُنْبِئَتْ فِى مَسِيرِهَا
لِأَعْمَاقِ أَعْمَاقِ التَّـأَمُّلِ وَالْفِـكْرِ

* * *

والمتأمل فيما بين أيدينا من قصائد الحجى يُحِسُّ بها أثر المَعرّى واضحاً حيناً .. إلا أنه يأتى حيناً فى صورة مُقْتَضَبَةٍ ، يقل قُطْرُها عن شطر بيت ولكنها ـ من حيث المعنى ـ أكبر وأوسع من أن تُحَدَّ .

وقد تكون الصورة أكبر قُطْراً ، وأَوْضَحَ معالم ، وأجلَّ قسماتٍ من سابقتها عند الحجى ، ولكنها تبقى على أى حال أضيق منها عند المَعرّى .

---

(١) الأعراف : جمع عَرْف ، وهو الرائحة ، وينْدى : يرطب ، والأديم : الجلد ، والأذفر : المسك . وتضوع : أصلها : تتضوع ـ بمعنى : تنتشر وتتفرق .

على أن ذلك قد يُعزَى إلى قلة مافى أيدينا من شعر الحجى .

ولعـل فى عرْضِنا ـ ولو لصورتين من صور تأثر الحجى بأبى العلاء ـ ما يوضح عُمْقَ ذلـكم التأثر وتَغَلْغُلَهُ فى أعماق نفس شاعرنا الحجى .. حـتى شاركه فى أخص خصائصه التى عُرِفَ بها وعُرِفَتْ به ، حتى أمست كأنها وَقْفٌ عليه .

١ ـ إن ارتفـاع نسبة حرمة الإنسان لدى المعرِّىِّ بلغت إلى حـد حرمة الأرض التى اختلط بترابها جسمه بعد البِلَى .

وإنه ليوضح لنا ذلك فى قوله من قصيدة يرْثى بها عالمًا فقيهاً :

صَاحِ هَذِى قُبُورُنَا تَمـلأُ الرَّحْـ
بَ فأَيْنَ القُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ؟[1]

خَفِّفِ الْوَطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الْـ ... أَرْضِ إِلاَّ مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ
وَقَبِيحٌ بِنـَا وَإِنْ قَدُمَ الْعَهْـ ... دُ هَوَانُ الآبَاءِ وَالْأَجْـدَادِ

سِرْ إِنْ اسْطَعْتَ فِى الْهَوَاءِ رُوَيْداً
لاَ اخْتِيَالاً عَلَى رُفَاتِ العِبَـادِ

رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْداً مِرَاراً ... ضَاحِكٍ مِنْ تَزَاحُمِ الأَضْدَادِ

* * *

غير أن نسبة هذه الحرمة ترتفـع عند الحجى إلى حد أنه يعتبر سيره على الأرض إساءة إلى الموتى ، فيتمنى العيش فى آفاق بعيدة عن الأرض يتخلص فيها

---

(١) صاح : مرخمُ صاحب ، على غـير القواعد ، والرَّحْبُ : المكان المتسع ، ومثله الرَّحِيبُ والرُّحَابُ ، أما الرُّحْبُ والرَّحَابة فمصـدران لرَحُبَ ـ ككرم وسمع ـ .. بمعنى : اتسع .

من سوء معاشرة الأحياء ، ومن جريمة المشى على رفات الموتى :

لَا أَلْتَقِي بِالْحَيِّ فِي أَرْجَائِهَا أَبَداً وَلَا أَسِيءُ لِلْمَقْبُورِ

ب — وهذه صورة أخرى :

لقد نفض المعرِّيُّ يدَهُ من الدنيا وأهلها بعد أن بَلَاهُمْ واختبرهم فلم تترك له طباعُهم فى صحبتهم غرضاً ، وفى ذلك يقول :

وَقَدْ غَرِضْتُ مِنَ الدُّنْيَا فَهَلْ زَمَنِي

مُعْطٍ حَيَاتِي لِغِرٍّ بَعْدُ مَا غَرِضَا (٢)

جَرَّبْتُ دَهْرِي وأَهْلِيهِ فَمَا تَرَكَتْ

لِيَ التَّجَارِبُ فِي وُدِّ امْرِئٍ غَرَضَا

أما الحجى فإنه لا يكتفى بإعلان اليأس من إمكان مصاحبة الناس ـ بعدما خَبَرَهُم ـ ولكنه يقسمهم حسب طباعهم الخبيثة .. إلى نذل ، وخائن ، وحسود وعدو ، وكذاب .

استمع إلى قوله :

أَمْ لِأَنِّي أَرَى الأَنَامَ بِأَجْسَا مٍ تَوَارَى فِيهَا نُفُوسُ الذِّئَابِ

بَيْنَ نَذْلٍ وخائِنٍ وَعَدوٍّ وَحَسُودٍ وَصَاحِبٍ ذِي كِذَابِ

على أن الفرق شاسع بين كُرْهِ واحتقار المعرِّيِّ .. للحياة والناس ، وبين كُرْه واحتقار الحجى لذلك .

فالمعرى يطلب البعد عن الناس [على] رغم طلبهم القرب منه ، ويرفض الحياة [على] رغم عدم تضييقها الخناق عليه .

(٢) غَرِضْتُ : ضجرت ومَلِلْتُ ، والغِرُّ : الأبله المفتون .

أما الحجى فانه على استعداد لتقبل الحياة إذا ما انقادت له ،وحلّتْ وَثاق فاقتها من عنقه ، كما أنه على استعداد لمعايشة الناس إذا ما قبلوا معايشته ومعاشرته ، . . ولكنهم نفروا منه ، فكان ما كان .

ثم إن نظرة أبى العلاء المعرى إلى الحياة على أنها سجن يتمنى الخلاص منه : نظرةٌ مبنيَّة عَلَى أساس فلسفى خاص .

أما الحجى ف[على] الرغم من إكثاره من ذلك وإتيانه فيه بما يذيب المُهَج ويعصر القلوب ـــ وذلك يرجع فى اعتقادى إلى تبخر آماله ، واحتراق أمانيه . وقيام العقبات فى الطريق المنشود ـ نراه إذا أجهده اليأس ، وأوهنه القنوط يجأر بالشكوى ، ويئن من الآلام ـــ فى مثل قوله[1] : ـــ

يَابَدرُ إِنّى فِى الحَيَاةِ مُعَذَّبٌ أَحْيَا عَلَى هَذَا الثَّرَى كَأَسِير
مَنْ لِى بِمُنْطَادٍ يُجَنِّحُ بى عَلَى هَذِى الجِوَاءِ بِعَيْشِىَ الْيسُورِ؟
لاَ أَلْتَقِى بِالْحَىِّ فِى أَرْجَائِهاَ أَبداً وَلاَ أَسِىءُ لِلْمَقْبُورِ
إِنِّى سَئِمْتُ مِنَ الأَنَامِ وَمَكْرِهِمْ وَرَأَيتُ رُوحِى فِى حَشَا تَنُّورِ
إِيهِ طُيورَ النَّحسِ فِى أَرْضِى قِفِى فَإِذَاشَخَصْتُ إِلَى السَّمَاءِ فَطِيرِى

* * *

يَا سَوْرَةَ الأَشْوَاقِ رِفْقًا بِى فَقَدْ صيرّْتنِى فِى هَيْئَةِ الْمنحُورِ
خَلَّيْتِنِى أَمْشى وَحيداً يَائِساً قِيثَارُ عُمْرِى شَهْقَتِى وَزَفِيرِى
مَنْ لِى بِإِخْرَاجِى مِنَ السِّجْنِ الّذِى مَا فِيهِ إِلاَّ الصَّمتُ صَمْتُ قُبُورِ
قَدْ حَاطَنِى سُورُ الظَّلاَمِ بِرُعْبِهِ هَيَّا افْتَحِى ثُقْباً بِهَذَا السُّورِ

---

(١) تقدمت هذه القصيدة فى (ص٩١) .

على أنك تحس أحياناً فى شعره أفياء فلسفة عميقة ولكن الغموض والخفاء يكتنفانها.. إما لأنها لم تتبلور بعد، وإما لأن وسائل إيضاحها غير متوفرة لدينا .. لجهلنا بالكثير من إنتاجه .

وإذا أردت نموذجا لذلك فدونك قوله — وهو من قصيدة بعنوان « ثورة نفس » ، وقد سبقت[١] : —

يَا حَيَاتِي مَا الَّذِي فِيكِ يُرى ... يُبْهِجُ النَّفْسَ وَيُغْرِى بِالْبَقَا ؟
سَوْفَ أَطْوِى صَفْحَةَ الْعُمْرِ فَمَا ... أَسْتَطِيعُ الْعَيْشَ عَبْداً مُوثَقَا
لاَ تَقُولِي : كَيْفَ فَارَقْتَ الْمُنَى؟ ... كَيْفَ حَطَّمْتَ صِبَاكَ الرَّيِّقَا ؟
أَنَا أَدْرَى مِنْكِ بِالْعُقْبَى فَلاَ ... أُفُقِ السامِي نَصَبْتُ الْمُرْتَقَى(١)

٢ ـ قصائد أخرى لم ترد فيما سبق عن حياته

لقد استشهدنا بكثير من قصائد شعره ، كما أوردنا قصيدته فى مطابع الرياض[٢] فى محاضرة سابقة .. ولكن بقيت لدىّ مجموعة من قصائده .. مما لم أعثر عليه إلا بعد ذلك الحديث ـ مثل قصيدته « ياعيد » ، وقصيدته « مفاتن الربيع » ، ومنها ما أغنى عنه مثيل له وشبيه ـ من حيث موضوعُه ـ كقصيدته : « يوم الجزائر » .

ولكى تكون الفائدة أتم ، والقصد أنجح آثرنا أن نورد فى عقِب هذا

(١) راجع صفحات (١٣٩-١٤١) .

(١) على أن الحجى لم يسلم من أدران إلحاد أبى العلاء ، وذلك فى مثل قوله :

سيئوبون للتراب كما قد ... خلقوا منه بئس ذا من مآب

(٢) راجع صفحات (١١١—١١٣) .

الحديث مالم يسبق إيراده . . ليتم لنا جمع شتات ما تفرق من شعر الحجى الذى عثرنا عليـــه .

وسنبدأ بقصيدة « ياعيد » ونخصها من العناية بالمزيد . . لأنها :

أولا : آخر ما عثرنا عليه من شعره ، هى وقصيدته « ثورة نفس » .

وثانياً : لاحتوائها من عواطف الحجى ومشاعره ـ تجاه نَجْد وساكنيه ـ على أعمقها وأشدها حرارة ـ إذ يخاطب العيد وكأنه يلومه على أن أتى فى وقتٍ فَقَدَ فيه نعيم الرُّوح ، فأرخت الأشجار سُدُولها .. لمَّا نأى الأهلُ ، وشطَّت جِيرَة الأحباب ، فسكب فى الشعر حنينه وأنينه . . من آلام البين ، ولواعج الفراق ، كأنما قد شوَى الأضلاع على سَفُّود ، صيرتْه ذكراهم راعشاً كالأُمْلُود[1] فى مهب الرِّيح .. فتظنه ـ حين تراه ـ شيخاً فى السبعين ؛ على الرغم من حداثة سنه ، . . ويُجِنُّهُ الليل فيبقى فيه كالشبح المنتصب . . يرعى النجوم التى يبصر فيها عيوناً [تُطِلُّ] على الأحباب الذين لم تُسْلِهِ عنهم زُرَافاتُ الغِيدِ[2] من حوله وتدوِّى فى أفقه الأغاريد [والزغاريد] ، وتحوِّم فى جوائه كواكب العيـد ، ولـكنه غريب عنها ، وبها غير سعيد ، فعِيدُهُ سَقَامٌ وانبعاث أَسًى .

. . . . . . « وَدَمْعُهُ إنْ شَدَا الشَّادُونَ تَغْرِيدُ » .

---

(١) السفود : حديدة تدخل فى اللحم ليشوى عليهـــا ، وهى المعروفة « بالسِّيخ » ، والأملود : كالإمْلِيدو الأُمْلُدِ والأُمْلُدَان والأُمْلُدَانى ـ : النـاعمُ اللين من الناس ومن الغصون . والمراد ـ هنا ـ الأخير .

(٢) الغيد : جمع « غيداء » والزرافات : الجماعات .

١ ـ « ياعيد » !! (ا)

يَاعِيدُ وَافَيْتَ وَالأَشْجَانُ مُرْخِيَةٌ
سُدُولَهَا وَنَعِيمُ الرُّوحِ مَفْقُودُ

لا الأَهْلُ عِنْدِي وَلا الأَحْبَابُ جِيرَتُهُمْ
حَوْلِي فَقَلْبِي رَهِينُ الشَّوْقِ مَفْئُودُ(١)

الْعَيْنُ تَرْنُو وَطُولُ الْبَيْنِ وَاجِمُهَا
حَسْرَى وَإِنْسَانُهَا بِالأُفْقِ مَعْقُودُ

تَجْرِي دِمَائِي دُمُوعاً فِي مَحَاجِرِهَا
عَلَى وِسَادِي لَهَا صِبْغٌ وَتَسْهِيدُ

أُمْسِي وَأُصْبِحُ وَالأَحْزَانُ تُحْدِقُ بِي
لاَ الرَّوْضُ يُجْدِي وَلا الْقِيثَارُ وَالْعُودُ

أَرْوِي اشْتِيَاقِي وَأَنِّي فِي نَوًى وَجَوًى
وَأَنَّنِي بِقُيُودِ الْهَمِّ مَصْفُودُ(٢)

يَاسَاكِنِي نَجْدَ إِنَّا بَعْدَ بَيْنِكُمُ
كَأَنَّمَا قَدْ شَوَى الأَضْلاَعَ سَفُّودُ

فَادْعُوا بِحَقِّ الْهَوَى أَنْ نَلْتَقِي بِكُمُ
فَإِنَّ أَيَّامَنَا مِنْ بَعْدِكُمْ سُودُ

(ا) راجع مجلة « القصيم » العدد ٢٦٤ ـ الثلاثاء ١٠/١٠/١٣٨٢هـ ـ عن « الورود اللبنانية » .

(١) مفئود : مصاب ، أو محترق .

(٢) مصفود : مقيد مغلول .

يَالَيْتَكُمْ تُبْصِرُونَ الصَّبَّ عَنْ كَثَبٍ
حَتَّى يَبِينَ الَّذِى يَلْقَاهُ مَعْمُودُ
إِذَا ذَكَرْتُكُمْ أَمْسَيْتُ مُرْتَعِشاً
كَأَنَّنِي فِي مَهَبِّ الرِّيحِ أُمْلُودُ
أَنَا الْمُتَيَّمُ وَالأَحْدَاثُ شَاهِدَةٌ
مِنَ الْهُمُومِ عَلَتْ وَجْهِي التَّجَاعِيدُ
إِنِّي غُلَامٌ وَلَكِنْ حَالَتِي عَجَبٌ
أُرَى كَأَنِّي مِنْ سَبْعِينَ مَوْلُودُ(١)
لَمْ أَشْرَبِ الْكَأْسَ وَالأَشْوَاقُ تَشْرَبُنِي
وَلَمْ أُغَرِّدْ وَمِنْ حَوْلِي الأَغَارِيدُ
نَعَمْ شَرِبْتُ كُئُوسَ الْهَمِّ مُتْرَعَةً
حَتَّى كَأَنِّي مِنَ الأَوْصَابِ عِرْبِيدُ
كَأَنَّنِي شَبَحٌ فِي اللَّيْلِ مُنْتَصِبٌ
أَرْعَى النُّجُومَ وَحُلْمُ اللَّيْلِ مَوْءُودُ
أَلْغِيدُ حَوْلِي زُرَافَاتٍ أُطَالِعُهَا   لَكِنَّمَا عَنْكُمُ لَمْ تُسْلِنِي الْغِيدُ
لَمَّا أَتَى الْعِيدُ أَبْكَانِي وَهَيَّجَنِي   فَلَيْتَنِي بَعْدَكُمْ مَا مَرَّ بِي عِيدُ
ذَكَرْتُكُمْ وَسَخِينُ الدَّمْعِ مُنْهَمِرٌ
لَمَّا تَعَالَتْ بِدُنْيَايَ الزَّغَارِيدُ

---

(١) فى الأصل : «فى السبعين مولود» ، وهو غير مستقيم مع المعنى المراد.

عِيـدُ الْغَرِيبُ سَقَامٌ وَانبِعَاثُ أَسًى
وَدَمْعُهُ إِنْ شَدَا الشَّادُونُ تَغْرِيدُ

٢ ـ مفاتن الربيع

جَاءَ الرَّبِيعُ فَمَاسَ الْكَوْنُ تَرْحِيبًا
وَغَنَّتِ الْوُرْقُ فَوْقَ الأَيْكِ تَطْرِيبًا(١)
وَصَارَتِ الأَرْضُ مُخْضَرًّا جَوَانِبُهَا
بِالنَّبْتِ تَلْقَاهُ مَفْرُوشًا وَمَنْصُوبًا
فَلَوْ نَظَرْتَ ضُحًى نَحْوَ الرِّيَاضِ وَمَا
فِيهَا مِنَ الْحُسْنِ مَبْثُوثًا وَمَسْكُوبًا
وَطَالَعَتْ عَيْنُكَ الأَزْهَارَ بَاسِمَةً   وَالطَّيْرَ صَادِحَةً وَالْمَاءَ مَصْبُوبًا
أَيْقَنْتَ أَنَّ الرَّبِيعَ الْغَضَّ مُؤْتَلِقًا
مَغْنًى مِنَ الْخُلْدِ . . لَكِنْ لَيْسَ مَحْجُوبًا(٢)
ثُمَّ ارْتَمَتْ عَنْكَ آلامُ الْحَيَاةِ كَمَا
قَدْ أَسْعَدَ الأَمَلُ الْمَحْبُوبُ مَكْرُوبًا

* * *

فَهَلْ غَدَوْتَ إِلَى أَعْشَابِ مُشْجِرَةٍ
كَيْمَا تَرَى بِكَمَالِ الْعَيْشِ مَصْحُوبًا ؟

---

(١) ماس : دل واختال وتاه ، والورق : الحمائم ـ مفردها : ورقاء ، والأيك : الدوم ومجتمع الشجر .

(٢) المغنى : محل الإقامة المريح ، والخلد : الجنة .

وَرُحْتَ تَنظُرُ تَصْعِيدًا إِلَى أُفُقٍ
زَاهٍ وَطَوْرًا إِلَى الْأَشْجَارِ تَصْوِيبَا(١)

وَأَبْصَرَتْ عَيْنُكَ الْغُدْرَانَ صَافِيَةً
قَدْ صُفَّ مِنْ حَوْلِهِنَّ الزَّهْرُ تَرْتِيبَا

لَأَنْتَ نَشْوَانُ رَحْبُ الصَّدْرِ حِينَ تَرَى
وَجْهَ السَّمَاءِ بِوَجْهِ الْأَرْضِ مَقْلُوبَا

* * *

قُلْ لِلَّذِي زَارَ بُلْدَانًا مُجَاوِرَةً
فَبَاتَ مِنْ عَقْلِهِ الْمَخْدُوعِ مَسْلُوبَا

لَا تَذْهَبَنَّ بِكَ الذِّكْرَى مُجَنَّحَةً
وَتَرْتَقِي بِكَ فَوْقَ السُّحْبِ مَنْهُوبَا

فَـ« نَجْدُ » أَفْعَمُ حُسْنًا بِالرَّبِيعِ لِذَا
أَمْسَى الْجَمَالُ لِـ« نَجْدَ » الْيَوْمَ مَنْسُوبَا

أُنْظُرْ إِلَى الرَّبَوَاتِ الْفِيحِ قَدْ خَلَعَتْ
يَدُ الْجَلَالِ عَلَيْهِنَّ الْجَلَابِيبَا(٢)

وَانْشَقْ شَذَى عِطْرِهَا الْفَوَّاحَ فِي طَرَبٍ
وَاشْمَمْ عَبِيرَ نَسِيمٍ يَحْمِلُ الطِّيبَا

---

(١) التصعيد والتصويب : الارتفاع والانخفاض.

(٢) الفيح : جمع فيحاء ، وهى المنتشرة الرائحة .

فَمِنْ خُزَامِى إِلَى رَنْدٍ يَضُوعُ بِمَا
يَشْفِى الصُّدُورَ وَيُقْصِى الْهَمَّ مَحْرُوبَا

وَمِنْ مَعَانٍ بِهَا الآرَامُ وَاثِبَةٌ
يَمْرَحْنَ مَا خِفْنَ صَيَّادًا وَلاَ ذِيبَا(١)

يَقْطَعْنَ نَوْرَ الرُّبَا الْخَضْرَاءِ فِى جَذَلٍ
وَيَنْتَحِينَ لُجَيْنَ الْمَاءِ مَشْرُوبَا(٢)

مَفَاتِنٌ تَدَعُ الْأَشْجَانَ نَافِرَةً مِنَ الْقُلُوبِ وَتَكْسُو النَّفْسَ تَهْذِيبَا

لَوْ أُوتِىَ الطَّيْرُ إِفْصَاحًا وَمَعْرِفَةً لَرَاحَ يَنْظِمُ فِيهَا الشِّعْرَ تَشْبِيبَا

* * *

فَاجْعَلْ لَهَا سَاعَةً وَانْعَمْ بِمَشْهَدِهَا
إِنْ كُنْتَ تَلْمِسُ فِى دُنْيَاكَ تَعْذِيبَا

فَالنَّفْسُ تَنْشَطُ مِمَّا قَدْ أَضَرَّ بِهَا
مَا دُمْتَ مِنْ نَغَمَاتِ الْحُسْنِ مَوْهُوبَا(١)

---

(١) الآرام : جمع رئم ، وهو الغزال .

(٢) كان الواجب أن يقول « الربا الخُضْر » ولكنه وقع فى خطأ معاصر يتردّى فيه كثير من الأدباء ، وكان فى إمكانه أن يقول :

« يقطعن نور الرياض الخضر فى جذل » .. ..

ولكنه ظن أن هذا الخطأ صواب .. قال ابن مالك فى الألفية :

« فُعْلٌ لنحو : أَحْمَرٍ وَحَمْرَا » . والجذل : الفرح والسرور .

٣ — كذا فى الأصل «الحسن» بالنون ، وفى رأيى أنها لو كانت «من نغمات الحس» ـ بالسين لا بالنون ـ لكانت أروع وأبدع بل تكاد تكون أقطع ـ

تِلْكَ الطَّبِيعَةُ فَانْهَلْ مِنْ مَنَاهِلِهَا
وَقِفْ بِهَا كَيْ تَرَى فِيهَا الْأَعَاجِيبَا
يَعْلُو بِكَ الفِكْرُ فى تَمْجِيدِ مُبْدِعِهَا
مَنْ أَحْسَنَ الْخَلْقَ تَكْوِينًا وَأُسْلُوبَا
حَتَّى يَرُوحُ لِسَانُ الْحَالِ مُنْطَلِقًا
بَيْنَ التِّلَالِ رَفِيعَ الصَّوْتِ مَرْغُوبَا[1]
يَا مُلْبِسَ الْكَوْنِ أَلْوَانًا مُصَبَّغَةً مِنَ الْجَمَالِ سُهُولاً أَوْ أَهَاضِيبَا
وَجْهُ الشِّتَاءِ تَوَلَّى مُدْبِرًا وَبَدَا
وَجْهُ الرَّبِيعِ نَحْوكَ الثَّغْرِ مَحْبُوبَا
وَمَا تَرُوقُ لَنَا أَصْنَافُ رَوْعَتِهِ
حَتَّى يَزُولَ بِلَفْحِ الصَّيْفِ مَنْكُوبَا
جَعَلْتَ أَيَّامَنَا نَوْعَيْنِ مِنْكَ فَذَا
يَبْدُو رَهِيبًا وَيَبْدُو ذَاكَ مَرْغُوبَا

« حمد الحجى » (١٢/١٠/١٣٧٨هـ)

---

(١) كذا « يروح » فى الأصل ، ولو كانت « يقول » ، أو « ينادى » لكان ألفى وأنسب .

٣ ـ الحسن فى الطائف(١)

اُلْحسْنُ فى الطَّائِفِ أَلْوَانُهُ كَثِيرَةٌ فى عَيْنِ مَنْ يَنظُرْ(١)

لَكِنَّمَا اُلْحسْنُ الَّذِى شَاقَنِى وَبَاتَ عَقْلِى مِنْهُ لاَ يُبْصِرْ

مُجَسَّمٌ فى غَادَةٍ حُلْوَةٍ تَمْشِى الْهُوَيْنَى طَرْفُهَا يَسْحَرْ

كَالْغُصْنِ تَهْتَزُّ إِذَا مَا مَشَتْ تَكَادُ مِنْ طَرْفِ الصِّبَا تَعْثُرْ(٢)

مِنْدِيلُهَا الأَخْضَرُ فِى كَفِّهَا يَا حَبَّذَا مِنْدِيلُهَا الأَخْضَرْ

الدُّرُّ وَالْجَوْهَرُ فِى نَحْرِهَا يَا لَيْتَنِى الدُّرُّ أَوِ الْجَوْهَرْ

مَا الْخَمْرُ إِلَّا أَنْ أَرَى وَجْهَهَا فَنَظْرَةٌ فِى وَجْهِهَا تُسْكِرْ(٣)

---

(١) قال الحجى : « هـذه القصيدة نظمتها عام ١٣٧٦ هـ ، وعلى وجه التحديد فى صيف ذلك العام ، وكنت إذ ذاك بمدينة الطائف ، وقد ضاعت منى ، ويئست منها ، وبينما كنت أقلب فى أوراق عندى .. عثرت عليها وأثارت فى نفسى أمواجاً من الذكرى ، ورأيت أن من الوفاء للصبا وختونه أن أنشرها ، وأهديها لمن دفعنى إلى قولها » .. (مجلة الجزيرة) .

(١) فى الأصل المخطوط المرسل إلىّ : « فى عين من نظر » وواضح أنه تحريف من الكاتب .. ولا على المؤلف منه .

(٢) عثر : من باب ضرب ونصر وعلم وكرم .

(٣) فى الأصل الذى لدىّ : « فنظر فى وجهها » ، وهو مخل بوزن البيت ، وطبعاً هو تحريف من الآلة الكاتبة .

مَا المَوْتُ إلاَّ أنْ أَرَى قَدَّهَا فَلَمْ يَسَ قَداًّ . . بَلْ قَناً أسْمَرُ(١)
فوّاحــةٌ بالطِّيبِ فتّانَةٌ كأنَّمَا مَشْرَبُهَا الكَوْثَرُ
حَسِبْتُهَا مِنْ مَرْمَرٍ إذْ بَدَا لِي بَعْضُهَا فِي طَلْعَةٍ تَبْهَرُ(٢)
وَرُحْتُ فِي تَسَآلٍ قَلْبٍ شَجٍ عَنْ صُنْعِ جِسْمٍ بَعْضُهُ مَرْمَرُ(٣)

* * *

قَدْ عَابَنِي فِي صَبْوَتِي صَاحِبِي وَرَاحَ مِنْ حُبِّي لهـَا يَسْخَر
وَقَالَ : إنْ تُصْبِحْ أسِيرَ الجْوَى فَسَوْفَ يَدْنُو مَوْتُكَ الأَحْمَرُ
فاتْرُكْ هَوَاهَا وَانْهَ عَنَّ حُبِّهَا يُغنِكَ عَنْهَا الشِّعْرُ وَالمِزْهَرُ(٤)
فَقُلْتُ : إنَّ الْحُبَّ يَاصَاحِبِي بِالرَّغْمِ مِمَّا قُلْتَهُ يأْسِرُ
لَوْ كَانَ قَلْبِي طَائِعِي لَمْ أكُنْ يَوْماً عَلَى نَارِ الجْوَى أُصْهَرُ(٥)
لَكِنَّمَا هَذِي الْقُلُوبُ الَّتِي تَحْمِلُهَا تَسْطُو وَلاَ تَحْذَرُ
يَالَيْتَ قَلْبِي فِي الْهَوَى عَادِلٌ رَاضٍ فَلاَ يَنْهَى وَلاَ يأْمُرُ

(١) وصف القنا ـ وهو جمع قنـاة ـ بالأسمر : خطأ لغوى واضح ، وقد بينا فى أحد أبيات قصيدة « مفاتن الربيع » وقوع الشاعر فى مثله تأثراً بأخطاء المعاصرين ـ راجع ص (١٨٥) .

(٢) فى الأصل المخطوط « إذا بدا » ، وهو خطأ من الكاتب حتما .

(٣) فى الأصل المخطوط : « هل صنع جسم » وهو بين الخطأ .

(٤) فى الأصل المخطوط . « يغنيك » وحذف الياء أولى هنا ، وإن جاز إثباتها .. على الاستئناف .

(٥) طائع : اسم فاعل من « طاع له .. يَطُوعُ ويَطَاعُ » بمعنى : انقاد له .

هَوَايَ وِرْدِي الْمُسْتَطَابُ الَّذِي أَسْقَيْتُهُ دَمْعِي الَّذِي يَقْطُرْ
أَحْرَمُ مِنْهُ زَهْرَهُ قَانِياً وَفِي طَرِيقِي شَوْكُهُ يُنْشَرْ(١)
هَوَايَ مَا أَعْجَبَهُ مِنْ هَوًى كَاللَّيْلِ فِيهِ قَمَرٌ نَيِّرٌ
غَابَ فَمَا أَبْقَى سِوَى ظُلْمَةٍ يَرْتَاعُ مِنْهَا دَرْبِيَ الْمُقْفِرْ

* * *

كَمْ مَظْهَرٍ قَدْ شَفَّ عَنْ مَخْبَرٍ حَتَّى بَدَا كَالصُّبْحِ إِذْ يُسْفِرْ
إِلاَّ الْهَوَى لَمْ أَدْرِ مَا سِرُّهُ ؟ مَا شَفَّ عَنْ مَخْبَرِهِ الْمَظْهَرْ(٢)
الْحُبُّ أَسْمَى مِنْ جَمِيعِ الَّذِي
قَدْ صَوَّرُوهُ . . مَا الَّذِي صُوِّرْ؟(٣)
الْحُبُّ فِي الرُّوحِ خَفِيٌّ وَمَنْ يَرْفَعُ سِتْراً دُونَهُ يُسْتَرْ
لاَ يُفْصِحُ الإِنْسَانُ عَنْ حُبِّهِ لَوْ هُوَ لاِمْرَأَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرْ(٤)
قَدْ قُلْتُ ـ إِذْ أَلْفَيْتَنِي عَاجِزاً ـ : اللهُ مِنْ مَعْنَى الْهَوَى أَكْبَرْ

* * *

قَدْ كُنْتُ أُسْقَى بِالرَّحِيقِ الَّذِي
تَسْكُبُهُ عَيْنَاكَ يَا أَحْوَرْ

---

(١) فى الأصل المخطوط : «زهرة فانيا» بالتاء والفاء، وهو تحريف .

(٢) فى الأصل المخطوط : « إلى الهوى » وهو تحريف .

(٣) فى الأصل المخطوط : « ماالذى صوروا » وهو خطأ .

(٤) فى الأصل المخطوط بين أيدينا : « لوهو لإمرتين أو أشعر » وهو واضح الفساد .

فَبَـاتَ فِى قَلْبِى لَهِيبٌ وَمَا حَوْلِىَ إلاَّ مَنْهَلٌ أَكْدَرْ

وَرَشْمُكَ الْحُـلْوُ مَعِى كُلَّمَا لَجَّ بِى الْوَجْدُ لَهُ أَنْظُرْ

كَمْ لَيْلَةٍ سَامَرْتُهُ سَاهِرًا لِأَنَّنَا كُنَّا ـ مَعًا ـ نَسْـمُرْ

وَيَنْتَهِـى اللَّيْلُ وَمَا فِى يَدِى إلاَّ خَيَالٌ لِلَّذِى أَذْكُـرْ

كَأَنَّمَا أَنْظُرُ فِى صَفْحَةٍ لِلْمَاءِ نَجْمًا فِى السَّمَا يَزْهَرْ[١]

وَهَكَذَا يُصبِحُ صُبْحِى وَفِى جَفْنِى دُمُوعٌ مَاؤُهَا يَمْطُرْ

مَا أَدْمُعِى تِلْكَ وَلَكِنَّهَا دَمِى الَّذِى فَاضَ بِهِ الْمَحْجَرْ[٢]

* * *

هَـذَا شُعُورِى فَاقْبَلِى وَاعْلَمِى أَنَّ فُؤَادِى بِالْهَوَى يَذْخَرْ

تَذَكَّرِى أَنِّى أَخُو لَوْعَـةٍ وَصَاحِبُ اللَّوْعَـةِ لاَ يَصْبِرْ

مَتَى أَرَى خَـطَّكِ فِى رُقْعَـةٍ

ضَمَّخَهَا « الرِّيفْ دُورْ » وَالْعَنْبَرْ؟[٣]

مَتَى ؟ مَتَى ؟ فَالنَّارُ فِى مُهْجَتِى بُرْكَانُ « فِيزُوفَ » إذْ يَزْخَرْ[٤]

الرياض ـ حمد الحجى ـ العدد الثانى من مجلة الجزيرة

السنة الثالثة ١٣٨١هـ / ١٩٦٧م .

---

(١) فى الأصل المخطوط بين أيدينا : « فى السماء » وهو غير متسق مع الوزن ، ويزهر : يتلألأ .

(٢) فى الأصل المخطوط بين أيدينا : « ماأدمع » ، و « المحجر » .

(٣) « الريف دور » نوع من العطور التى تصنع فى فرنسا .

(٤) فى الأصل المخطوط بين أيدينا : « بركان ينزف» ، وهو تحريف ، وبركان فيزوف يوجد فى إيطاليا .

المحاضرة الرابعة

الخطابة والكتابة فى العصر الحديث فى نجـــد

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد :

يمكننا أن نقسم العصر الحديث فى نجد ، إلى فترتين : أولاهما : تبدأ من منتصف القرن الثانى عشر ، وظهور [الشيخ] الإمام محمد بن عبد الوهاب ، وتنتهى فى العقد السابع من هذا القرن تقريباً . حيث تبدأ الفترة الثانية التى مازلنا نعيشها ، والتى هى عصر النهضة فى الواقع .. لسيطرة الركود والجمود الفكرى على الفترة الأولى . [على] رغم سبق حركة الإصلاح التى قادها الإمامان محمد بن عبد الوهاب ، ومحمد بن سعود . للحركات الإصلاحية فى البلاد العربية والإسلامية، فى العصر الحديث .

ويمكننا أن نَرْجِع ذَلك الجمودَ الفكرىَّ الذى مُنِيَتْ به تلكم الفترة حتى سبقها كثير من البلاد العربية بأشواط ، ويمكننا أن نرجع ذلك إلى سبب رئيسى تولدت منه جميع الأسباب .

ذلكم هو وُقُوفُ العالم العربى والإسلامى عموما ، من الحركة الوهابية ، موقفاً عدائيا . واعتبارُها خطراً جسيما يهدِّد كيانَاتِهم السياسية ، فجهزوا للقضاء عليها الجيوش ، وجندوا الأجناد ، وحَمَلَ لواء المناهضة والحرب، أكبرُ البلاد الإسلامية والعربية إذ ذاك — تركيا ومصر .. فكان ما كان مما يُثْقِلُ

---

* ألقيت فى نادى النصر بالرياض ليلة ١ رمضان ١٣٨٨ هـ

نفوسَنا ذكرُه ، ويضيق عنه زمنُ محاضرتنا .

فلندَعْهُ للتاريخ، ولنسأله ـ إن شئنا ـ (وَعِنْدَ جُهَيْنَةَ الْخَبَرُ الْيَقِينُ[١]).

وذهبت تلك الفترة بخيرها وشرها ، طواها التاريخ ، كما طوى مِنْ قبلها حِقبًا وحِقبًا ، لكنها [تركت] لنا من العظات و [العبر] ما لا يُستهان به .

فهل اعتبر أولو الألباب ؟

ولقد بقى هذا الجزء من بلادنا فى مَعْزِل عن وسائل التثقيف والتوجيه الخاصة والعامة ، حتى بُعَيْدَ منتصف هذا القرن، فلا صحف ولا مذياع ولا مطبعة ولا مكتبات ، ولا مدارس حديثة.. ذات منهج منظم ، ولا اتصال بالخارج ينبه الغافل ، ويُوقِظُ الْوَسْنَانَ .

وكان العالَمُ العربىُّ من حولنا يَعِجُّ بهذه الوسائل ، وَينْعَمُ بخيراتها . بينما بقيتْ نجد خِلْواً من تلك الوسائل ، جاهلة بما تجلبه من خير.. بل لم تكد بوادرها تظهر حتى حوربت ، وعَدَّها البعض من الأمور المستقبحة ، وعدها آخرون من المحرمات .

وليس هذا بالغريب على مثل تلك البيئة ـ والمثل يقول « مَنْ جَهِلَ شَيْئًا أَنْكَرَهُ »[٢] .

وكان عدم الاستقرار من حولنا أهمَّ العوامل التى ساعدت على ذلك . كما أن الضعف الاقتصادى . كان لذلك صِنْواً — حتى إذا فَرَغَ المغفور له

---

(١) راجع المثل رقم ٢٣٨٣ فى مجمع الأمثال للميدانى (٢ : ٣ ، ٤ ، ٥) حيث تقرأ قصته .. التى توجد أيضاً فى كتاب « الفاخر » ص١٠٢ بروايات أخرى .

(٢) فى معنى هذا المثل قول على كرم الله وجهه : « الناس أعداء ما جهلوا »

الملك عبد العزيز من بناء الدولة السعودية الحديثة سياسيًّا تفرَّغ لبناء الدولة بناء علميا واقتصاديا سليمَيْن ، فتم له ذلك قبل موته على أتم الوجوه ، وكان أن بدأ افتتاح المدارس عام ١٣٥٤ هـ ، وتبعه بعد فترة إنشاء التعليم المتوسط فالثانوى ثم المعاهد والكليات فالجامعة .. كما تتابع ظهور الصحف والمجلات ، فالمطابع والمكتبات ، ثم الإذاعة والتليفزيون والمنتديات .. مما هو جدير بإفراد محاضرة خاصة به .

فلنُجاوزْ [ذلك كله] على أمل اللقاء فى مَقام آخر ، ولنأخذ بالجزء الأول من صُلْبِ محاضرتنا هذه ....

١ — الخطابة :

إن من بدائه المعلومات فى الأدب ، العلم بأن نجدا ـ فى أيام الجاهلية . وأيام الإسلام ، حتى نهاية العصر العباسى الأول ـ كانت مستقَى الفصاحة واللسن العربى . لا فرق فى ذلك بين الشاعر والخطيب ، .. كما كان لسانُ نجدٍ آخرَ ألسن العرب تأثُّرًا بالعُجمة .. الأمر الذى جعل علماء اللغة فى زمن تدوينها أيام العباسيين يؤمُّونها لضم شتَات لغة العرب من أفواه سكانها .. تلك الأفواه التى لم يَفُحْ فيها ـ بعْدُ ـ نتنُ العجمة ، ولم تُدَنِّسْها أدْرَانُ اللحن وأوضار العجمة وتلك حقيقة معلومة ومسلم بها . بل هى فى الواقع : تاريخُ اللغة من أيسر البَدَهِيَّات فالقول فيها من مُعَادِ الحديث .

غير أن نَجْدَ التى رُزِئَتْ فى شعرها وفصاحة لسانها رُزِئَتْ كذلك فى خطابتها .. لكن متى ؟ وكيف كان ذلك ؟ .. لا أحد يعلم . فَنَجْدُ فى فصول تاريخ عصور الإسلام الوسطى كبلاد الأساطير .. ماضٍ عامر ، وحاضرٌ مجهول . غير

أنه لا بدمن أن تكون قد أصاب خطابتها ، ما أصاب خطابة أقاليم العربية الأخرى . من إجداب فى المعنى وإمحال ، مع تكلف وتصنع فى المقال ، وركون إلى المُدَوَّنات بعد العجز من البديهة والارتجال .

ولقد بقيتْ نَجْدُ على هذه الحال : حتى قيام المُجَدِّد الأول فى العصر الحديث لحياة العرب والمسلمين . الإمام محمد بن عبد الوهاب الذى نفخ فيها من روحه ، ونفحها بإخلاصه ، فسارت الحياة فى هيكلها اللفظى حتى أشرق منها الجَبِينُ ، ولانَ الأديم — بلا ضعف ولا ارتخاء — فاستأنفتْ مسيرتَها على خط الكفاح والنضال ، طليعةً للفنون الأدبية ، وسلاحاً ماضياً لأرباب الدعوة والإصلاح .. الذين اتخذوا منها سلاحاً آخر لإيضاح الهدف ، وتحديد الاتجاه .

وذلك سر عناية الإمام بالخطابة ، ونفض ما علاها من غبارٍ .. تراكم عليها عَبْرَ عصور الانحطاط ، حتى عادت إلى الشباب بعد الشيخوخة والهَرَم . . ذلك أن التجديد قد تناول الخطابة من جميع زواياها ، لا فرقَ فى ذلك بين اللفظ والتركيب ، أو الموضوع ، والأسلوب .

ولكى نتبين ذلك بوضوح علينا أن نُوردَ نَصَّيْن أحدهما لعصور الانحطاط ، السابقة لعصر الإمام . والثانى للامام [نفسه] : رحمه الله .

١ — النص الأول : من خطبة للشيخ إبراهيم بن بدوى النحاس .. قال .

أما بعد : (١) فيا عباد الله . إلى متى يا صاح — هذا الحرص والأمل ، وقد قرب الرحيل واقترب الأجل ؟ ؟ ، وكأنك بالعمر قد مضى وأنت ذاهب . يا غريقَ الغفلات ، ويا غافلاً عما هو آت : إلى متى أنت لاهٍ ولاعِب ؟؟

(١) تاريخ الأدب لمصطفى محمود .

يا مولَعا بلذاتك ، ومُصرًّا على زَلاَّتِكَ .. أما آن أنك تائب ؟

يا مقبلاً على شهواتك ، ويا غافلا عن مماتك .. إن الموت مراقب لك وطالب .

يا ناسياً لذنوبك ، ويا غافلا عن عيوبك ، ستتضح لك والله العواقب .

يامرائياً فى العمل ، ومتستراً بالحيل . أما علمت أن الرقيب عليك راقب ؟.

أما علمت أن الناقد بصير ، وأنك محاسَبٌ على التقصير . وأن الله هو المحاسب ؟ .

فأفق — رحمك الله — مما أنت فيه من الغرور ، واستعدَّ لما أنت لاقيه يوم البعث والنشور ، وتب مما أنت كاسب .

فوالله .. لولا رحمته ، سبقت الغضب ، وفيضُه لا يخصُّ مَنْ طَلَب ، لصَبَّ على العصاة المصائب .

فتداركوا — رحمكم الله — أموركم ، والزموا التقوى حيث كنتم ، فالله سبحانه مطلع عليكم ، وعالم بما أخفيتم . لا إله إلا هو رب السموات والأرض وما بينهما ، ورب المشارق والمغارب » .

* * *

تَأَمل [أيها القارىء الفَطِن] كيف حملته السجعة على هذا المركب الوَعْر .. فى مثل قوله : « أما آن أنك تائب ؟ » ، وفى قوله : « إن الرقيب عليك راقب » .

ثم تأمل توجيهه الخطاب إلى الجمع .. بعد أن قصره فى جميع الخطبة على المفرد .

على أن هذا يمكن أن يحمل — مع تسامح — على ما يسميه علماء البلاغة بالالتفات .

* * *

٢ — النص الثانى : (ب) من خطبة للإمام محمد بن عبد الوهاب فى التحذير من الربا ، والنهى عنه .. قال :

(ب) مجموعة خطب الإمام محمد بن عبد الوهاب .

أما بعد : فيأيها الناس . . اتقوا الله تعالى ، وإلى متى أنتم فى غمرة الغفلة رُقود ؟ ، وإلى متى هذا التكاسلُ عن العمل الصالحِ . . والصدوُد ؟

أَمَا علمتم أن لكل نفس ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت . . فى كتاب مَرْقُومٍ مشهود ! .

واعلموا أن من كبائر الذنوب تجاهلَ الحدود ، وتظالم العباد بأخذ الربا فى العقود ، ومالُ الربا سُحْتٌ منزوع[1] البركة . . ويذهب بصاحبه إلى نار الوقود .

أوشك آكل الربا ، أن يُبْعَثَ آثماً ، و[هو] عن مسالك الجنة مردود ، سالكاً موارد النار ، وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ[2] .

وعنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أنه نهى عن ثمن الدم ، وثمن الكلب ، وكسب البَغِىّ ، ولَعَنَ آكِلَ الربا ومُؤْكِلَه[3] ، والواشمةَ والمُسْتَوْشِمَة والمصوِّر ، وهو مصوِّرُ كل ذى روح .

وعن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : لعن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ آكل الربا وموكله ، وكاتبه وشاهديه ، وقال : هم سَوَاء .

وعنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أنه قال : « الربا سبعون باباً . . أهونها عند الله كالذى ينكح أمه » .

هذان هما النصان : ومن خلالهما نتبين السمات التى تميز خطابة الإمام عن الخطابة السابقة له .

---

(١) السحت : الحرام ، أو ماخبث من المكاسب فلزم منه العار .

(٢) الآية رقم ٩٨ من سورة هود .

(٣) ضبطت هذه الكلمة «مُؤْكِلَهُ» فى كتاب النهاية لابن الأثير (١:٥٨) هكذا «مُؤَكِّلَهُ» . . أى : بفتح الهمزة وتشديد الكاف .

[الفرق بين خطابة الإمام محمد بن عبد الوهاب ومن سبقه]

وإذا أردنا أن نستخدم الطريقة المدرسية فى تحـديد تلك السمات ـ وذلك بوضعها تحت أرقام حاصرة لها ـ فإنه يمكننا أن نصنع شيئاً من ذلك .. على سبيل المثال، لا الحصر ، وذلك فيما يلى.

١ ــ وضوح القصد.. وذلك لسببين:

(ا) قربُ تناول اللفظ وسهولةُ مأخذه ، والبعدُ عن الغريب النافر عنه .

(ب) النزوعُ بالتركيب عن أسبـاب الغموض والخفاء ... كالأساليب الفلسفية، والتقديم والتأخير، ونحوها .

٢ ــ قِصَرُ الخطبة

٣ ــ قِصَرُ الفِقَر .

٤ ــ السجع غير المتـكلف .

٥ ــ وحدة الموضوع غالباً

٦ ــ التركيز على النواحى العقيدية(١) .

٧ ــ نبذ الخُزَعْبِلَات والخُرَافات والأساطير .

وَخُطَبُ الإمام مطبوعة وعددها : ٧٦ [خطبة] ، وتقع فى ٩٢ صفحة ـ من [الحجم] المتوسط .

ومنها خطبة للشيخ عبد اللطيف بن عـبد الرحمن ، وأخرى للشيخ عبد الله ابن عبد الرحمن ، وثالثة للشيخ محمد بن عبد اللطيف .

ومن بين تلك الخطب الـ ٧٦ خطبتان لعيد الفطر ، وخطبتان لعيد الأضحى وخطبة للاستسقاء ، وهى فى نظرى الخطابةُ المطابقةُ لمقتضى الحال.. إذا ما أخذنا فى اعتبارنا نوعَ ثقافة المجتمع الذى قيلت فيه، والبيئةَ الخاصة التى تحيط بذلك المجتمع .

(١) فى الأصل ، « العقائدية » بصيغة الجمع وهو ممنوع .

ولقد حلَّت خطبُ الإمام محل المدوَّنات القديمة ، فتناقلها أئمة المساجد ، وخطب بها منهم الخاصَّةُ والعامَّة فى المدن والقرى . . دون أن يخرجوا عليها ، أو يستبدلوها بسواها . . حتى بُعَيْدَ منتصف هذا القرن . . حيث ظهر أول مجدِّد فى الخطابة بعد الإمام . [وهو] الشيخ عبد الرحمن بن سعدى . . أحد مشاهير علماء هذا العصر ، وصاحب المؤلفات العديدة فى الإسلام ، والتى منها تفسيرٌ للقرآن نهج فيه منهجاً جديداً فى التفسير ، ومنها ديوان خطب عالج فيها مشاكل العصر .

ومن طلائع المجدِّدين فى الخطابة .

فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن حسن . . إمامُ الحرم المكى ، وإمامُ المسلمين يوم الحج الأكبر ، وله ديوان خطب قيم .

وفضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح إمام المسجد النبوى بالمدينة .

ولقد تكاثر المتسابقون فى حَلْبَةِ التجديد ، تجرى بهم أقلامهم وألسنتهم ، حتى بلغ بهم التمادى فى الإطالة إلى أن يقف الواحد منهم يوم الجمعة على المنبر ثُلُثَ أو نِصفَ ساعة أو يزيد ، ليتلو على المصلين ذلك المقال . الذى قام بإعداده . ثم تدوينه فى البيت ، وربما حفظه عن ظهر قلب ، وعلى المصلين أن يمكثوا هذه المدة . . سواء منهم ، مَن استعدَّ لذلك ، ومَن هو فى وَهَجِ الشمس أو مَسِّ البَرْدِ ، ومَنْ هو صحيح أو عليل ، والخالى وذو الحاجة .

فهل يجوز لنا أن نقول عن هذا القول : إنه خطابة ؟ .

فى الاصطلاح الفقهى : نعم . . أما فى مفهوم اللغة والأدب : فلا . .

* * *

أيها السادة :

وفى ختام حديثنا عن الخطابة الدينية ، أود الإجابة على أسئلة ثلاثة . . إخالها ترفرف على شفاهكم .

١ ــ لماذا دوّن الإمام محمد بن عبد الوهاب خطبه ؟ وقد نبذ المدونات ؟

٢ ــ لماذا بقى أئمة المساجد على تداول خطب الإمام وتوارثها ؟

٣ ــ لماذا نعيب على المُطيلينَ فى الخطب إطالتهم ؟

أما السؤال الأول : فما أظننا فى حاجة إلى الإجابة عليه ، إذا ماعلمنا أن أئمة المساجد فى عصره . الخاصَّةَ منهم والعامَّةَ [كانوا] غير قادرين على التجديد و[أن] جمهورهم [كانوا] فى حاجةٍ إلى قول مفهوم ، ومعنًى قريب . وهذا ـ وأكثر منه : ـ [يُعَدُّ] من المحاسن .. فى خطب الإمام .

وأمّا الجواب على السؤال الثانى : فهو :

١ ــ أولا : أن الحروب التى شنها أعداء الدين . . المُتَسِمُونَ به ـ على الوهابية ، والوهابيين . « أقول الوهابية والوهابيين معتزاً بهذا اللقب . وإن أراد الأعداء خلاف ذلك » ـ [كان لها من الآثار] : أن تلك الحروب . قد هزت مكاسب الدعوة فى بعض النفوس الضعيفة ، فعضَّت البقية الباقية من طائفة الحق . على ما تَبقَّى لها من أثر المصلحين وتراثهم ، ومن أَجلِّ ذلك خطب الإمام .

٢ ــ ثانياً : أن الثقافة اللغوية كانت محدودة بين الخاصة ، فما بالك بالعامة ؟ ، ولذلك فقليل منهم من كان يستطيع الارتجال .

٣ ــ وأما الجواب على السؤال الثالث :

(ا) فهو أن فى إطالة الخطب مايتنافى مع ماورد عن المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى قوله : « إنّ طُولَ صَلاَةِ الرَّجُلِ وَقِصَرَ خُطبَتِهِ مَئِنَّةٌ »[1] . .

---

(١) المَئِنَّةُ : العلامة ، وقيل صحتها : مَئِنَّةٌ من أَنَّهُ : إذا غلبه ، واختلف فى وزنها ـ فقيل : مَفْعِلة ، وقيل : فَعِيلَة ، وقيل : فَعِلَّة . وراجع القاموس « مادة مأن » .

أى : علامة على فقهه .. أى : يُعْرَفُ به فِقهُ الرجل .. ، وكل شىء دَلَّ على شىء فهو مَئِنَّةٌ له ـ « رواه مسلم » .

(ب) أن فى قصر الخطبة مصلحةً متعددة الجوانب للجمهور المخطوب فيهم : [و]منها على سبيل المثال : الاستيعابُ لما يقال ، وعدم تعريضه المَلاَلِ فضلا عن كونه انقياداً .. لما ورد فى النص الشريف الآنف الذكر .

ربما اعْتَرَضَ معترض بقوله : إن فى البسط . والتطويل من الإيضاح والإفهام .. مالا يكون فى الإيجاز ، والاختصار .

والرد على هـذا الاعتراض هو : أن الخطيب المخلص المنصف من نفسه . يستطيع أن يؤدى هذه المهمة بسبيل أنجح ، دون ارتـكابٍ لمثل تلك المخالفة ، وذلك بأن يأتى بالفـكرة فى عبارة موجزة قريبة التناول لفظاً ومعنى . ثم يُنَبِّهَ فى آخر الخطبة على أنه سيبسط القول بعد الصلاة . لمن أراد الاستماع ، والانتفاع . ذلك هو شأن الخطابة الدينيَّة عندنا . وقس عليها سائر المجالات الأخرى .

* * *

الـكُلُّ يكتب مقالا ثم يأتى فيُلْقِيه من على المنبر كخطبة . ولو جاز لنا أن نقول .. عن أمثال هؤلاء : إنهم خطباء .. لوجب علينا أن نقول عن المحاضر والمدرس ، وكُتَّاب الإذاعات ، والصحف والمجلات : إنهم خطباء ، ولم يقل بذلك أحد .

إن الخطابة فن وملـكة . ولا بد للخطيب من أن تـكون [ملـكته] ثابتةً متأصلةً عنده . شأنُه فى ذلك ، شأن الشاعر والقاصِّ ، وكاتب المقال .

ولا بد له بعد ذلك من توفر آلتهـا الخاصة والعامة . كفصاحة اللسان ، وجهارة الصـوت ، وسرعة الاستحضار لمخزون الذاكرة . وسرعة الخاطر ،

وحضور البديهة ، والتحكم فى الانفعالات النفسية ، وتكييفها.. حسبما يقتضيه الموقف والمقام .

ومن أهم تلك الآلات: الثروة اللغوية المُمِدَّة بكثير من الضروريات فى مثل هذا المجال .

ومستلزمات الخطيب كثيرة ، يطول بنا الوقت لو أردنا عدها . وهى مبسوطة فى كتب الأدب وتاريخه. فحسبنا منها ماذكرناه .

تتمة موضـــوع الخطابة :

أما الخطابة السياسية وخطب المحافل ، فإنها حديثة الوجود [فى نجد] .

فلقد بدأت بواكير خطب المحافل فيها بافتتاح أسبق نادٍ أدبى هنا عام ١٣٧٢ وهو نادى المعهد العلمى بالرياض -[الذى] تبعته نوادٍ أدبية ورياضية [أخرى] كان لها شأن عظيم .. فى حياتنا الفكرية عموماً والخطابة خصوصاً .

وأما الخطابة السياسية .. فمن الصعب تحديد زمن ظهورها، غير أننا نستطيع أن نقول - بكل اعتزاز واطمئنان إلى صدق مانقول :-

إن محافلنا أصبحت عامرة بالخطباء المصاقع . لافرق فى ذلك بين المحافل السياسية وغير السياسية - على أننا مازلنا نَنْشُدُ المزيد ، ونطمح إلى الوصول إلى ماهو أفضل ..شأننا فى كافة مجالات الحياة .

٢ — الكِتابة :

كانت الأمة العربية فى جاهليتها. أمةً أُمِّيَّةً لاتقرأ ولاتكتب، وفى الإسلام شُغِلَ المسلمون بالمغازى والفتوح .. زد على ذلك . أن انتشار الكتابة ، دائما كان فى الحواضر - كمكة ، والمدينة ، والكوفة ، ودمشق- وبعد ما مضى

عهد الفتوح .. كان عهد نسيان التاريخ لنَجْدٍ قد بدأ ، فمن التكلف إذاً أن نحاول البحث عن أى نوع يستحق الذكر من الكتابة فى ماضى نجد .. المنتهى بقيام الإمام المجدِّد محمد بن عبد الوهاب ، الذى بدأ بإصلاحه عهداً جديداً . لا لنجد وحدها بل للعرب والمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، لأنه [كان] الرائد الأول ، والإمام المتَّبَع فى طريق الإصلاح .. فى عصرنا الحديث .

الكتابة فى نجد فى العصر الحديث :

كانت حركةُ الإصلاح التى قادها محمد بن عبد الوهاب ، والأمير محمد بن سعود ، قد استهدفت ـ أوَّلَ ما استهدفت ـ الإصلاحَ الدينى . إذ هو الأهم . وعن طريقة يسهل الإصلاح لما فسد من الأحوال الخاصة ، ومن هنا ينكشف لنا سر تقدم الكتابة العلمية ـ كتابة التأليف ـ على [ما] سواها . وهو ما سنحاول إيضاحه فيما يلى :

أقسام الكتابة :

جرى علماء تاريخ الأدب على تقسيم الكتابة إلى ثلاثة أقسام :

١ — الكتابة الديوانية .

٢ — الكتابة العلمية :

٣ — الكتابة الفنية :

الكتابة الديونية :

إن المتتبع للكتابة الديوانية منذ ظهور الإمام إلى مطلع الثلث الأخير من هـــذا القرن . يجد أنها تسير فى أسلوبها ولفظها . على نهجين — متباينين كلّ التباين .

فتارة تلمح فيها الأسلوبَ العلمى ، واللفظ الفصيح .

وأخرى نجدها . تجنح إلى العامية فى لفظها وأسلوبها .

ولعل ذلك راجع إلى اختلاف ثقافة القائمين بها .

فهم إما من العلماء الذين لم يألفوا غـــير كتابة التأليف . فتناولوا كتابة الديوان بذلك الأسلوب .

أو [من] العامة الذين تعلموا القراءة والكتابة ، وذلك شىء عظيم فى تلك الأيام .

وقد يعمد بعض العلماء ، إلى ركوب العاميةِ ، فى محاولة إيصال الغرض المقصود إلى ذهن المخاطِب العامىّ .

ومن هذا وذاك . الرسالتان الآتيتان :

أولا : ـــ رسالة للإمام عبدالله بن فيصل بن تركى : (ا)

من عبدالله بن فيصل إلى الأمير مجاهد بن عبدالله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد :

يكون عندك معلوما أن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما قال تعـــالى : « ولْتَكُنْ منْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلىَ الْخَيْرِ وَيأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ »(١)

وأوجبه (ص) كما فى الحديث « مَنْ رَأى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بيدِهِ فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبلِسَانِهِ ، فَإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ : فَبِقَلْبِهِ ، [وَهَذا أَضْعَفُ الإيمَانِ] .

(ا) الدرر السنية جمع الشيخ عبد الرحمن بن قاسم (جـ ٧ ص٤٢)

(١) الآية ١٠٤ من سورة آل عمران .

وأنتَ ولله الحمد ـ لك القدرةُ باليد واللسان . ويُذْكَرُ لنا أنه يَحدُثُ فى بلدتكم بعضُ المنكرات.. من موالاة المشركين، ومحبة أعداء الدين، وعدم تنظيم أحكام الشرع ، وشرب المسكرات ، والتهاون عن الصلوات . بالحاضر أنا مُلْزِمُك ، ومن ذمتى فى ذمتك . أنَّكَ تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر، وتنظِّمُ أحكام الشرع وتأخذ على يد السفيه . ولا تأخذْك فى الله لومةُ لائم .

وعبدُ المحسن وابنُه [كُنَّا] ملزميهم[1] الأمرَ بالمعروف . والنهىَ عن المنكر . وما بينوا لك فيلزمك القيام به، وتَجْعَلُ معهم من يعاضدهم ، وتجعل فى كل طَرَفٍ أناسا من أهله يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ،ويكون نَاظِرَةً عليهم ، ويكون عندك معلوما : أنه من يتعرض لآمر بالمعروف ، أو لنَاهٍ عن المنكر . خاصٌ أو عامٌ . فلا يكفينا نكالهُ بماله دون حاله . ويلزمكم [أن] ترفعوا خبره إلينا .

كذلك يُذْكَرُ لنا أنه ينزل فى القيظ عندكم فى أطراف البلد طلبة يحصل منهم فساد فأنت نبه عليهم ألاَّ ينزلوها . ومن نزلها فالأدب فى رأسك.. والسلام.

* * *

ثانيا : وهذه رسالة أخرى من الإمام عبد العزيز بن محمد نقتطف [من] أولها [ما يلى] (١)

من عبدالعزيز بن محمد . إلى الأخ فى الله محمدِ بن أحمدَ الحفظى سلمه الله تعالى من الآفات ، واستعمله بالباقيات الصالحات .

---

(١) فى الأصل : « ملزمينهم » ولا أدرى هل نص الخطابة كذلك ؟ أم هو تحريف .

(١) الدرر السنية جـ ٧ ص ٣٥٢

فإنا نحمد إليـكم الله الذى لا إله إلا هو .و [هو] للحمد أهل . وهو على كل شيء قدير . وأسأله أن يصلى على حبيبه من خلقه ، وخِيرَتِهِ من بُرِيَّتِهِ . محمد عليه أفضل الصلاة ، وأزكى السلام والتحيات .. وصل الخطاب ـ وصلك الله إلى رضوانه ـ ، وما أَشَرْتَ إليه من النصيحة صار عندنا معلوماً . جزاك الله عنا خيراً ، ونسأله المعونة والتوفيق والتسديد .. فى جميـع الأحوال الظاهرة والخفية . وما أَشَرْتَ إليـه فى أن بعض القادمين علينا يأخذون منا أوراقاً .. يريدون بها الجاه . والتَّرَفُّعَ على من بينه وبينهم ضغائن جاهلية . فأنت تفهم أن المملوك ليس له اطِّلَاعٌ على السرائر . وإنما عليه الأخذ بالظواهر . والله يتولى السرائر ، ومن خَدَعَنَا بالله ، انخدعْنَا له .

فإذا جاءنا من يقول : أنا أريد أَنْ أبايعـكم على دين الله ورسوله وافقناه ، وبايعناه ، وبيَّنَّا له الدين الذى بعث الله به رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ونأمره بذلك ، ونحضُّه على القيام به فى بلده ، ودعوة الناس إليه وجهاد من خالفه ، فإذا خالف ذلك وغدر . فالله حسيبه » .

* * *

ولقد استمر ذلك الأسلوب المتبـاين ، والمتباعد عما يجب أن تـكون عليه الـكتابة الديوانية ـ من الوضوح والسهولة ومساواة اللفظ للمعنى ، مع فصاحة فى اللفظ والتركيب ـ حتى نهاية سبعينيات هذا القرن ، حيث بدأت طلائع المدارس تُؤْتِى ثمارها . فأخذت الـكتابة الديوانية . تدنو من مجال أسلوبها شيئاً فشيئاً حتى وصلت الذروة ، فى أيامنا هذه .

ودلائل ذلك تتقلب فى أيديكم صباح مساء .

الـكتابة العلمية :

لقد واكبت الـكتابةُ العلمية النهضةَ الوهابيةَ منذ بزوغ فجرها المبارك فى منتصف القرن الثانى عشر ، ولا أجد فيما قرأت دليلا ، ينفى أو يثبت وجودها قبل ذلك التاريخ . غير أنى لا أستبعد وجود مؤلَّفاتٍ فى مجالات التاريخ ، والفقه والتفسير ، ونحوها ، أضاعها الإهمالُ ، وصُدُوفُ الدارسين وطلاب العلم عن العناية بها ، بل وعن مجرد اقتنائها .

حدثنى فضيلة الشيخ الوَرِعُ عبدُ الرحمن بن قاسم : أنه قد عَثَرَ فى منطقة « سُدَيْر » على كتاب اسمه « السُّحُبُ الوابلة فى تَرَاجِم الحنابلة » . وقال : إن صادًّا مما فى صلب الـكتاب صده عن استنساخه ، واقتنائه ، ولم أسمع أن أحداً من علماء النهضة الوهابية . كتب تحت هذا العنوان أو فى هـذا المجال . فلابد إذن أن يـكون قبل النهضة . ومهما يـكن فإن الحـكم [يكون] على الموجود ، ونحن لا نجد إلا مؤلفات أئمة الدعوة (وَالصَّيْدُ كُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا)[1] .

ولقد استمرت حركة التأليف المباركة فى ازدهار متصل ، وجهد متواصل . حتى أضاف بها أربابهـا إلى مكتبة الإسلام كنوزاً على كنوزها ، لم ينقطع مددها وسيبقى ، ما بقيت الدعوة ، والمُتَبَنُّون لها ، الذائدون عن حياضها .. حياض الحق .. حياض الإسلام .

---

(١) نصُّ المثل فى الميدانى (٢:١٣٦) وبرقم ٣٠١٠ : « كل الصيد فى جوف الفرا » . والفرا ـ كاذ كرابن السِّكِّيت ـ حمار الوحش ، وراجع قصة المثل إن شئت .

ولقد أنجبت الدعوة كثيراً من المؤلفين المكثرين .. مع قدرة وجدارة ونفاذ بصيرة ، وكم كنت أتمنى لو سمح لى المقام فأبسُطَ القول فيهم ، وفى مؤلفاتهم .. عدًّا وعَرْضاً وتقييماً .

وعزائى فى ذلك أن كتاباً جليلا لفضيلة الشيخ عبد الرحمن بن قاسم عن علماء هذا العصر ـ سوف يصدر قريباً ـ آمل أن يكون فيه مايشفى الغُلَّةَ ، ويَرْوِى الظمأ .

على أن من يدرس مؤلفات أئمة الدعوة وأبناء عصرها لابد من أن يخرج بالنتيجة الآتية :

١ ـ أن أسلوب تلك المؤلفات يحدد بوضوح نوع ثقافة مؤلفيها وذلك باتباعهم ـ فى أساليبهم وأفكارهم ـ لإمامين جليلين [هما] شيخ الإسلام ابْنُ تَيْمِيَّةَ(١) وابن القيِّم(٢) .

غير أنهم استطاعوا التخلص من ذلك العمق الموغل المشبه للتعقيد والإيهام الذى اتسم به غالباً أسلوب الإمام ابن تيمية . كما أن مسحة من لغة مؤلفات

---

(١) هو الإمام العظيم أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية «الحَرْنَانِىّ» الدمشقى الحنبلى المولود فى حرَّانَ سنة ٦٦١ هـ/ ١٢٦٣م ، والمتوفى سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٨م ، وحرنانى : نسبة إلى «حرَّان» وهى بلد بالشام ـ قال فى القاموس ـ مادة حرن ـ : وكَشَدَّادٍ : شاعر مَصِّيصِىٌّ ، وبلد بالشام ، والنسبة : حَرْنَانِىٌّ ، ولا تَقُل: حَرَّانِىٌّ ، وإن كان قياساً .

(٢) هو الإمام التقى ، والعالم الذكى : ابن القيم الجوزية تلميذ ابن تيمية وحامل لواء مذهبه الحنبلى ، وكان ذا مكانة سامية بين علماء عصره .

عصور المماليك تلوح على لغة مؤلفاتهم إجمالا .

٢ — ركوب بعضهم لِلُغَاتٍ ضعيفة ، يَزْدَرِيها النحاة ، كلغة (أَكَلُونِي الْبَرَاغِيثُ) ـ على حد تعبير النحاة .

ومثال ذلك فى كتاب « تاريخ نجد » للشيخ ابن عيسى .

ولما كان الشىء بالشىء يُذْكَرُ فقد حضرنى سؤال .. كم تمنيت توجيهه إلى علماء النحو ـ الحاضر منهم والغابر ـ وهو :

إذا كان المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد نطق بهذه اللغة فى قوله : ـ مما رواه البخارى ص٧٤ مطبعة المعاهد عام ١٣٥٢ .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلعم [قال] : يتعاقبون فيكم ملائكةٌ بالليل ، وملائكةٌ بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الفجر » الحديث .

فكيف يجوز لنا ازدراؤها ، وقد وَرَدَتْ على لسان أفصح العرب ؟ ـ كما حدَّث بذلك فى قوله : « أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ بَيْدَ أَنِّى مِنْ قُرَيْشٍ [1] »

٣ — وفى الموضوع نجد أنهم لم يخرجوا عن الموضوعات الدينية إلا فى القليل النادر ، وفى التاريخ فقط .

وأحظى الموضوعات الدينية عندهم مايتصل بأصول الدين ، والدعوة إلى الله وذلك هو الغرض الذى من أجله قامت دعوة الإمام المجاهد محمد بن عبد الوهاب ثم اتسعت المدارك ، وتنوعت الثقافات واطَّلَع العلماء على أساليب علمية حديثة ،

---

(٢) بَيْدَ أنى ، وبَايِدَ أنى : بمعنى : غير أنى ، أو : على أنى ، أو : من أجل أنى ، وكلها صالح أن يراد هنا .

لم يعهدوها فى قديم المؤلفات ، وذلك بعد شيوع الوسائل التثقيفية الخاصة والعامة : فبدأت بواكير ذلك كله تظهر فى العشرين السنة الأخيرة .

وإذا شئت نموذجاً لذلك فاقرأ مثلا كتاب « مدينة الرياض » .. للأستاذ حمد الجاسر : أو اقرأ كتاب « الصحة العامة » .. للدكتور يوسف الحميدان ، أو غيرهما .. مما ظهر فى هذه الفترة ،ولسوف ترى أن هؤلاء المؤلفين استطاعوا أن ينجوا بأساليبهم مما وقعت فيه الأساليب القديمة من أخطاء ، كتكاف السجع ، والإكثار من الحشو ، وكذا الضعف اللغوى (١) .

الكتابة الفنية :

تمتاز الكتابة الفنية عن سابقتيها : بأنها مجالٌ رحبٌ تظهر فيه شخوص المشاعر والإحساسات البشرية ، والعواطف الإنسانية ، ويكون الفضل فيها لمن يتقن التلاعب بالألفاظ ، والأساليب البليغة .

وعلى هذا تتفاوت رتب الكاتبين ، حَسَبَ تفاوت حظوظهم وأنصبتهم فى اللغة والبلاغة .

ولو أردنا أن نضع تعريفاً شاملا للكتابة — كالذى نفعله حينما يكون المجال علمياً — فإن ذلك يصعب علينا إلى أبعد حد من الصعوبة .

فالفنون الأدبية ـ بطبيعتها الانطلاقية ـ تأبى القيود والحدود .. غير أنا نستطيع أن نقسمها باعتبار كلياتها إلى ثلاثة أقسام :ـ

١ — رسالة . ٢ — مقالة . ٣ — قصة :

---

(١) ومن أشهر المؤلفين على هذا النمط : الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن ، والمؤرخ عثمان بن بشر ، والشيخ سليمان بن سحمان .

وتحت كل كُلِّيَّةٍ ـ من هذه الكليات الثلاث ـ جزئيات كثيرة يصعب عَدُّها .. إن لم يتعذر .

والكتابة الفنية ـــ على هذا المفهوم ـــ : لم يكن لها وجود فى هذا الجزء العزيز من بلادنا « نجد » .. إلا بعد منتصف هذا القرن بعشرة أعوام تقريباً .. حينما بدأت طلائع الشبيبة المثقفة تتناول موضوعاتها بأقلامهم المتفتحة .

ولكى نكون أكثر تَحَرِّياً للصواب فى حديثنا هذا ، نقول : إن بذور الرسائل الإخوانية ، قد رُمِيَتْ قبل (١٣٤) عاماً تقريباً . بِيَدِ العالم الجليل والأديب اللبيب .. فضيلة الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن الملقب بالأزهرى ـ لكونه دَرَسَ بالأزهر ـ وكان قد سافر إلى مصر بصحبة أبيه الذى أُجْبِرَ على السفر إلى هناك ... بعد الأحداث التى اجتاحت بلادنا ، فأقام هناك (٣٠) عاماً أخذ أثناءها العلم عن كثير من علماء الأزهر . بجانب ما كان يتلقاه على أبيه . ثم عاد إلى نجد عام (١٢٦٤هـ) فى عهد الإمام فيصل بن تركى . وكان أبوه قد سبقه إليها بـ (٢٣) عاماً ، وخلَّفه ليستكمل حظه من العلم .. خاصة فيما يتصل بعلوم اللسان .

وكان ـــ رحمه الله ـــ كاتباً بليغاً وشاعراً مُجيداً .. بجانب ما اتصف به من سعة فى الرواية والدراية والفقه ، وتوفى ـ رحمه الله ـ عام (١٢٩٣) وله كتابات كثيرة وبليغة وأشعار جيدة .

ومن إخوانياته ... نجتزئ لكم هذه القطعة من رسالة بعثها إلى الشيخ « ابن عتيق » .. [و] منها : ـ (١) .

---

(١) الدرر السنية ص ٣١ .

« وما أشرتَ إليـه صار معلوماً ، لاسيَّماَ الْإِشَارَةُ الخفية ، والنكت الأدبية ؟ التى منها تشبيه أخيك بالطير المُبَرْقَع ، وإيراد الوعظ ، وأنت بمكانٍ عُلُوٍّ أرفع ، وكنتُ حال وصوله قد قرأتُه بمرأى من أهل الأدب ومَسْمَعٍ .. فمن قائل عند سماعه : هذا الرجل طبعه الغلظة والجمود ، وآخر يقول : كأنه لا يحسن الدعوة إلى ربنا المعبود ، فقلتُ : كَلاَّ .. إنه ابْنُ جَلَا [1] ، وله السبق فى مضمار الديانة والعُلَا . لـكنَّ من عادته أنه يتجاسر على أحبابه ، وَيَزْدَرِى رُتَبَ إِخْوَانه وأترابه ... والمحب له الدَّلَالُ ، والمرء يَشْرَقُ بالزُّلال » (١) .

غير أنه قد مضى على رمى تلك البذور قرنٌ وَثُلُثٌ تقريباً .. فما الذى أضيف إلى عمل الشيخ عبد اللطيف ؟

لا شىء مطلقاً ــ فلقد بقيت نجد قفراً من الكتابة الفنية .. خَلَاءً من فنونها وبدائعها .. حتى نهاية السّتينيات من هذا القرنْ . حيث بدأت طلائعها تُطِلُّ فى شُحُوبٍ وضُمور . شأنُ كل فنٍّ يبدأ من عدم مَهِينٍ .

---

(١) ابن جلا . الواضح الأمر ـ كابن أَجْلَى ـ ، أو المراد : ابن من جلا الأمور وأوضحها ، وفى ذلك يقول : سُحَيْمُ بْنُ وَثِيلٍ الرِّيَاحِىّ :

أنا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنايَا مَتَى أَضَعِ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِى

وقد تمثل به الحجاج بن يوسف الثقفى فى خطابته أهلَ العراق أول ولايته عليهم، يراجع المثل رقم ١٢٠ « أنا ابن جلا » فى مجمع الأمثال للميدانى (١:٣١) .

(١) ذُكر لى : أن الشيخ عبد اللطيف قد كتب جملة من المقامات وصفت بأنها نفيسة .. إلا أنى لم أعثر على شىء منها بعد .

غير أنها لم تـكد تغشى هذا المجتمع الهادىء المسكين حتى تلقفتها نفوسٌ اشتدَّ بها الشوق ، وطال بهـا الحنين .. إلى ضالَّة كانت تَنْشُدُها وهى لا تعرفها ، وتبحث عنها .. [وهى] لا تدرى أين الطريق ؟.

فاندفعت بها ـ بروح العصر ـ السرعة التى لا تعرف الحدود ، ولا تقعدها القيود ، فى سبيل الهدف المنشود . حتى قاربت الغاية ، وأوشكت على بلوغ الذروة .. موضوعاً وأسلوباً ولغة ، وكان ذلك نتيجة لتفاعل كثير من العوامل المختلفة .. التى من أهمها : شيوع التعليم بمراحله المختلفة ، ثم الإذاعةُ والصحفُ والمَجلَّاتُ والمطابعُ والمـكتباتُ .

غير أن الإقبال على ما [كان] يكتبه الأدباء الـكبار فى العالم العربى ـ كالرافعى ، وطه حسين ، وأحمد أمين . وعباس العقاد . وأمثالهم من كبار الـكاتبين ، ومحاولة هضم تلك الـكتابات ، ثم محاولة تقليدها ومحاكاتها ـ كان له أبلغ الأثر فى دفع أقلام ناشئينا إلى إجادة الـكتابة الفنية ، حتى أصبح فى أيدينا كثير من النمـاذج الصالحة فى هذا المجال .. كـكتابات الأساتذة : حَمَدِ الجاسرِ ، وعبدِ الله بن خميس ، وعبدِ الله بن إد ريس ، وسعد البواردى والجُهَيْمَان ، وزيد بن فياض ، وغيرُهم كثيرون .

غير أن ذلك التقدم الباهر الذى أحرزته الـكتابة عنـدنا إنما كان داخل إطار المقالة وما أشبهها .

أما القصة فما زلنا نلمح سمات التقليد والمحاكاة فيها ، [ومازلنا نحس] أنهـا تعيش فى أجواء وآفاق غريبة على البيئة التى كُتِبَتْ فيها ومن أجلهـا ، وإن كانت فى بعض جوانبها الفنية قد بلغت مبلغاً لا بأس به ، [وقد] اختلفت حظوظها

فى ذلك .. غير أنها فى الجملة [ظلت] سليمة اللغة ، نزيهة الغرض .

وخير مثال لذلك: القِصَصُ التالية التى كتبها الأستاذ الأديب إبراهيم الناصر .. [بعنوان] :

« أمهاتنا والنضال » ، و « ثقب فى رداء الليل » ، و « أرض بلا مطر » .

* * *

هذه لمحة تاريخية مُجْمَلِة عن الكتابة فى هذا الجزء من بلادنا العزيزة ، وهى لمحة مجرَّدَةٌ عن الدرس والتحليل ، مُعَرَّاة عن النقد والتقييم .. لأنها بداية طريق وفاتحةُ جُهْدٍ .. آملُ أن تُوصَلَ بما هو أجدى .

* * *

كلمةٌ أخيرة أود قَوْلَها ونحن نغادر هذه اللمحة . وأملى ألاَّ أُغضب بها أحداً وهى أننا ـ مع ما أحرزناه من تقدم عظيم فى مجال الأدب عموماً والكتابة خصوصاً ـ مانزال نشعر أننا لم نَدْنُ من الهدف فى كتابتنا ، ومازال كُتَّابُنَا فى جملتهم كتاب صحف وليسوا بأدباء[1] .

وعزاؤنا فى ذلك أن العهد لم يَطُلْ بهم ، وأن البراعم حديثة التفتح ، فالمستقبل أمامهم أكثر رحابة وانفتاحاً .

أقول ذلك لأن المستوى الأدبى الذى نَنْشُدُهُ ، هو الذى أَلِفْنَاهُ لدى شيوخ الأدب فى هذا العصر .. أولئك الذين مازلنا نعيش على مادَفَقَتْهُ أقلامهم الغنية ـ من أمثال : أحمد أمين ، والرافعى ، وطه حسين ، والعقاد ، وغيرهم .

ولو أجزنا لأنفسنا صرف النظر عن أدب أمثال أولئك .. لجاز لنا أن نقول

---

(١) هذا القول ـ كما قلنا ـ إجمالى ولا يعنى عدم وجود كتاب مجيدين ، فمثل عبد الله بن خميس ، والشيخ حمد الجاسر ، ومن على شاكلتهما وهم قلائل لا يصح إدراجهم تحت هذا الحكم .

بأنْ لاشىء ينقص أدبنا ، ولكن من أين لنا ذلك الجواز ؟

قد يقول قائل : إن ظروفاً وأسباباً عديدة عاصرها أولئك الشيوخ . . هيأت لهم إنجاب مثل ذلك الأدب ، ومنها على سبيل المثال : أنهم وجدوا فكراً بكراً ، وخامات جديدة طريفة أحسنوا استغلالها ، فأنجبوا ما أنجبوا .

ولكن متى كان الفكر ثيّباً ؟ ومتى كانت الأسباب وقفاً على فئة دون أخرى ؟

هنالك ظاهرة خطرة تجتاح جيلنا الجديد ، ربما كانت هى رأْسَ الداء وأساسَ البلاء .

إنها هبوط مستوى القراءة التى هى أكثر مشاكلنا الفكرية تعقيداً .. لأن الباحث فيها يجد أمامه مشاكل جمّة ، لامشكلة واحدة ، فالتعليم والاقتصاد والإعلام والأحوال الاجتماعيةُ الخاصة والعامة ، كلها جوانب هامة للمشكلة .

إنها انصراف الناشئة عن الأدب الرفيع ، وكلّ ما من شأنه رفعُ المستوى الفكرى عامة والأدبى خاصة . . فى أمة مازالت فى بداية الطريق لتكوين شخصيتها الأدبية ، وإيجاد مجتمع يتمتع بمستوًى فكرى تام .

إننا ـ والحق يقال ـ : نعاصر أزمة فكرية عنيفةً كل العنف .. على أننا لسنا وحدنا فى هذا الصراع الفكرى الذى طرفاه : نافع ، وغير نافع . . بل إن جميع العالم العربى ـ إن لم نقل العالم بأسره ـ يعانى من هذه المشكلة آلاماً وآلاما .

فما مصدر ذلك الداء ياتُرى ؟

لعلنا نستطيع استكشاف ملتقى خيوط المشكلة فى الأمور الآتية :

١ ـ المدرسة : فلقد ساهمت المدارس الابتدائية والمتوسطة فى إيجاد هذا الوضع

الخطير .. وذلك عن طريق إهمال المدرسين ـ قصداً .. أو جهلاً ، وهو الغالب ـ تَوْجِيهَ الطلاب الوِجْهَةَ الصالحة ، وإثارة رغباتهم فى القراءة الحرة النافعة وتنفيرهم ـ عن طريق غير مباشر ـ من الكتب الجنسية والبوليسية وما لَفَّ لِفَّها .

غير أنه ليس من العدل والإنصاف أن نضع المُدَرِّسَ وحده أمام المسئولية ونحن لم نهيئه لتلك المسئولية ، ولم نَبْذُل من أجل توعيته هو أدنى جهد .

وكيف نطالبه بما لم نؤهله له ؟ .. والمثل يقول : فاقد الشيء لا يعطيه .

٢ ـ انكماش القراءة المنزلية بعد انهزامها أمام وسائل التسلية والترفيه الثلاث : « الإذاعة والسينما والتليفزيون » بصورتها المرئية وصوتها المجهور .

٣ ـ الصحافة التى اتجهت بجهودها إلى الصورة والخبر المثير .

٤ ـ غلاء الكتاب العربى إذا ما قيس بمثيله الأجنبى فى البلاد الأوربية .. مثلا .

٥ ـ فِقْدَانِ الأدب لمثل تلك الخصومات الأدبية التى كانت تنشأ بين كبار الأدباء من أمثال : الرافعىِّ والعقاد وطه حسينٍ .. وأمثالُهم كثير .

على أن إفساح المجال لمثل تلك الخصومات يجب أن يكون خاضعاً لِرَقَابَةٍ واعية ، وطريقة مدروسة .. حتى لا تَؤُولَ الحال إلى مهاترات ومشاجرات عقيمة ، قد تأتى بنتيجة عكسية .

هذه عُجالة مُذَكِّرٍ .. ودعوةُ مستثيرٍ مُهِيبٍ بالدارسين لأحوال مجتمعهم .. أن يُولُوا أمثالَ هذه المشكلة اهتمامَهم ، والمجتمعُ يستصرخهم .. فهل من مجيب ؟!!.

٦ ـ المكتبات التجارية ـ « حوانيت الكُتُب » : وهذه تفرض

عَلَىَّ أَنْ أُسَجِّلَ ملاحظة هامة ، هى ـ مع بالغ الأسف ـ حقيقةٌ واقعة فى مكتباتنا التِّجَارية سأكتفى بإثباتها دون أدنى تعليق !!! آمِلا أن يكون فى هذا الذكر لَفْتٌ لِنظَرِ الباحثين والدارسين لأحوالنا الاجتماعية والفكرية ، فهى جديرة ـ والحق يقال ـ بأن يُفْرَدَ لها أكثرُ من محاضرة .

لعلنا ـ [أيها السادة] ـ قد أطلنا فى التقديم لهذهِ الملاحظة حتى استشرفت نفوسكم لمعرفتها .

اسمعوها إذَن، وإياكم أن تقولوا : « تَمَخَّضَ الجَبَلُ فَوَلَدَ فأْرًا[1] »!!

هذه الملاحظة هى أن المتتبع لمكتباتنا التجارية يجد أنها كلما تقدم بها السن كلما زاد عزُوفُها عن الكتب القيمة التى تشغل التسلية حيزاً يسيراً فى محيطها المُفْعَمِ بالحقائق العلمية والفكرية الصائبة والرأى المستبين .. بينما يزداد اهتمام تلك المكتبات نفسها بمايصح أن نسميه بـ«أوراق التسول فى أسواق الأدب» .

تلك لَعَمْرِى مشكلةُ المشاكل فى أزمتنا الفكرية التى نعيش بها هذا العصرَ المملوء بالمتناقضات .. يتلمس الفكر الْحُرُّ طريقه بين أشواكها وطحالبها المتعفنة .

تُرَى هل سيهتدى إلى تلك الطريق ؟ ! !

إن حياة المجتمعات الإنسانية ترتكز على قاعدتين أساسيتين .. [هما] : المادة والروحانية . وهاتان القاعدتان ضروريتان له كضرورة الماء والهواء .. إن لم نقل : إنهما الحياةُ نفسها .

---

(١) تمخضت الشاة: لقحت وحملت ، والمراد ـ هنا ـ التهوين والازدراء .. لأن المفروض أن الشيء الضخم لا يلد إلا الضخم .

وإن أدنى محاولة لتقوية إحداهما على حساب الأخرى معناها سلب المجتمع حياته .

إذ فى تحويله إلى الاتجاه المادى سَلْبُهُ الروحانية ، وتَحْوِيلُه إلى حياةٍ حيوانيةٍ صِرْفَةٍ .

وفى تحويله إلى الاتجاه الروحانى سَلْبٌ لمعنى طاقاته البشرية التى استخلفه الله بها فى الأرض لعمارة الحياة .

وذلك شطر مما اسْتُخْلِفَ فيه لا يتم معنى الاستخلاف بدونه : فلا بُدَّ - إذن - فى إقامة المجتمع الصالح .. من ائتلاف المادِّيَّة والروحانِيَّة فيه ، وإلا فهو مجتمع فاشل محكوم عليه بالضياع والفناء .

ومن خلال هذه النافذة على الحياة يمكننا تحديد موقف الأديب .

فالأديب : ليس براهب ولا متصوف يعيش على ما يجود به مجتمعه .. وهو ليس بآلة تَصْهَرُ الحديد وتُفَتِّتُ الصخور ، ولا بعامل يَضْرِبُ بالمِطْرَقَة .. ويمسك بالمحراث .. ويغرس البذور ... وإنما هو ذلك كله .. لأنه خليط من المادية والروحانية .. ككل إنسان استوت فيه هذه الكلمة .. إلا أن الله اصطفاه من بين بنى جنسه .. بأن جعله مصدر الإشعاع الذى يضىء بفكرته الصائبة طريقَ الحياة لأخيه الإنسان .

فَمَن ذلك الأديب ؟ هل كل مَنْ كتب قصيدة أو قصة أو مقالة أديب ؟

إن عيب مجتمعنا أنه لم يعد قادراً على التفريق بين الأدباء .. وبين المرتزقة فى سوق الأدب . فاستوى عنده الأدب السامى فى هدفه ، المتينُ المستقيم فى خلقه ، الأصيل الفصيح فى لغته وفى أسلوبه ، والأدب الهادم فى فكرته

الساقط فى عبارته . . . اللحَّانة فى لُغته . .

فرحم الله مجتمعاً هـذه صفته .. وعزاء لأُدبائه الذين تجنّى عليهم مجتمعهم . . . فأشرك معهم فى رسالتهم مَنْ أفسد عليهم أمرهم ، وأقام فى وجوههم الحواجز والسدود . . . فأسِنَ نبعُهم بعد عُزوفِ الوَارِدِينَ : وهنيئاً للمرتزقة المتكسبين الذين نُنْشِد من أجل خاطرهم قول الشاعر القديم : ـ

يَالَكِ مِنْ قُنْبُرَةٍ بِمَعْمَرِ خَلَا لَكِ الْجَوُّ فَبِيضِي وَاصْفِرِى[1]

وَنَقِّرِى مَاشِئْتِ أَنْ تُنَقِّرِى قَدْ رَحَلَ الصَّيَّادُ عَنْكِ فَابْشِرِى

وَرُفِـعَ الْفَخُّ فَمَاذَا تَحْذَرِى لَابُدَّ مِنْ صَيْدِكِ يَوْماً فَاصْبِرِى

---

(١) قال فى القاموس (مادة قبر) : « وكسُكَّر وصُرَد : طائر . . الواحدة بهاء ، ويقال : القُنْبَراء . جمعها : قنابر ، ولا تقل : قُنْبُرَةٌ ـ كَقُنْفُدَة . . أو لُغَيَّةٌ » .

هذا والأبيات بهذه الرواية وردت فى مجمع الأمثال للميدانى (١: ٢٣٩) المثل رقم ١٢٦٨ ، وهى لطرفة بن العبد الشاعر الجاهلى المشهور ، وفى الأصل ورد البيت الأخير « لابد من ساعة لك فاصبرى » وهو وزن غير سليم ، ولذلك نقلنا الصواب من رواية الميدانى .

ورواية الشعر والشعراء (١: ١٤٠) « يالَكِ مِنْ قُبَّرةٍ » وهى توافق قول القاموس ، وروايته للبيت الأخير هى : « لَابُدَّ أَنْ تصَادِى فاصْبِرِى » ؛ والبيت الرابع هنا: غير موجود هناك ، ـ وهذه الأبيات أول شعر قاله طرفة ـ كما ذكر مؤرخو الأدب .

الأمير محمد بن سعود(١)

أيها القارىء الكريم .. تعالَ معي لنذهبَ معاً إلى نُزهة قصيرة، نريح فيها أسماعنا من ضوضاء مدينة « الرياض » وضجيجها، ومن جَلَبةِ السيارات وأبواقها، وقعقعةِ العَرَبات وصيحات سائقيها، ونستبدل من ذلك هديلَ الحمائم وزَقْزَقةَ العصافير، وحَفِيفَ الأغصان ـ وهى تتراقص أمام النسمات الهادئة ـ لنستنشق الهواءَ الطَّلْقَ، ونحن مُصْعِدُون مع «وادى حنيفة» .. والنخيل والمزارعُ العديدة تحوطُنا من كل جانب، وكأنها تريد أن تُزيل كلَّ أثر تركَتْهُ المدينةُ فى نفوسنا .. لنستقبل التاريخ بكل مافيه من مفاخر وأمجاد، فى تلك التُّربة الصغيرة التى كانت فى زمنٍ مَّا عاصمةً لهذه المملكة قبل «الرياض» والتى يفصل بين جزءيها وادى حنيفة الشهير .

أظنك قد تبينت الآن مكان رحلتنا .. [إنه] تلك القرية العامرة الآن بالنخيل والبساتين .

أما المساكن ففيها القسم الجديد الواقع على حافّة الوادى الشمالية .

وأما القسم القديم فعلى حافّتِهِ الجنوبية .

إنها « الدِّرْعِيَّةُ » القائمة هناك على تلك الحافّة الجنوبية .. حيث تقف جدرانٌ شاهقة قوية .. تصارع العصور والأعاصير . بعد أن تحطمت مدافع الأتراك فى سبيل هدمها فلم تفلح، وتبدو آثار تلفت الناظر إلى مجد تليد، نشأ فى ظلِّ مَديدٍ، للواء رُفِعَ فى سبيل الله، ليعيد الأمة الإسلامية إلى حظيرة الإسلام، بعد أن تاهت فى مغارات موحشة مظلمة .. من الجهل والضلال .

هناك فى تلك المعاهد، وبين هذه الأطلال .. كان يقيم الأمير الجليل محمد بن سعود ـ رحمه الله وطيب ثراه، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير جزاء وأوفره ـ

---

(١) نشرت فى مجلة «راية الإسلام» التى كانت تصدر فى الرياض ١٣٧٩هـ .

ولقد كنت أريد أن أبدأ السلسلة من أول حلقة فيها .. بأن أتحدث لك عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب.. غير أن شيخنا الجليل عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ قد كفانا ذلك، وما أراك — بعد ما كتبه — فى حاجة إلى كتابتى والمثل يقول: « أَهْلُ مَكَّةَ أَدْرَى بِشِعَابِهَا »

لذا سيكون حديثنا هذا عن محمد بن سعود، أقوى نصير وأصدقه لإمام هذه النهضة وقائدها.. الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحم الله الزعيمين وأسكنهما فسيح جناته . . .

كانت نجد ـ فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الهجرى ـ قد بلغت من الاكتظاظ [بالمفاسد] والانحلال الخلقى والدينى، والاجتماعى والسياسى إلى أبعد حد من الانحطاط والانحدار، ولم يكن هناك أى رابطة سياسية تجمع أهل هذه البلاد، بل كان لكل قرية أميرها الخاص، ولكل قَطِينٍ [1] من البادية أميره الخاص، [وكانوا جميعا] لا خلاق لهم [ولا ارتباط بينهم .. حين] تُغِيرُ القرية على القرية، والقطينُ على القطين .

وكان محمد بن سعود أميراً على « الدِّرْعِيَّة »، وفى العام السابع والخمسين والمائة بعد الألف كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، قد جاوزت « العُيَيْنَةَ » إلى غيرها، وآمن بها فى « الدرعية » وغيرها من آمن .

فهاجر الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى « الدرعية » بعد أن غلب الشقاء على عثمانَ بن مُعَمَّرٍ أمير « العُيَيْنَةَ » فباع الباقى بالفانى، وتَخَلَّى عن نُصْرَة الشيخ، وأخرجه منها راجلا وقت الهجير، بل وأمر الفارس الذى وَكَلَ إليه أمر إبعاده أن يقتله عند ما يصل إلى قبر رجل صالح [هناك] ، اسمه أيوب

(١) القطين : جمع قاطن .. أى مقيم .

وقال للفارس : إذا بلغت به قبر أخيه فاقتله ، فكان الله مع الشيخ .

* * *

لندع الشيخ يسير في طريقه ، ويذود عن وجهه لفح الهجير ، بِرِوْحَتِهِ اليدوية ، ويَدْفَعُ الهم عن قلبه .. بالتسبيح والتهليل وتلاوة القرآن .

ولنسبقه إلى « الدِّرعية » لنعرف بعض الشيء عن أميرها محمد .. الذي أسَّسَ حكومة « آل سعود » .

نسبه :

هو الأمير محمد بن سعود بن مُقرِّن بن مَرْخَان بن إبراهيم بن موسى ابن ربيعة بن مانع — من قبيلة « عَنَزَةَ »[1] العدنانية .

وكان مانِعٌ هذا يسكن الساحل الشرقيَّ من الجزيرة العربية القريبَ من « قَطَرَ » مع قبيلة « الدُّرُوع »[2] [كما] كان له صلة نسب وصداقة بابن دِرْع .. أمير حِجْرِ اليمامة « الرياض » ، فوعده بالإكرام ، فوافق « مانع » لأنه سئم المقامَ هناك .

وكانتِ الدرعية تابعةً لابن دِرْع فاقتطع له منها أَرَضِينَ « المُلَيْبِيدَ » و « غُصَيْبَةَ » ، وتم انتقال « مانع » في منتصف القرن التاسع الهجري إلى « الدرعية » ، وأخذ في تعمير أرضه ، وتولى أمر الأرض من بعده ابنُه « ربيعة » وكان أكثر منه معرفةً بمُدَارَاة الناس ومجاراتهم ، فاتسعت أملاكه ، وتأمّر على تلك الناحية ، وصارتِ الإمارة تنتقل في أبناء « مانع » وأحفاده .. الواحدِ بعد الواحد . . إلى أن آلت إلى الأمير الإمام محمد بن سعود الذي جمع الله

---

(١) هم نسل عَنَزة بن أسد بن ربيعة ، أو ابن عَمْرِو بن عون .

(٢) لعلهم نسبة إلى ذي الدروع .. فُرْعَان الكِنْدي .. من بني الحارث ابن عمرو .

به كلمة أهل نجد ومن جاورهم ، ووحّد به الصفوف حينما مد يده لمساعدة إمام الدعوة .. الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

نشأته وتوليه الإمارة :

نشأ الأمير محمد محوطاً بحسن الرعاية والتوجيه من والده سعود الذى حَرِصَ على أن يَنْشَأ ابنه على أفضل مايَنشأُ عليه أبناء الأمراء فى ذلك العصر من أعمال الفروسية . . كالرماية والكر والفر ، والمطاردة والمجالدة .. إلى غرس الأخلاق الفاضلة ، والصفات المحمودة فى نفوسهم ..

وفى عام ١١٣٩ هـ تولى الأمير محمد إمارة الدرعية ، وما جاورها من الأراضى ، من مقرن بن ربيعة ، وكان — أى الأمير محمد — مهيباً فى قومه ذا تَجِلَّةٍ ووقار ، يَحْسِبُ الرجال لمقابلته ألف حساب . لذا ضاق محمد وأحمد آل سويلم — وهما من وجهاء الدرعية — ، بالشيخ محمد بن عبد الوهاب حينما نزل بضيافتهما، وهابا الأمير محمداً، فلجأ إلى زوجته— وكانت امرأةً ذات عقل وصلاح — فاستطاعت أن تقنعه بالذهاب إلى الشيخ ، ومما قالته له : « إن هـذا الرجل أتى إليك ، وهو غنيمة ساقها الله لك ، فأكرمه وعظمه واغتنم نُصْرَته .

ويبدو أنها [كانت] ممن آمن سرًّا بدعوة الشيخ قبل أن يفد إلى «الدرعية» لأنها—أى : الدعوة—[كانت] قد ذاعت وانتشرت .. أيام كان الشيخ فى «العُيَيْنَة» .

أراد الأمير محمد أن يبعث إلى الشيخ بالحضور إليه ، غير أن امرأته قالت له : اذهب إليه أنت ، وأَظْهِرْ تعظيمه واحترامه .. ليحترمه الناس، حينما يرون احترامك له، فلا يمسوه بسوء ، فخرج الأمير ومعه بعض عشيرته والمقربين لديه

واتجهوا إلى بيت ابن سويلم - حيث كان الشيخ - وكانت تلك الساعةُ التى التقى فيها الزعيمان ساعةً خالدة .. التقى فيها الحق والعدل ، بالقوة والسلطان ، والمصحف بالسيف .. على صعيد واحد ، من أجل غاية واحدة ، هى أسمى الغايات وأشرفها ، ألا وهى السير فى سبيل الله لبعث العدالة الإلهية ، وإحياء الرسالة السماوية .. التى أرسل الله بها سيد البشر وخاتم الأنبياء والمرسلين « محمد بن عبد الله » عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

وكان أولُ ماقاله الأمير للشيخ : « أبشر ببلادٍ خيرٍ من بلادك ، وأبشر بالعز والنعمة » .

فقال الشيخ : « وأنا أبشرك بالعز والتمكين وهذه كلمة « لا إله إلا الله » مَنْ تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد ، وهى كلمة التوحيد وأول مادعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم » .

قال الأمير : يا شيخ .. أريد أن أشترط عليك شرطين :

الأول : نحن إذا قمنا بنُصْرَتك والجهادِ فى سبيل الله ، وفتح الله لنا ولك البلدان ، أخاف أن ترتحل عنا وتَسْتَبْدِلَ بنا غيرنا .

والثانى : أن لى على أهل « الدرعية » قانوناً آخذه منهم فى وقت الثمار وأخاف أن تقول : لا تأخذ منهم شيئاً .

قال الشيخ : أما الأول فابسط يدك .. الدم بالدم ، والْهَدْمُ بالْهَدْمِ ، وأما الثانى : فلعل الله أن يفتح لك الفتوحات .. فيُعَوِّضَك الله من الغنائم ما هو خير منها .

فوقع تحقق ظن الشيخ رحمه الله ، فأتى إليه غنيمةٌ عظيمةٌ ، فقال له الشيخ : هذا أكثر مما أنت تأخذه على أهل بلدك ، فتركها بعد ذلك .

انتهى ما دار بينهما نقلا عن « عنوان المجد (١) » ، ثم اتجه الزعيمان إلى بيت الأمير محمد ليبدآ كفاحهما في سَبيل الله ، وَإنَّ جُنْدَ الله لهم الغالبون :

* * *

أيها القارىء الكريم :

تُرَى — ما الذي يمكننا أن نفهمه من هـذا الميثاق المختصر المُثبَّتِ بالعهود المُوَفَّاة ؟ .

إن أول ما نفهمه هو بعد مدى إخلاص الشيخ لدعوته ، وصدق ملاحظته في تنفيذها .

ويتبين ذلك فيما قاله للأمير ، ثم عدم موافقته على الشرط الثاني له .

وأما الأمير فإن شرطه الأول يدلنا على ما كان عليه من الحكمة والُحنكة وذلك يتبين في تقديره الأمور ، قبل وقوعها ، وأخذ الحيطة والأهبة لها بما يلزم ، وتلك خاصة لا تكون إلا لمن وهبه الله عقلاراجحاً ، وفكراً نافذاً ، وبصيرةً يستشف بها ما يُتَوَقَّعُ حدوثه من أمور .

وَأَعْقَلُ النَّاسِ مَنْ لَوْ مَاتَ مِنْ ظَمَإٍ
لَا يَقْرَبُ الوِرْدَ حَتَّى يعْرِفَ الصَّدَرَا (١)

الهجرة إلى الدرعية :

لم يكد الامير محمد يعلن نصرته للشيخ وتأبيده له .. ولم يكد خبر استقرار الشيخ في الدرعية ينتشر حتى أمها المهاجرون من كل مكان ، وحتى أصبحت

(١) (عنوان المجد في تاريخ نجد) للشيخ المؤرخ عثمان بن بشر .

(١) الرواية المحفوظة : « وأحزم الناس .. إلخ » .. والوِرْدُ : ورود الماء والنزول إلى آباره ، والصدر : الخروج من الآبار والمنابع .

الدرعية ملجأ لمن يُظَنّ بدينه، وملاذاً لمن يخاف على عقيدته .

ونتيجة لكثرة المهاجرين وازدحام المدينة بهم ، نشطت الحركة التجارية والعمرانية فيها ، وغمرتها الحياة من كل جانب، وكان غير الموسرين من المهاجرين وأهل المدينة يحضرون مجالس الشيخ فى النهار، ويعملون خلال الليل فى المزارع والمبانى . . . أما الشيخ فإنه لم يترك لحظة من نهاره وأول ليله إلا وفيها جلسة من جلسات التعليم ، وكان الأمير محمد لا يفوته واحدة من تلك الجلسات .

ويشبه أمين الريحانى (١) «الدِّرْعِيَّة » فى ذلك الزمن [بمدينة] «روما» فى العصور الوسطى .. التى شمل الإسلام فيها أكثر أنحاء المعمورة حيث بلغ الصين شرقاً وفرنسا غرباً، وسهول سيبيريا شمالا ووسط أفريقيا جنوباً ، تلك العصور التى ضيق المسلمون فيها على النصارى ، حتى أصبحوا يلوذُون بروما . فَارِّينَ بدينهم إلى كنيستها .

رفض الأمير محمد طلب ابن معمر :

لم تكد الأخبار تصل إلى ابن معمر بمناصرة الأمير محمد.. للشيخ واستقبال الدرعية لكثير من المهاجرين والمناصرين للشيخ حتى أصابه الندم الشديد على تخلفه عن الشيخ وطرده له ، فجاء إلى « الدرعية » معتذراً وطالباً من الشيخ العودةَ إلى « العيينة » ، ولكنه أحاله بطلبه إلى الأمير محمد ، فدخل ابن معمر على الأمير وقال :

لقد أتيتك فى حاجه فهل أنت قاضٍ لحاجتى ؟

فقال الأمير : إن كنتُ عليها من القادرين .

فقال ابن معمر : أن تأذن للشيخ بالرجوع إلى بلده ومَسْقَطِ رأسه ؟ لأنه

---

(١) تاريخ نجد الحديث.

وافق ، ولكن بشرط أن توافق أنت على ذلك؟

فقال الأمير: لقد قمنا بمناصرته، وتقدمنا إليه .. حينما تخلفتم عنه وخذلتموه، وكان شرطنا الأول ألاّ يتركنا ويذهب إلى غيرنا ، وَلَا تَرَاجُعَ فى هذا الأمر، فما إلى ذلك من سبيل .

وقفل الأميرُ عُثْمَانُ إلى « العيينة » وفى صدره من الحقد على الشيخ والأمير: نارٌ تضطرم بهَشِيمِ النَّدَمِ الذى ضاق به ، غير أنه استطاع أن يحبس ذلك عن الناس .

يث الدعوة خارج « الدرعية ، ونشرها عملياً :

لم تمض أيام قلائل حتى استقر سلطان الدعوة فى « الدرعيـة » وثبتت دعائمه ، وحان الحين لنشرها خارجها ، فهب الأمير والشيخ لنشر الحق وأخذا فى بعث الكتب والرسائل إلى كل مكان .. بادئين فى ذلك بالأقرب من حيث المكانُ ، مفضلين فى نشر التوحيد البـدء بالدعوة إلى الله .. بالحكمة والموعظة الحسنة .

ولم يكن ذلك عن ضعف فى العزائم والهمم ، وإنما لتبرأ الذمة عند حمل السلاح ،وقد أثبتت الأيام [جَدْوَى] ذلك .

لم يلبِّ دعوة الله على لسان المصلحين إلا القِلَّةُ القليلة من الناس ،فقام الأمير إلى سيفه، ودعا إلى الجهاد فى سبيل الله ، ولم يكن يفعل شيئاً من ذلك إلا بعد مشورة الشيخ وإذنه .. فتقدَّمَ زَعِيماً الدعوة ، ومعهما أبناء الأمير الثلاثة عبدُ العزيزوفيصلٌ وسعودٌ .. لقيادة جيوش المسلمين [المجاهدة] فى سبيل الله .

وكان يجاور « الدرعيَّةَ » كثير من البلدان المستقلة بإمارتها . كالرياض وَمَنفُوحَةَ وَالْعُيَيْنَةَ وحُرَيْمِلَاء وضَرَمَى وغيرها .

ومن أبرز أمرائها وأقواهم الأمير عثمان بن مُعَمَّر أمير العيينة وكان يُظهر الطاعة للشيخ والأمير محمد.. معلناً عن إيمانه بالدعوة وولائه لها ، وقد قاد جيوش المسلمين فى بعض الغزوات ، ويقال : إنه لم يكن صادقاً فى موالاته للإمام والشيخ وإنه مالأ أعداءهم فى عام ١١٦٣ هـ على غزو « الدرعيـة »، فقتله أناس من أهل بلده فى المسجد بعد صلاة الجمعة .. فى منتصف رجب من السنة نفسها ، فجاء الشيخ إلى العيينة وعَيَّنَ فيها ابنَ عَمِّ عثمان « مَشَارِيَ بن مُعَمَّر » أميراً .

ومنهم دَهَّامُ بن دَوّاسٍ أميرُ الرياض ، وكانت له روابط قوية مع الأمير محمد .. قبل مناصرته وتأييده للشيخ ودعوته ، وكانت تلك الصلات ناشئة عن تفريج الأمير محمد لكثير من الكُرَبِ التى يقع فيها دَهَّامَ .

غير أن دَهَّاماً كان قاسياً على نفسه وعلى أهل بلده — كما هى عادته — فقد رفض الاستجابة إلى الدعوة ، وأعلن العِدَاء لها ، وللقائمين عليها فأرسل الاميرُ محمدٌ جيشاً من المسلمين .. لقتاله ، وتكررت الوَقَعَاتُ بينه وبين المسلمين .

ومن هذه الوَقَعَاتِ وَقْعَةُ «الشُّيَّابِ» ووقعة « العبيد » ووقعة «الْبُنْيَة» والوقعةُ التى هاجم فيها دَهَّامٌ الدرعية فى سنة ١١٦٠ هـ وفى تلك الوقعة قَدَّمَ الأميرُ محمد ـ فى سبيل الله ـ أعزَّ شىء لديه فى الحياة ، فقد قُتِلَ فيها ابناه فَيْصَلُ وسعُود . فَشَيَّعَ الاميرُ روحيهما بقوله : « اذهبا فى سبيل الله ونحن على أثريكما » .

وبعد أن أنهكت غارات المسلمين المتكررة دَهَّاماً ، وأضعفته .. تظاهر بالدخول فى الدين ، وأعلن السمع والطاعة لإمام المسلمين ، فَأَخَذَ عليه المِيثَاقَ فى ذلك .. غير أنه لم يفعل هذا رغبةً ، وإنما [فعله] رهبةً من المصير الوخيم ـ الذى صار يتوقعه فى كل لحظة .

لذا كان من الطَّبَعِيِّ أن ينْكُثَ العهدَ ، ويعودَ إلى ما كان عليه من الغدر والخيانة ، والتنكيل بالصالحين من أتباعه ، فأعاد المسلمون شن الغارات عليه ، حتى كان مُنْتَصَفُ شهر ربيعٍ الثانى من سنة سبع وثمانين ومائةٍ وألفٍ — حيث استولى الرعب والفزع على دَهَّامٍ ، وخرج هارباً من الرياض .. بدون سابق تفكير ، كما رواه ابن بِشرٍ ، وعكسُ ذلك مفهوم قول ابن غنام .. فى كتاب « روضة الأفهام والأفكار » .

وكان الإمامُ عبد العزيز بن محمد قد جَهَّز للرياض جيشاً يقوده هو ، وكان عازماً على ألا يعود إلا بعد احتلال « الرياض » ، فوافاهم الخبر فى « عِرْقَةَ » وهى قرية تُعَدُّ الآن من ضواحى الرياض .. ولم يكن دهَّام على علم بهذا الجيش فدخلها عبد العزيز واحتلها .. بدون أى قتال .

أما دَهَّام فقد هرب إلى « الخَرْج » وتبعه الكثيرون من أهل الرياض الذين هلكوا فى « السَّهْبَاءِ » جوعاً وعطشاً ، وفيهم المرأة والطفل .

وقد أصبح دَهَّام مثلاً يُضْرَبُ .

قال شاعر نَبَطِيٌّ معاصر من أهل « العَوْدَةِ » بِسُدَيْر واسمه فوَّاز :

بَغيتْ أَكَنَّ السَّدِّ يا الخَالُ وَالزَمْ

لَا شَكَّ قَلْبِى فَرْفَرَةْ دَهَّامْ

ويقال إن جيش الإمام عبد العزيز أدركه فى « الخَرْج » فقتله .

* * *

قلنا إن الإمامين بدآ كفاحهما الفعلى فى نشرِ الدعوة بإرسال الرسائل إلى كل مكان ، داعين فيهما الناس إلى كتاب الله وسنة رسوله .. غير أنه لم يجبهما إلا القلة القليلة ، فأخذا فى بعث جيوش المسلمين إلى المعاندين ، بقيادة الإمام محمد وفى أكثر تلك الغزَوَات كان يُنِيبُ ابنه عبدَ العزيز فى قيادة الجيوش .

وقد بدأت تلك الغزوات فى عام ستين ومائة وألف غير أن الخيانات وارتداد بعض البلدان ونكثها للعهود : كان سبباً فى بطء تقدمها ، ومع ذلك بلغت فى عام تسعة وسبعين ومائة وألف ـ وهى السنة التى تُوُفِّىَ فيها الأمير الإمام محمد بن سعود ـ أطرافَ « الأحساء » ، وبلغت « سُدَيْراً » وجاوزته إلى « الزُّلْفِى »، وبلغت « مَرَاةَ » و « الوَشْمَ » .

* * *

أيها القارىء الكريم :

إن تلك الفترة من حياة الأمير الإمام ـ [وهى] الواقعة بين عامى « ستين » و « تسعة وسبعين » ومائة وألف : لجديرة بالوقوف عندها وَقْفَةً طويلة فيها إكبار وإجلال .. لما احتوته من صُوَر البطولة والنضال ، وصدق الكفاح والاستبسال فى سبيل الله ، والذود عن حياض الإسلام .

ومع ذلك فقد أوجزتُ فيها القول واجْتَزْتها مسرعاً مخافة أن أخوض فى بحرها ، فيطول بى المُكْثُ ، وحَسْبِى أن أشير لطالب المعرفة إلى كِتَابَىْ « روضة الأفكار والأفهام » لابن غنام ، و « عنوان المجد » لابن بشر .. ففيهما يجد القارىء ضالَّتهُ ، وبهما يَشْفِى غُلَّتَهُ .

ولنقف قليلا لنترحم على الإمام محمد بن سعود الذى انتقل إلى رحمة ربه ـ فى آخر شهر ربيع الأول عام تسعة وسبعين ومائة وألف ـ قَرِيرَ العين لشدة تمسكه بحبل الرجاء .. فى أن يتقبل الله منه كفاحه وجهاده فى سبيله ، ويَمُنَّ عليه بالرحمة والمغفرة والرضوان .

وقد تولى إمامة المسلمين بعده ابنه عبد العزيز ، وكان مما أوصاه به والده .. قوله :

« لا تكن فظًّا غليظ القلب فتنفِّر الناسَ من حولك ، وكن هيِّناً ليِّناً فإنها صفة المؤمن . ولا تَسْفِك دماً إلا بحقه ، وإيَّاك أن تأخذَك فى الله لومةُ لائمٍ ،

وعليك بالتقوى فإنها أساس كل خير ، وكن بجانب الحق والعدل .. يكن الله بجانبك ، وهذا والدك الأكبر الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب ، أقرب الناس وأصدقهم لك ، وأرأفهم بك وبالمسلمين . فاقبل نصيحته واعمل بمشورته ، واستنر برأيه ، واعلم بأن كل شيء مصيره الفناء ، ولن يبقى لك إلا ماقدَّمْتَ.. فاحرص على أن يكون خيرا» .

* * *

الوهابيـة والوهابيون :

والآن يطيب لنا أيها القارىء الكريم أن نتحدث معاً حديثاً موجزاً كل الإيجاز عن« الوهابية والوهابيين » .

إن مصالح الاستعمار والمستعمرين مازالت ـ ولن تزال ـ متعارضةً مع مصالح الشعوب والأمم المستَعْمَرَة.. كل التعارض .

ذلك لأن كيان الاستعمار ماقام إلا على مايمتصه من دماء الشعوب المستَعْبَدَة أو ما يختطفه من أفواههم .من لُقَيْمَات يرمي بها في أفواه الذئاب الجائعة ،التي بَنَت كِيانها على أنقاض مُقدَّرات الشعوب المادية والمعنوية ، لذا كان الهَمُّ الأول للمستعمرين هو القضاء على كل ثورة أو حركة إصلاحية ، وإلباسها ثَوْبَ الزيغ والضلال .. الذي صنعته الدعايات المضللة .. من التهم المختلفة ، والحجج الملفَّقَة الزائفة ، لصرف أنظار الناس عنها وتنفيرهم منها .. لتبقى لهم السيادة عليهم ، وليؤخّروا ساعة مصيرهم المحتوم ، ذلك المصير ِ الأسود المُظْلِم الدُّرُوب ، والمُوحِش المسالك .. [ولكن] أنَّى لهم ذلك التأخير ؟ .

ولقد قُدِّرَ للأتراك أن يستغِلّوا العالَمَيْنِ الإسلاميَّ والعربيَّ ، فترةً من الزمن ، كان لهم فيها ـ مع الثورات والحركات الإصلاحية تاريخ كله غَدْرٌ وخيانة وآثام .

وكان الخونةُ الظالمون المضلِّلُونَ سلاحهم الوحيد في تلك المعارك .. أولئك

الذين غلبت عليهم الشقاوة.. فباعوا أنفسهم للشيطان ، واشتروا الضلالة بالهدى ، فخسروا وخابوا ....

والغريب أن من هؤلاء من [كان] يتكلم باسم الدين ، ويرشح نفسه لتفسير القرآن الكريم ، ليدس بين طيات أقدس كتاب دعاياته وافتراءاته الزائفة .

ومن ذلك قول بعضهم عند كلامه على آية : « اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ » (١) الآية .. ما معناه : « ومِنْ هؤلاء : الخوارجُ ، ولا تزال طائفةٌ منهم فى الحجاز ، وتعرف بالوهابية (١) » :

وقد نتلطف مع مثل هذا فننسُبُه إلى الجهل ، وتصديق الدعايات التى تنشرها ألسُنُ السياسة ، غير أنه لن ينجو من الإثم فى مثل هذا الحكم ، وخاصةً فى مثل هذا الموضوع ، لأن النبي عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم قال: « مَن قَالَ فِي القُرْآنَ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » .

وكلمة « الوهابية والوهابيين » هنا : لا تعنينا فى كثير ولا قليل ، لأنها فى نظرى لا تعدو كونها نسبة حركة إلى قائدها .. ثم نسبة مَنْ آمن بها وناصرها إليها .. وإنما الذى يعنينا هو المدلول الذى أرادوه لهذه الكلمة .

فقد أرادوا بها الدلالة على التجسيم ، وكُرْهِ الرسول ، والتقليد ، ومنع الاجتهاد .

أما التجسيم فلأننا نَصِفُ الله بما وصفه به رسوله عليه الصلاة والسلام ، وجرى عليه السلف الصالح من الأمة . فنُثْبِتُ أن له يداً ورِجلاً ، وسمعاً وبصراً ، وأنه ينزل حقيقة فى الثلث الأخير من كل ليلة إلى السماء الدنيا ، وأنه

---

(١) الآية رقم ١٩ من سورة المجادلة .

(١) قرأت هذا القول فى تهميش على حاشية الصاوى على الجلالين .

يجىء حقيقةً يوم القيامة .. إلى غير ذلك من الصفات التى ورد بها الكتاب والسنة .. من غير تكييف ولا تمثيل ، ومن غير تعطيل ولا تأويل .

وما قولهم هذا إلاّ قولٌ قديم.. وصف به المعطلون والمؤولون فى أسماء الله وصفاته .. عُلماءَ السلف الصالح .

ويقولون عنا : إننا نكره الرسول .. لأننا نمنع التوسُّل به ، وإشراكه مع الله فى الحَلِفِ به ، فأينا المحبُّ للرسول ؟ المطيعُ له ، المتمسك بما رسمه .. أم العاصى لأمره ، المخالفُ لنهجه ؟

ألم يقل ـ صلواتُ الله عليه ـ : «لا تُطْرُونِي كما أطْرَتِ النَّصارَى [عيسى][1] بْنَ مَرْيم » ؟ .

ألم يقل : « لَعَنَ اللهُ اليَهُودَ والنَّصارَى اتَّخذُوا قبُورَ أنْبِيائِهِمْ مَسَاجِدَ » ؟

ألم يخبرنا : أنه لا يجوز شد الرحال لغير المساجد الثلاثة بقوله :

« لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة » ؟ .. وعَدَّ المساجد الثلاثة ، ولم يذكر قبره ؟ فأيُّنا أصوب ؟

ولهم اعتراضات لا تستند على حق ، وإنما مصدرها الهوى والعِداء المَقِيتُ .

---

(١) الزيادة من كتاب « النهاية لابن الأثير (٣ : ١٢٣) .

دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب

وأثرها فى أدبنا الحديث

تمهيد

لم يكد نورُ الدعوة ينبثق ويُشِعُّ من نجد حتى تجاوبت أصداؤها هنا وهناك بين مؤيد لها.. مستبشر بمولدها، ومناوىء مُبْغِضٍ، أعشاه نور الحق.. إذ أعماه عن سبيل الرَّشَدِ هواه، لافرق فى ذلك بين ماقَرُبَ أو بَعُدَ.. من أقاليم جزيرة العرب أو غيرها من بلاد الإسلام.

إذ من المعلوم أن الدعوة ـ بوصفها نهضَةً دينية ـ قد تجاوزت الجزيرة العربية حتى إلى ماهو ناء عنها ـ كالهند مثلا.

ولقد كان من أولئك الفضلاء الأماجد الذين أيدوا الدعوة واستبشروا بمطلعها مَنْ تغنَّى بها فى شعره، فأثنى عليها ومدح إمامها، وتشوق إليهما.. كالأمير محمد الصنعانى.. الذى يقول.. وكأنك تسمع وتحس ضَرَبَاتِ قلبه المَشُوق فى ثنايا أبياته الصادقة التعبير، وتلمس عاطفته الدينية الغيور منبثقة من كل كلمة تضمنتها أبيات قصيدته التى منها قوله(١)

سَلَامِى عَلَى نَجْدٍ وَمَنْ حَلَّ فِى نَجْدِ
وَإِنْ كَانَ تَسْلِيمِى عَلَى الْبُعْدِ لَا يُجْدِى

لَقَدْ صَدَرَتْ مِنْ سَفْحِ «صَنْعَا» سَقَى الْحَيَا
رُبَاهَا وَحَيَّاهَا بِقَهْقَهَةِ الرَّعْدِ

سَرَتْ مِنْ أَسِيرٍ يُنْشِدُ الرِّيحَ إِنْ سَرَتْ
«أَلَا يَاصَبَا نَجْدٍ مَتَى هِجْتِ مِنْ نَجْدِ؟»...

---

(١) روضة الأفكار والأفهام للشيخ حسين بن غنام الطبعة الثانية جا صـ١٢٩

يُذَكِّرُنِي مَسْرَاكِ نَجْدًا وَأَهْلَهُ
«لَقَدْ زَادَنِي مَسْرَاكِ وَجْدًا عَلَى وَجْدِ»[1]
قِفِي وَاسْأَلِي عَنْ عَالِمٍ حَلَّ سَرْحَهَا
بِهِ يَهْتَدِي مَنْ ضَلَّ عَنْ مَنْهَجِ الرُّشْدِ
مُحَمَّدٌ الْهَادِي لِسُنَّةِ أَحْمَدٍ
فَيَاحَبَّذَا الْهَادِي وَيَاحَبَّذَا الْمَهْدِي
لَقَدْ أَنْكَرَتْ كُلُّ الطَّوَائِفِ قَوْلَهُ
بِلاَ صَدَرٍ فِي الْحَقِّ مِنْهُمْ . . . وَلاَ وِرْدِ
وَمَا كُلُّ قَوْلٍ بِالْقَبُولِ مُقَابَلٌ
وَلاَ كُلُّ قَوْلٍ وَاجِبُ الطَّرْدِ وَالرَّدِّ
سِوَى مَا أَتَى عَنْ رَبِّنَا وَرَسُولِهِ فَذَلِكَ قَوْلٌ جَلَّ يَاذَا عَنِ النِّدِّ
وَأَمَّا أَقَاوِيلُ الرِّجَالِ فَإِنَّهَا تَدُورُ عَلَى قَدْرِ الأَدِلَّةِ فِي النَّقْدِ
وَقَدْ جَاءَتِ الْأَخْبَارُ عَنْهُ بِأَنَّهُ
يُعِيدُ لَنَا الشَّرْعَ الشَّرِيفَ بِمَا يُبْدِي
وَيَنْشُرُ جَهْرًا مَاطَوَى كُلُّ جَاهِلٍ
وَمُبْتَدِعٍ مِنْهُ فَوَافَقَ مَاعِنْدِي

واستقصاء أثر الدعوة فى الأدب الحديث فى البلاد الإسلامية يتطلّب مجهوداً أكبر، وبحثاً أطول.

---

(١) فى هذا البيت والذي قبله تضمين شطرى البيت المعروف :

ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد
لقد زادنى مسراك وجداً على وجد

كيف لا ؟!! وهى أول حركة إصلاحية قامت فى عصرنا الحديث ؟ فَحَسْبُنَا من وَابِلِهَا الصَّيِّب شَرْبَة .. لا ارتواء منه ، ولا عزوفًا عنه ، وإنما اعترافًا منا بالعجز عن استقصائه وحصره ، راجين من المولى جلّت قدرته أن يمدنا بالعون والتوفيق إلى ذلك مستقبلا .

حَسْبُنا — إذن هنا — أن نتحدث بشىء من الإيجاز عن أثر الدعوة فى الأدب الحديث .. فى البلاد العربية السعودية ، أدام الله لها أمنها واستقرارها ورخاءها فى ظل قائدها ، ورائد نهضتها ، جلالة الملك [المعظم] فيصل ابن عبد العزيز [حفظه الله] .

أثر دعوة الإمام

فى أدبنا الحديث

لقد كانت هذه النهضة النَّجْدِيَّةُ الإسلاميةُ ـ بعد ماصار إليه أهل نجد ومَنْ حولهم من أحوال الجاهليةِ ـ حَدَثا .. لا كالأحداث ، وشأنا .. لا كالشئون وأمراً خطيراً .. لا يكاد يشبهه من المألوف أمر خطير .

كانت شمساً ساطعنة الضياء ، نافذة الشعاع ، هتَّكت برماح أشِعتها حُجُباً كثيفة من الجهالة ، وسُدَفاً متراكمة من الظلام .

وكانت غيثاً مُرْبِعاً .. وَالَى مَوَاتَ العقول بِوَسْمِيِّهِ وَوَلِيِّهِ[1] ، حتى أحيا به الله من الْمَوَاتِ ما شاء الله ، وأنبت به [من النبات] ما شاء الله .

وكانت رِيحاً عاتيةً على المعاندين والجاحدين . هدم الله بها من صروح الْجَبَرُوتِ ، وثَلَّ من عروش الطَّاغُوتِ ، مالا يمكن فعله إلا بقوة من الله وبنصر من عند الله .

وأتيح لأهلها من الانتصارات والفتوح ما يَتَبَدَّى أحيانا فى صورة الغريب النادر من البطولات، وما تتبين منه أحياناً الآياتُ البينات .

وامْتُحِنَ أهلُها بما امْتُحِنَ به الأولون من المِحَنِ الشِّداد ، التى لا يثبت لها إلا الصابرون ، ولا يرضى به إلا الصادقون .

وتَصَدَّى لها من أهل المقالات من برعوا فى الجدال ، ومَرَنُوا على المقال ..

---

(١) الْوَسْمِيُّ : المطر الأول فى الربيع ، والوَلِيُّ : اسم للمطر النازل بعد مطر .

من قديم ، وأخذ علماؤها ودُعاتُها يجاهدون الناس بالقرآن العظيم الكريم ، وهديه الحكيم المستقيم ـ ناشرين فيهم أفكاراً ومبادىء .. لها روعة القِدَم وجلالته ، ومُحَيَّا الحق وطلعته ، وجماله ووسامته .. عارضين من كنوز العلم وذخائره: ما ضَنَّتْ به عليهم الأيام منذ قرون .. إلى أمور أخرى .. ما منها إلا عظيم فى دلالته ، جسيم فى حقيقته وصورته ، .. فأثار ذلك كوامن المشاعر ، ونبَّه غوافل الخواطر ، وأنطق الشعراء بالشعر الشاعر ، والبيان الساحر ، وفتح لهم آفاقاً يسبح فيها الخيال ، ويتسع المقال . وأبدى لهم من الروائع .. ما وصلوا به قديم الشعر بحديثه ، وطَرِيفَهُ بتَلِيدِه .. إلى ما فتحوا به فى الشعر من ميادين ، ساوَوْا فيها السابقين ، وبَذُّوا فيها الناهضين .

وسنعرض عليك — من شواهد ذلك ودلائله — ما تُدْرِكُ به أن حياة العربية ونماءها .. بعد الموت والذبول ، ورفعتها وعلاءها .. بعد الانحطاط والسُّفُول ، وسطوعها وبهاءها .. بعد الغروب والأفول ، ووسامتها وجمالها .. بعد الشحوب والمحول .. إنما هى نعمة من نعم القرآن العظيم ، الذى شاهدت الدعوةَ تحت لوائه — حيث أحيَتْ دراستَه وترتيلَه وتلاوتَه — كما أنها أثر من آثار السُّنَّة المطهرة .. التى لَهِجَتْ بها الألسن ، وعَمُرَت بها القلوب ، حتى صارت موضوع محاضراتهم ومحاوراتهم ، ومُسْتَمَدّ مقالاتهم ومناظراتهم ، بل صارت هى الشَّطْرَ الأكبر من مجارى أحاديثهم وعباراتهم .. مما يدل على أن الناس بِهِمَمِهِمْ أشبهُ منهم بأزمانهم ، وأنه لايأس من رَوْح الله ، ولو تطاول الزمان « وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ، يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُوا الْفَضْلِ الْعَظِيمِ »[1] .

---

(١) الآيتان ٧٣ ، ٧٤ من سورة البقرة .

ولقد عملت الصحافةُ والتعليمُ المدنى ونشرُ الـكتب وسهولةُ المواصلات بين الدول العربية وجيرانها ، — بل وبين العالم العربى كله ، — ثم هذا الاتصالُ الثقافى الذى فرضه المذياع والتلفزيون على الناس - حتى فى منازلهم - عَمَلَهَا فى تلوين الأدب بهذه الجزيرة العربية ، وصَبْغِهِ بألوان الأدب المُعَاصِر ، فى خارج الجزيرة ، حتى إنك لا تـكاد الآن تميز كثيراً بين الأدب الحديث فيها وفى خارجها ، ولو كان شديد التأثر بالحضارة الغربية ، كما فى أدب مصر وسورية ولبنان .

ذلك أساسٌ اقتضاه الزمن ، وفرضته الأحداث ، ولا حِيلَةَ — فى هـذا الباب — فيما يقتضيه الزمن، وتفرضه الأحداث.

على أن التشابه إنما كان فى الصور والأخيلة ، ثم فى الأخذ ببعض النظريات الحديثة التى تتناول بناء القصيدة ، فلا يضاف إلى ذلك الأخذ بالمظاهر الجديدة .. كالقصة والمسرحية.. وكذا كل ما يتصل بهذا الجديد من موضوعات..لا تتنافى وروح أبناء هذه البلاد الطاهرة .

الدعوة عامل من عوامل النهضة الأدبية :

من المُسَلَّمِ به أن الدعوة إنما استهدفت فى قيامها تصحيحَ الأوضاع الدينية ،وتصفيةَ العقيدة الإسلامية.. مِمَّا اعتراها من شوائب ، وما شَوَّهَ صفاءها ونقاءها من خُرَافات وشَعْوَذَات وأبَاطيل . . ترا كمت عليها منذُ بدءِ الخوض فى مسائلها ، من أُخْرَيَاتِ القرن الأوَّل الهجرى إلى أن قام الإمام محمدُ بن عبد الوهاب — فى منتصف القرن الثانى عشر — بدعوته المباركة التى غَيَّرَ بها وجْه التاريخ فى العالَمَيْنِ العربى والإسلامى .

ومن هنا كان تأثيرها واضحاً فى سيطرة الموضوعات والأغراض الدينية

على الأدب لا سيَّماَ فى الفترة [التى] بين قيامها فى منتصف القرن الثانى عشر و[بين] مطلع النصف الثانى من هذا القرن ، حيث بدأ الاتصال بالعالم ـ خارج الجزيرة العربية ـ يأخذ شكلا أوسع وأعم .. الأمر الذى دفع أدباء الجزيرة إلى أن ينهجوا نهج أدباء العرب فى مصر والشام والمهجر مثلا .

غير أن ذلك التأثر إنما كان فى الموضوع والأسلوب دون الألفاظ وبعض الفكر المَمْقوتة ، وذلك جانب من جوانب أثر الدعوة فى أدبنا — كما سنوضحه فيما بعد ـ إن شاء الله [تعالى] .

الموضوع :

قلنا [من] قبل : إن الدعوة سيطرت سيطرةً كاملة على موضوعات الأدب ـ منذ نشوئها إلى بُعَيْدَ منتصف هذا القَرْن تقريباً ، حيث بدأ التجديد فى الموضوعات الأدبية .

ولكى يتضح لنا ذلك أكثر نَعرِضُ ـ هنا ـ بعضاً من نماذج أدبِ وأدباء تلك الفترة .

أحمد بن مشرف :

حديثنا هُنَاَ : عن شاعرٍ أصيل ، وعالم جليل ، جمع الله له العلم والشعر [معاً] وَزَوَّدَه من [أفياء] الحقيقة والخيال بأوفر زاد ، فنفع الله به الأمة ، وحمى به وبأمثاله المِلَّةَ ، فكان عونا للمؤمنين الصابرين ، وشَجًى فى حلوق الملحدين المعاندين .

إنه الشاعر أحمدُ بنُ علىّ بن حسين بن مشرف الشاعر الأَحْسَائِى الشهير [وقد] ولد ـ رحمه الله ـ بالأحساء ، وبها نشأ وتعلم ؛ [وواصل السير فى مواكب الحيـاة] .

على أنه قد سافر إلى نجد ، واتصل بعلماء الرياض ، وأخذ العلم عن أئمته بها ، كما كانت له رحلات أُخَرُ ليس هُنَا مجال للحديث عنها ، غير أن إقامته كانت [فى] الأحساء مَسْقطِ رأسه ، ومثواه فى ضريحه .. الذى آوى إليه محفوفاً برحمة الله عام ١٢٨٥ هـ .

لقد عاش ابن مشرف فى القرن الثالثَ عَشَرَ الهجرى ، وهو قرن شهد من الأَمْنِ البديع ، والاضطراب الفظيع : ما لم يشهده إلا القليل من القرون .. إذ بدأ فى العقدِ الثالث منه تمزُّقُ دولة آل سعود الأولى .

إنه عهد الإمام فيصل بن تركى الذى أشاد بأعماله وجهاده وبطولاته الشاعرُ ابنُ مشرف ، وإنه لأهل لأكثر من ذلك [فى ميدان الإطراء والتخليد] .

* * *

ليس الإمامُ فيصلُ بن تركى موضوع حديثنا ، فلنتركه غير راغبين عنه لنواصل سيرنا مع ابن مشرف ، [فى إطار الحديث عنه] .

نشأ ابن مشرف فى أيام كانت علوم الدين فيها على أَشُدِّها ، فليس [من] الغريب أن انطبع بتلك الأيام .. فاصطبغت بصبغتها المشرقة روحه الشاعرة ، فتنفست بأنسامها العطِرَة نفسُه المؤمنةُ ، فجاء شعره ونظمه صورةً لذلك الانطباع .

وإن شئت أن تلمس ذلك بنفسك فاسمع من شعره ـ مثلا ـ قَوْلَه ـ وهو من منظومةٍ بعنوان :

الشهب المرمية على المعطلة والجهمية

نَفَيْتُمْ صِفَاتِ اللهِ فَاللهُ أَكْمَلُ ... وَسُبْحَانَهُ عَمَّا يَقُولُ الْمُعَطِّلُ

زَعَمْتُمْ بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِمُسْتَوٍ ... عَلَى عَرْشِهِ وَالِاسْتِوَا لَيْسَ يُجْهَلُ

فَقَدْ جَاءَ فى الْأَخْبَارِ فى غَيْرِ مَوْضِعٍ

بِلَفْظِ « اسْتَوَى » لَا غَيْرُ يَا مُتَأَوِّلُ

وَقَدْ جاءَ فى إِنْبائِهِ عَنْ نَبِيِّنا
مِنَ الخَبَرِ المَأْثُورِ ما لَيْسَ يُشْكِلُ
فَصَرَّحَ أَنَّ اللهَ جَلَّ جَلالُهُ عَلَى عَرْشِهِ مِنْهُ المَلائِكُ تَنْزِلُ
يَخافُونَهُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَعُرُوجُهُمْ
إِلَيْهِ وَهَذا فى الكِتابُ مُفَصَّلُ[1]

* * *

ثم اسمع من شعره قوله من قصيدة فى مدح الإمام فيصل بن تركى ـ رحمهما الله جميعاً ـ :

إِذا أَنْتَ أَزْمَعْتَ المَسِيرَ لِتُنْجِدا
فَلا تَعْدُ قَصْرًا فى الرِّياضِ مُشَيَّدا
بَناهُ إِمامُ المُسْلِمِينَ وَلَمْ يَزَلْ
يُؤَسِّسُ ما يَبْنِى عَلَى الدِّينِ وَالهُدَى
تَرَى حَوْلَهُ الأَضْيافَ تَلْتَمِسُ القِرَى
وَقَوْماً يُرِيدُونَ المَكارِمَ وَالنَّدَى
فَيَرْجِعُ كُلٌّ نائِلاً ما يَرُومُهُ
مِنَ العَدْلِ وَالإِحْسانِ وَالفَضْلِ وَالجَدا
كَرِيمٌ يَرَى لِلْمُعْتَفِينَ إِذا أَتَوْا
وَمَنْ يَطْلُبُ المَعْرُوفَ : حَقًّا مُؤَكَّدا

---

(١) إلماع وإشعاع إلى الآية رقم ٤ من سورة المعارج ، ونصها :
« تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » .

تَعَوَّدَ بَسْطَ الْكَفِّ طَبْعاً وَإِنَّمَا
لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا[٢]

يَعِيشُ الْيَتَامَى وَالضِّعَافُ بِنَيْلِهِ
وَيُرْوِى حُدُودَ الْمُرْهَفَاتِ مِنَ الْعِدَا

وَهَلْ يُدْرِكُ الْعَلْيَاءَ إِلاَّ مُهَذَّبٌ
أَضَافَ إِلَى الإِحْسَانِ سَيْفاً مُجَرَّدَا ؟

* * *

لعلك أيها القارىء ـ من خلال ما قرأتَ ـ توافقنى على الحكم على ابن مشرف بأنَّه شاعر وناظم مجيد ـ [على] رغم ظهوره فى عصر لم يكن فيه للأدب دولة ، ولا للشعر سلطان .

ولعل هذا هو سرُّ كثرة النَّظْمِ فيما قال ، إذ يبلغ النظم أكثر من ثُلُثِ ماتركَ ـ رَحْمَةُ الله عليه .

والذى خَلَّفَه ابنُ مشرف من النظم جُمِعَ وَطُبِعَ مرتين .. باسم « ديوان ابن مشرف » غير أن كلتا الطبعتين قد ضُمِّنَتْ ـ عَدَا نظم ابن مشرف منظوماتٍ أُخَرَ مثل . نُونيَّة القحطانى ومُثَلَّثَة قُطْرُبٍ وغيرهما .

وهذه طريقة ما كنت أودُّ أنها ارتكبت . وإن كان حُسْنُ القصد

---

(٢) فى البيت تضمين فى الشطر الأول .: لقول الشاعر :

تعود بسط الكف حتى لو انه ثناها لقبض لم تعطه أنامله

والشطر الثانى أول بيت للمتنبى فى سيف الدولة بن حمدان ، ونصه :

لكل امرىء من دهره ما تعودا
وعادةُ سيف الدولة الطعنُ فى العدا

والحرصُ على الإفادة : هما الدافعَ إلى ذلك .

وحينما نريد أنْ ننظر فى شعر ابن مشرف.. لا نستطيع أن نفعل ذلك على ضوء المذاهب والمدارس الأدبية الحديثة إذْ يمكننا القول : بأن ابن مشرف شاعر كلاسيكى ـ كما يعبرون عن أمثاله .

إن ابن مشرف يتمتع بشاعرية متدفقة ، وشعره يدل على مَلَكَةٍ أصيلة ولكنه مع ذلك كان يحاكى الأقدمين ، ويترسَّمُ خُطَاهُم ، فشأنُه فى ذلك شأنُ شعراء عصره فى البلاد العربية الأخرى .

بل إن ابن مشرف يُعَدُّ فيهم الفَحْلَ الأول ، وإن شئتَ تَبَيُّنَ ذلك فقارن بينه وبين أى واحد منهم مثلِ السيد أحمدَ البَرْبِيرِى البَيْرُوتى وعلىٍّ أبى النصر المَنْفَلُوطِىِّ وأمثالهِما .

بل ونستطيع أن نقول أَكْثَرَ من هذا : إن ابن مشرف أوجد نظم القصة السَّهلة على أَلْسُنِ الطيور والحيوانات فى هذا العصر .

ومن ذلك مثلا : حكاية الفَأْرِ والْحَمَامِ (١) ، وهى جزء من مجموعة الحِكَم التى نظمها .

ومجمل هذه القصة أن سِرْباً من الطيور أبصر حَبًّا منثوراً ، وكان جائعاً ـ فأراد أَكْلَه ، فقام منهم نَاصِحٌ ليَحْجِزَهم عن هذا الحَبِّ الذى لم ينثر فى الفلاة إلّا لأمر [هام] ، وقال لهم : إن مكابدة الجوع حتى تتبينوا الأمر: خيرٌ من المُخَاطَرَة ، لكنَّ الطيور لم تُصْغِ لنصحه ، وسارعت لالتقاط الحب فَلَفَّتْها الشِّبَاكُ ، فندمت وعادت إلى ذلك الناصح .. تَضَرَّع إليه ليفكِّرَ فى تخليصها

---

(١) الديوان ص ١١٢ الطبعة الثانية .

فأمدها بِرَأيِهِ الصائب ، وهو أن تنهضَ مَرَّةً واحدةً فتقتلِعَ الشَّبَكَةَ وتطير بها ، ففعلت ، فأبصرها الصياد ـ وقد ارتفعتْ بها ـ فأخذ يَعْدُو لاهثاً وراءها حتى اختفَتْ ، فقادها ذلك الناصح إلى وادٍ ، وأمرها أن تقَعَ فيه ، ثم نادى صديقه الفأرَ ، فقرض الحبال فتمزقتِ الشبكة وخلَصَتْ الطيور من ذلك الأسْرِ ، وأقامَتْ فى ضيافة الفأْرِ ثلاثة أيام » ...... إلى آخر القصة ، وهى قصة جميلة جدًّا :

وإنّى لمُورِدٌ لكم قطعةً منها .. قال :

فَأَبْصَرُوا عَلَى الثَّرَى حَبًّا مُنَقًّى نَثْرَا
فَأَحْمَدُوا الصَّبَاحَا وَاسْتَيْقَنُوا النَّجَاحَا
فَأَسْرَعُوا إِلَيْهِ وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ
حَتَّى إِذَا مَا اصْطَفُّوا حِذَاءَهُ أَسَفُّوا
فَصَاحَ مِنْهُمْ حَازِمُ لِنُصْحِهِمْ مُلَازِمُ
مَهْلًا فَكَمْ مِنْ عَجَلَهْ أَدْنَتْ لِحَيٍّ أَجَلَهْ
تَمَهَّلُوا لَا تَقَعُوا وَأَنْصِتُوا لِي وَاسْمَعُوا
آلَيْتُكُمْ بِالرَّبِّ مَا نَثْرُ هَذَا الْحَبِّ
فِي هَذِهِ الْفَلَاةِ إِلَّا لِخَطْبٍ عَاتِي
إِنِّى أَرَى حِبَالَا قَدْ ضُمِّنَتْ وَبَالَا
وَهَذِهِ الشِّبَاكُ فِي ضِمْنِهَا هَلَاكُ
فَكَابِدُوا الْمَجَاعَهْ وَانْتَظِرُونِي سَاعَهْ
حَتَّى أَرَى وَأَخْتَبِرْ وَالْفَوْزُ حَظُّ الْمُصْطَبِرْ

فأَعرَضُوا عَنْ قَوْلِهِ وَاسْتَضحَكُوامِنْ حَوْلِهِ

قَالُوا وَقَدْ خَطَّ الْقدَرْ لِلسَّمْعِ مِنْهُ وَالْبصَرْ

لَيْسَ عَلَى الْحَقِّ مرَى حَبٌّ مُعَدٌّ لِلقِرَا

أُلقِي عَلَى التُّرَابِ لِلأَجْرِ وَالثَّوَابِ

مَا فِيهِ مِنْ مَحْذُورِ لِجَائِعٍ مَضرُورِ

أُغْدُوا عَلَى الْغِذَاءِ فَالْجُوعُ شَرُّ دَاءِ

فَسَقَطُوا جَمِيعاً لِلقَطِّهِ سَرِيعاً

فَوَقَعُوا فِي الشَّبَكَهْ وَأَيقَنُوا بِالْهلَكَهْ

إلى آخر القصة ...

* * *

ولقد ذكر عبد الرحمن الصِّدِّقِى فى المجلة (العدد٢٤ عام ١٣٧٨ ه) أن شوقياً هو أول من تناول النظم فى هذا المجال فى العصر الحديث وقال : إنه قد أخذ تلك الطريقة عن الشاعر [الفرنسى] « لافونتين » وشوقى لم يَشْدُ فى الشعر إلا فى مطلع هذا القرن . بل لم يُولَدْ إلا بعد وفاة ابن مشرف بعام تقريباً ، فابن مشرف قد توفى عام ١٢٨٥ ه وشوقى ولد عام ١٢٨٦ ه . وكُتُبُ رجال الدعوة كابن مشرف قد انتقلت إلى مصر فى حياة شوقى ، فمن المرجح إذاً : أن يكون شوقى قد قرأ شعر ابن مشرف ، وأخذ عنه النظم على ألْسُنِ الطيُور والحيوانات .. قبل أن يقرأ للشاعر [الفرنسى] « لا فونتين »

وأخيراً يمكننا أن نقسم شعر ابن مشرف من حيث للوضوع إلى خمسة أقسام :

١ — نظم بعض المسائل العلمية .

٢ — المدح .

٣ — الحِكَم .

وقد أوردنا أثناء حديثنا [عنه] نماذج لهذه الأغراض الثلاثة .

٤ — الرثاء .. وقد رَثَى الإمامَ فيصلَ بن تركى بأحَرِّ رثاء .. مثل قوله :

عَلَى فَيْصَلٍ بَحْرِ النَّدَى وَالْمَكَارِمِ
بَكَيْنَا بِدَمْعٍ مِثْلِ صَوْبِ الْغَمَائِمِ (١)

تَغَمَّدَهُ الْمَوْلَى الْكَرِيمُ بِرَحْمَةٍ
وَأَسْكَنَهُ الْفِرْدَوْسَ مَعْ كُلِّ نَاعِمِ

فَلَا جَزَعًا مِمَّا قَضَى اللهُ فَاصْطَبِرْ
وَإِلَّا سَتَسْلُو مِثْلَ سَلْوِ الْبَهَائِمِ

٥ — الهجاء .. ولم يدفعه إلى ذلك الدفاعُ عن النفس أو الانتصارُ لها ، وإنما كان غرضُه الدفاعَ عن الدعوة ، والذَّبَّ عنها وعن أهلها والانتصار لهم :

ومن ذلك قولُه فى هِجاء « عَيْنِ نَجْمٍ » ، وهى بالأحساء :

أَلَا فَاتْرُكَا عَيْنًا تُضَافُ إِلَى نَجْمٍ
فَقُبَّتُهَا بِالْهَدْمِ أَوْلَى وَبِالرَّجْمِ

---

(١) المراد بالبحر — هنا — الأصل ، ومعناه الأساسى : ماقى البطون من الحمل .

لِأَنَّ بِهَا مَأْوًى لِمَنْ يَقْصِدُ الْخَنَا
وَكَمْ فَعَلُوا فِيهَا مِنَ الرَّقْصِ وَالْإِثْمِ
تَشُمُّ بِهَا الْكِبْرِيتَ أَخْبَثَ رِيحَةٍ
تَضُرُّ وَطِيبُ الرِّيحِ أَنْفَعُ لِلْجِسْمِ
وَهَلْ مَاؤُهَا إِلَّا حَمِيمٌ لِحَرِّهِ
يُذِيبُ الَّذِي فِي الْكُلْيَتَيْنِ مِنَ الشَّحْمِ
فَيَاطَالِبًا مِنْهُ الشِّفَاءَ بِزَعْمِهِ
جَهِلْتَ فَمَا فِي مِثْلِ هَـذَا سِوَى السُّقْمِ
فَلَوْ كَانَ فِي الْمَاءِ الْحَمِيمِ لَنَا شِفًا
لَخُصَّ بِهِ أَيُّوبُ يَاعَادِمَ الْفَهْمِ

* * *

أما الغزل فإن ابن مشرف يفخر بأنه لا ينظم فيه . وذلك فى مثل قوله :

بَدَا مِنْ أَدِيبٍ لَمْ يَقُلْ مُتَغَزِّلًا
« عُيُونُ الْمَهَا بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَالْجِسْرِ »[1]

لـكنه مع هذا يأتى فى مطالع قصائده ، بأَرَقَّ وأعذبَ نسيب .

ولعله لم يعتبر ذلك غزَلًا .. لـكونه جرى فيه مجرى الشعراء السابقين ،

---

(١) الشطر الثانى : هو الشطر الأول من قول الشاعر العباسى :

عُيُونُ الْمَهَا بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَالْجِسْرِ
جَلَبْنَ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ أَدْرِى وَلاَ أَدْرِى

وهو أول بيت من قصيدة تعد من أروع وأبدع وأرق وأوفق ما قيل فى الغزل ، وتوجد فى كتاب « الـكشكول » لبهاء الدين العاملى .

من اتخاذهم إياه وسيلةً للوصول إلى الغرض المقصود .

وذلك مثل قوله فى مطلع قصيدة فى الإمام فيصل بن تركى .

أَشَمْسٌ تَجلَّتْ مِنْ خِلَالِ السَّحَائِبِ ؟
أَمِ الْبَدْرُ جَلَّى حَالِكَاتِ الْغَيَاهِبِ ؟

أَمِ انْجَابَتِ الظَّلْمَاءُ عَنْ لَمْعِ بَارِقٍ
تَلَأْلَأَ مِنْ ثَغْرٍ لِإِحْدَى الْكَوَاكِبِ [1]

نَعَمْ أَقْبَلَتْ سَلْمَى فَأَشْرَقَ وَجْهُهَا
بِصُبْحِ جَمَالٍ تَحْتَ لَيْلِ الذَّوَائِبِ [2]

فَتَاةٌ تَفُوقُ الْغَانِيَاتِ بِحُسْنِهَا
كَمَا فَاقَ بَدْرُ التِّمِّ زُهْرَ الْكَوَاكِبِ

فَمَا لِلْمُعَنَّى لَا يَهِيمُ بِذِكْرِهَا
وَقَدْ كَانَ ذَا جِسْمٍ مِنَ الْوَجْدِ شَاحِبِ؟

تَنَاءَتْ فَزَارَتْ سُحْرَةً بَعْدَ هَجْعَةٍ
وَقَدْ نَامَ عَنْهَا كُلُّ وَاشٍ مُرَاقِبِ

تَنِمُّ بِرَيَّاهَا الصَّبَا حِينَ أَقْبَلَتْ
تَمِيسُ كَغُصْنِ الْبَانِ أَوْ مِثْلَ شَارِبِ

---

(١) البارق : السحاب ذو البرق، والكواكب : الحسان .

(٢) « صبح جمال ، وليل الذوائب » عبارتان من التشبيه الذى أضيف فيه المشبه به إلى المشبه — مثل « ذهب الأصيل ، ولُجَيْنُ الماء » وهو أسلوب جِدُّ بارع .

فَحَيَّتْ سُلَيْمى [بِابْتِسَامٍ] فَأَحْسَنَتْ
وَقُلْتُ لَهَا قَوْلَ الْمُحِبِّ الْمُعَاتِبِ (١)

صَلَيْتِ بِنَارِ الْهَجْرِ أَحْشَاءَ مُولَعٍ
فَلَمْ يُطْفِهَا مَاءُ الْعُيُونِ السَّوَاكِبِ (٢)

فَقَالَتْ أَلَمْ تَعْذِرْ فَكَمْ حَالَ بَيْنَنَا
مِنَ الْمَهْمَهِ الزِّيزَى وَبُعْدُ السَّبَاسِبِ (٣)

أَنَا فِي رُبَا نَجْدٍ وَأَنْتَ بِبَلْدَةٍ
أَحَاطَتْ بِهَا الْأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

* * *

تلك ـ أيها القارىء الكريم ـ لمحة عن الشاعر الأعمى أحمد بن مشرف .. اقتضبنا الحديث فيهما اقتضاباً ـ آملين أن يتيح الله له قلماً أطول نفساً يوفيه حقه .

وربما كان ذلك الغزل يرمز بـ «سلمى» إلى الدعوة التى نبتت وترعرعت فى نجد ـ والله أعلم .

---

(١) فى الأصل : « فحيت سليم فأحسنت رده » ثم صححت إلى « فحيت سليمى ـ الخ » وهو أسلوب مختل الوزن ، .. ولهـذا أصلحناه بما يتفق والمعنى المراد .

(٢) صَلَى اللَّحْمَ يَصْلِيه ـ كَاصْلَاهُ وصَلَّاهُ ـ : شواه ، أو ألقاه فى النار للإحراق .

(٣) المَهْمَه ـ كالمَهْمَهَةِ ـ : المفازة البعيدة ، والبلد المُقْفِرُ ، والزِّيزَى كالزِّيزَاء ، والزِّيزَاء ، والزَّازِيَةِ ـ : ما غلظ من الأرض ، أو الأكمةُ الصغيرة ، والسَّبَاسِبُ ـ كالسَّبْسَبِ ـ : المفازة ، أو الأرض المستوية البعيـدة .

ثانياً : [عبد العزيز بن طوق]

والشاعر عبد العزيز بن طَوْقٍ يستثيره ما فعل الأتراكُ وأعوانُهم بالبلاد وأهلها فيبعث ، بشكوى [من] تلك الحال — بعد الله — إلى الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن — وكان ابن طَوْقٍ قد انتقل من « الرياض » واستقر بالأحساء — وفيها يقول (١) :

رَسَائِلُ شَوْقٍ دَائِمٍ مُتَوَاتِرِ
إِلَى فَرْعِ شَمْسِ الدِّينِ بَدْرُ الْمَنَاظِرِ
سُلَالَةُ مَجْدٍ مِنْ كِرَامٍ عَشَائِرِ
يُعِيدُ بَدِيعاً مِنْ كُنُوزِ الْمَحَابِرِ
وَيُبْدِي لَكَ التَّوْحِيدَ شَمْساً مُنِيرَةً
وَلَـكِنَّ أَهْلَ الزَّيْغِ عُمْيُ الْبَصَائِرِ
مَدَارِسُ وَحْيٍ شُرِّفَتْ بِأَكَابِرِ
عَلَى مِلَّةٍ بَيْضَاءَ تَبْدُو لِسَائِرِ
سَقَى عَهْدَكُمْ عَهْدُ الشَّرِيعَةِ وَالتُّقَى
وَتَعْظِيمِ دِينِ اللهِ أَزْكَى الشَّعَائِرِ
فَيَارَاكِباً بَلِّغْ سَلَامِي تَحِيَّةً
تُعَزِّيهِ فِيمَا قَدْ مَضَى فِي الْعَشَائِرِ[1]

---

(١) الدرر السنية فى الأجوبة النجدية جمع الشيخ عبد الرحمن بن قاسم (جـ ٧ ص ١٨٧).

(١) فى الأصل : « بلغ سلامى وتحفة »، وهو تحريف .

وَأَعْظَمُ مِنْ ذَا يَا خَلِيلِي كَتَائِبٌ
تُهَدِّمُ مِنْ رَبْعِ الْهُدَى كُلَّ عَامِرِ
وَيَبْدُو بِهَا التَّعْطِيلُ وَالْكُفْرُ وَالزِّنَا
وَيَعْلُوا مِنَ التَّأْذِينِ صَوْتُ الْمَزَامِرِ
فَقَدْ سَامَنَا الْأَعْدَاءُ فِي كُلِّ خُطَّةٍ
وَأَصْلَوْا مُنَى الْإِسْلَامِ سَوْمَ الْمُقَامِرِ (١)
أَنَاخَ لَدَيْنَا لِلضَّلَالَةِ شِيعَةٌ
أَبَاحُوا حِمَى التَّوْحِيدِ مِنْ كُلِّ فَاجِرِ
وَقَابَلَهُمْ بِالسَّهْلِ وَالرَّحْبِ عُصْبَةٌ   عَلَى أُمَّةِ التَّوْحِيدِ أَخْبَثُ ثَائِرِ
يَقُولُونَ : لَكِنَّا رَضِينَا تَقِيَّةً   تَعُودُ عَلَى أَمْوَالِنَا وَالذَّخَائِرِ
فَضِحْكٌ وَلَهْوٌ وَاهْتِزَازٌ وَفَرْحَةٌ   وَأَلْوَانُ مَأْكُولٍ وَنَشْوَةُ سَاكِرِ
مَجَالِسُ كُفْرٍ لَا يُعَادُ مَرِيضُهَا   يُرَاحُ إِلَيْهَا فِي الْمَسَا وَالْبَوَاكِرِ
وَيَرْمُونَ أَهْلَ الْحَقِّ بِالزَّيْغِ وَيْحَهُمْ
أَمَا رَهِبُوا سَيْفًا لِسَطْوَةِ قَاهِرِ ؟
وَأَمَّا رِبَاعُ الْعِلْمِ فَهْيَ دَوَارِسٌ   تَحِنُّ إِلَى أَرْبَابِهَا وَالْمُذَاكِرِ
مُصَابٌ يَكَادُ الْمُسْتَجِنُّ بِطَيْبَةٍ
يُنَادِي بِأَعْلَى الصَّوْتِ هَلْ مِنْ مُثَابِرِ ؟ (٢)

---

(١) فى الأصل : « من الإسلام » وهو تحريف .

(٢) المستجن : المستتر ، وَطَيْبَةُ : المدينة النبوية ، والأسلوب : كناية عن موصوف ، هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فَجُدْ لِي بِرَدٍّ مِنْكَ تَبْرُدُ لَوْعَتِي
وَيُحْدَى بِهِ فِي كُلِّ رَكْبٍ وَسَامِرِ
وَتَنْصُرُ خِلًّا فِي هَوَاكَ مُبَاعِداً وَلَوْلَاكَ لَمْ تَعْبَثْ بِهِ أُمُّ عَامِرِ (١)
فَأَكْثِرْ أَوَ اقْلِلْ مَا لَهَا الدَّهْرَ صَاحِبٌ
سِـــوَاكَ فَقَابِلْ بِالْمُنَى وَالْبَشَائِرِ

فيجيبه الشيخ بقصيدة طويلة .. منها(ا) :

رَسَائِلُ إِخْوَانِ الصَّفَا وَالْعَشَائِرِ أَتَتْكَ فَقَابِلْ بِالْمُنَى وَالْبَشَائِرِ (٢)
تُذَكِّرُنِي أَيَّامَ وَصْلٍ تَقَادَمَتْ وَعَهْدًا مَضَى لِلطَّيِّبِينَ الْأَكَابِرِ
لَيَالِيَ كَانَتْ لِلسُّعُودِ مَطَالِعاً وَطَائِرُهَا فِي الدَّهْرِ أَيْمَنُ طَائِرِ
وَكَانَ بِهَا رَبْعُ الْمَسَرَّةِ آهِلاً تَمَتَّعَ فِي رَوْضٍ مِنَ الْعِلْمِ زَاهِرِ
وَفِيهَا الْهُدَاةُ الْعَـــارِفُونَ بِرَبِّهِمْ
ذَوُو الْعِـــلْمِ وَالتَّحْقِيقِ أَهْلُ الْبَصَائِرِ

---

(١) الخل : الصديق ، والمباعد : المتعمق فى الود ، وأم عامر : الضبع والعامر : جِرْوُها .

(ا) المرجع السابق وهو الدرر السنية (٧ : ١٨٧) .

(٢) إخوان الصفا : جماعة من أدباء وعلماء العصر العباسى — أخفوا أسماءهم وألفوا كتاب « رسائل إخوان الصفاء » من خمسين رسالة . . فى عدد من العلوم المختلفة تتصل بالتوحيد والفلسفة والمنطق ، وكان لهذه الرسائل أصداء واسعة مقبولة من القراء .

مَنَابِرُهُمْ تَعْلُو بِهَا كُلُّ سُنَّةٍ مُطَهَّرَةٍ أَنْعِمْ بِهَا مِنْ مَنَابِرِ (١)

مَنَاقِبُهُمْ فِى كُلِّ مِصْرٍ شَهِيرَةٌ رَسَائِلُهُمْ يَغْدُو بِهَا كُلُّ مَاهِرِ

وَفِيهِمْ مِنَ الطُّلَّابِ لِلْعِلْمِ عُصْبَةٌ

إِذَا قِيلَ : مَنْ لِلْمُشْكِلَاتِ الْبَوَادِرِ ؟

وَفِيهَا الْحُمَاةُ النَّاظِرُونَ لِرَبِّهِمْ مَعَاقِلُهُمْ شُهْبُ الْقَنَا وَالْخَنَاجِرِ (٢)

وَهِنْدِيَةٌ قَدْ أَحْسَنَ الْقَيْنُ صَقْلَهَا مُجَرَّبَةٌ يَوْمَ الْوَغَى وَالتَّشَاجُرِ (٣)

وَرُومِيَّةٌ خَضْرَاءُ قَدْ ضَمَّ جَوْفُهَا

مِنَ الْجَمْرِ مَا يَفْرِى صَمِيمَ الضَّمَائِرِ (٢)

وَكَانَتْ بِهِمْ تِلْكَ الدِّيَارُ مَنِيعَةً مُحَصَّنَةً مِنْ كُلِّ خَصْمٍ مُقَامِرِ

نَدَتْ بِهِمُو تِلْكَ الْفُتُونُ وَشَتَّتَتْ فَلَسْتَ تَرَى إِلَّا رُسُومًا لِزَائِرِ (٥)

---

(١) فى الأصل : « محابرهم » و « محابر » . وهى قطعا تحريف « منابرهم » و « منابر »، ولذلك أصلحنا هذ التحريف .

(٢) شهب : جمع شهباء « أى » : بيضاء ، وهو من إضافة الصفة للموصوف .

(٣) الهندية : السيوف ، و كانت قديما تصنع فى بلاد الهند والقين : الحداد .

(٤) الرومية : السهام الْمَرِيشَةُ . . نسبة الى « الرُّومَةِ » وهى الغراءُ . . الذى يُلْصَقُ به رِيشُ السهم ، أو هى أسلحة مصنوعة فى بلاد الرُّوم ، وهم جيل من نسل الرُّوم بن عيصو — كما ذكر صاحب القاموس .

(٥) ندت بهم : تَفَرَّقت ، والفتون : ، الفتن ، والمراد : أهلها ، وفى الأصل : « تموت » ولا معنى لها ، فهى تحريف .

وَحَلَّ بِهِمْ مَا حَلَّ بِالنَّاسِ قَبْلَهُمْ
أَكَابِرِ عُرْبٍ أَوْ مُلُوكِ الأَكَاسِرِ
وَبُدِّلْتُ مِنْهُمْ أَوْجُهاً لَا تَسُرُّنِى قَبَائِلَ يَامٍ أَوْ شُعُوبَ الدَّوَاسِرِ [١]
يُذَكِّرُنِيهِمْ كُلَّ وَقْتٍ وَسَاعَةٍ عَصَائِبُ هَاكُمْ مِنْ وَلِيدٍ وَكَابِرِ
وَأَرْمَلَةٌ تَبْكِى بِشَجْوٍ جَنِينَهَا لَهَا رَنَّةٌ بَيْنَ الرُّبَا وَالمَحَاجِرِ
وَهَذَا زَمَانُ الصَّبْرِ مَنْ لَكَ بِالَّتِى
تَفُوزُ بِهَا يَوْمَ اخْتِلَافِ المَصَادِرِ

* * *

ثانياً : اللفظ والأسلوب والأفكار والمعانى :

وإذا كانت الموضوعات والأغراضُ يمكن أن توصف بالنزاهة والشرف، ويمكن كذلك أن توصف بالسقوط والنذالة والفساد .. ، وما ماثل هذا أو ذاك من صفات : فإن الألفاظ والأساليب والأفكار والمعانى لاشك توصف بذلك كله ، بل إنه لايمكن الوصول إلى الغرض المقصود ـ حسَناً كان أو قبيحاً ـ إلا عن طريق اللفظ والأسلوب المناسبين له .

وإذا كان الأديب صافى العقيدة ، نَزيهَ التفكير سليمَهُ ، شريفَ المقاصد والأهداف ، ينزع فيما يذهب إليه عن مبدأ مُوغِلٍ فى الرسوخ ، مُعْرِق فى الثُّبوت ، منفردٍ بين المذاهب بقابلية الصلاح والإصلاح ، لكل زمان ومكان لصدوره ممن « لايُسْأَلُ عَمَّا يفْعَلُ »[٢] لكونه المُوجِدَ لكل شىء والمُتَصَرِّفَ فى كل شىء .

---

(١) يَامٌ : قبيلة يمنية الأصل ، والدواسر : قبيلة أخرى فى نجد .

(٢) الآية رقم ٢٣ من سورة « الأنبياء » .

إذا كان الأَديب من هذا الطراز فإنه أشد الأدباء احتياجاً إلى نزيه اللفظ وشريف التعبير ، لأنه نبيل القصد شريف الموضوع .

ولقد كان أدباء هذه البلاد المباركة الطيبة من ذلكم الطراز النفيس ... بل إنهم [كانوا] في ذلك قُدْوَة . ومَذْهَبُهم فيه أسوةٌ .. يأْتَمُّ بهم الصالحون ، ويسترشد بهم الراشدون ، وذلك أنهم من غِرَاس تلكم الدعوة المباركة .. التي قامت على أساس من الوحي المقدس ، والسُّنَّةِ الغَرَّاء ، والائتمام بالسلف الصالح الأولين .

وإن مَنْ يتقصَّصُ آثارهم ، ويتبع أخبارهم فيما رُوِيَ من سِيَرِهم أو تَضَمَّنَتْه أسفارهم ،أو ماحتوته أسرارُهم : لَيَرَى أنهم في هذا الميدان لا يُدْرَكُ لهم شأو ولا يُبَزُّ لهم جياد .

على أنك تلمح سمات التقليد لدى الأوائل ، ومحاولات التجديد لدى الأواخر .

وفيما سنعرضه من نماذج : أظهر دليل وأوضح برهان .. على أن مظاهر الجِدَّةِ أو القِدَمِ ليست مما يحتويه حديثنا هذا .

فمن ذلك قول الشاعر علي بن حسن العَسِيري ـ وهو ممن قرأ في «الدِّرْعِيَّةِ» على أولاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ وذلك حين هَزَمَ قَوْمُهُ جيوشَ الأَتراك والمصريين الغازِيَةَ .. قال (ا) :

وَمَا السِّرُّ أَنْ أُبْدِلْتِ قَصْراً مُشَرَّفاً
وَعَرْشاً وَفَرْشاً بِالْعَرَا وَالتَلَدُّدِ (١) ؟

(ا) تتمة الشيخ سليمان بن سحمان لكتاب «تاريخ نجد» للألوسي ص١٢٥ (الطبعة الثانية) .

(١) التلدد : التلفت والحيرة — و« التقدير : في أن أُبْدِلْتِ .

فقَالَتْ رُوَيداً يَا أبا سعْدٍ أنَّما أضَاقَ بِنا ذَرْعاً شَديدُ التّوَعُّدِ

عرَمْرَمُ جَيْشٍ سِيقَ مِنْ مِصْرَ مُعْنِفاً
يُهتِّكُ أسْتارَ النِّسَاءِ وَيَعْتَدِى

وَيَسْبِي ذَرَارِي الأَكْرَمِينَ جُبارَةً
وَيَنْظُرُ سَادَاتِ الرِّجَالِ بِمَقْلَدِ(١)

فقُلتُ لَهَا مِنْ دُونِكُنَّ وَدُونَهُمْ ضُروبُ حُمَاةٍ بِالْحَدِيدِ الْمُهَنَّدِ

ضُرُوبٌ تُزِيلُ الهَامَ عَمَّا رَبَتْ بِهِ
وَتُظْهِرُ مَكْنُونَاتِ أجْوافِ أكْبُدِ

وَطَعْناً يُرِى نَفْذَ الأَسِنَّةِ لُمَّعاً
مِنَ القَوْمِ يَعْوِى جُرْحُهَا لَمْ يُسَدَّدِ

* * *

قِفِي وَانظُرِى يَاأُمَّ عَبْدٍ مَعَارِكاً
يَشُبُّ لَهَا الوِلْدَانِ مِنْ كُلِّ أمْرَدِ

وَإِنْ كُنْتِ عنهَا فِي الْبِعَادِ فَسائِلِي
فَفِيهَا أُسُودٌ مِنْ « مَغِيدَ » بِمَرْصَدِ(١)

---

(١) الجُبَارَة : الإكراه والْهَدَرُ والباطل ، ويَنْظرُ : يبيع بِنَظِرة .. أى : بتأخر فى قبض الثمن .. يعنى الجيوش التى يتحدث عنها .. والمقلد : مكان القلد .. أى الجمع .. يعنى مكان جمع الأسرى.

(٢) مغيد : لعله اسم قبيلة من القبائل اشتركت فى الحرب .

وَفِيهَا لُيُوثُ « الْأَزْدِ » مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ
يُصَلُّونَ [هَذِى] الْحَرْبَ نَاراً لِمُفْسِدِ[1]

وَفِيهَا رَئِيسٌ « عَائِضٌ » حَوْلَ وَجْهِهِ
حِيَاضُ الْمَنَايَا أَصْدَرَتْ كُلَّ مَوْرِدِ[2]

إلى أن قال :

فَيَالَكَ مِنْ يَوْمِ الْخَفِيرِ وَمَا بَدَا
لِرَيْدَةَ مِنْ طُولِ الْغَمَامِ الْمُشَيَّدِ[3]

وَيَا لَكَ مِنْ يَوْمِ الْأُحُومِ سِبَاعُهُ
شِبَاعٌ وَطَيْرُ الْجَوِّ تَحْظَى لِمَشْهَدِ

وَيَالَكِ مِنْ أَيَّامِ نَصْرٍ تَتَابَعَت
بِهَا مِنْ شُوَاظِ الْحَرْبِ ذَاتِ التَّوَقُّدِ

---

(١) فى الأصل : « يصالون الحرب » والفعل الأول غيرموجود فى كتب اللغة . فضلا عن نقص الوزن ، ولذلك زدنا كلمة « هذى » ،وأصلحنا الفعل ومعنى « يُصَلُّونَ » : يشعلون .

(٢) العائض : اسم فاعل — بمعنى اسم المفعول .. كما ذكر صاحب القاموس —على حد قوله تعالى : « فى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ » . . أى : مرضية ، ومعنى الْمُعَوَّض : أى : الذى يعوضه الله النصر دائما ، ويجوز أن تكون محرفة عن « عارض » . . أى : جبل ، أو سحاب معترض فى الأفق .. على معنى التشبيه .

(٣) الحفير : موضع ، ورَيْدَةُ : بلد باليمن .

إلى أن قال :

بِأَيْدِى رِجَالٍ مِنْ « شَنُوءَةَ » جَدُّهُمْ
رَقَى بِهِمُ مَجْداً إِلَى حَذْوِ فَرْقَدِ
تَدَلَّى عَلَيْهِمْ مِنْ صَمِيمِ أُصُولِهَا
ثَبَاتٌ وَبَحْرٌ كَالْمُحِيطِ الْمُزَبَّدِ
فَفَاخِرْ بِهِمْ يَاخَاطِباً فَوْقَ مِنْبَرٍ
عَلَى النَّاسِ فَاقُوا بِالْحُسَامِ وَسُؤْدُدِ
لِيَهْنِ بَنِي قَحْطَانَ مَجْدُ فَخَارِهَا
مَدَى الدَّهْرِ فِي نَادٍ بِوَادٍ وَأَبْلُدِ[1]

* * *

ومن المعلوم أن تلك الحروبَ التى شنَّهَا الأتراكُ والمصريُّون على الوهابية والوهابيين — على حد تعبيرهم — فى جزيرة العرب لم يَصْدِرْ فيها قائلوها ومدبِّروها عن عاطفة دينية ، أو نزعة إسلامية :

وإنما لأنهم رَأَوْا فى الدعوة كِيَاناً أساسيًّا يُهَدِّدُ كِيَاناتهم الفاسدة ، فبادروا بضربه قبل أن يشتد ساعدُهُ ، ويقْوَى بناؤه ، فيمتدّ خارج جزيرة العرب فيصعبَ عليهم حينئذ الوقوفُ فى وجهه ، وقد تم لهم ما أرادوا .

على أن أبطال الدعوة قد استبسلوا فى الدفاع عن بلادهم وأهلهم ، وبذلوا مافى وسعهم ، ولكن كان الفرق شاسعاً فى العتَادِ والسلاح ووفرة الرجال الْمُدَرَّبِينَ ، فكان ما كان . وَ (لِلّٰهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ)[1] ولا رَادَّ لِمَا قضاه وقدَّره

---

(١) أبلد : جمع « بلد » .

(١) وحى الصحراء ـ جمع محمد سعد عبدالمقصود ، وعبدالله بالخير (ص٣٩) وراجع الآية رقم ٤ من سورة الروم .

ولقد كان السلطان المبارك لهذه الدعوة نافذ التأثير على أَلْسُنِ أبناء هذه البلاد . . إذ كان يحجزهم عن اللفظ النابى ، والقول الممقوت ، حتى فى المناسبات التى هى إلى المبالَغات أقرب . . حيث كان يُلْزِمُهُمْ فيها الاعتدالَ وصِدْقَ المقال

فالشاعر أحمد إبراهيم الغزاوى يحدِّدُ وصف مساره من مكة إلى الرياض عام ١٣٥٢ فيقول : —

أَجَلْ هَـذِهِ نَجْدٌ فَهَلْ شَاقَكَ الرَّنْدُ ؟
وَهَبَّتْ صَبَاهَا فَاسْتَقَرَّ بِكَ الْوَجْدُ

بِلَادُ أُبَاةِ الضَّيْمِ هَـذِى رِيَاضُهَا
وَهَذَا وَلِىُّ الْعَهْدِ يَسْمُو بِهِ الرِّفْدُ

وَثَمَّةَ مِنْ سُـورِ الْأَمَانِى وَعَيْنِهَا
مَبَاهِـجُ لَا يَدْنُو إِلَى حَصْرِهَا الْحَدُّ

أَطَلَّتْ فَمَا الطَّلُّ الْمُرَقْرِقُ فِى الضُّحَى
يُحَاكِى سَنَاهَا فِى الْغُصُونِ إِذَا تَبْدُو

وَلَا الزَّهْرُ فِى أَكْمَامِـهِ مُتَفَتِّقًا
كَمِثْلِ الرَّجَاءِ الْغَضِّ يَبْعَثُهُ الوُدُّ

فَـكَمْ حَدَّثَتْـنِى عَنْ هَوَاهَا وَطِيبِهِ
فَرَائِدُ رَقَّتْ وَاسْتَرَقَّتْ بِهَا الْأُسْدُ

وَكَمْ قَاصِرَاتِ الطَّرْفِ فِى جَنَبَاتِهَا
أَرَاشَتْ سِهَامَ اللَّحْظِ إِذْ دَأْبُهَا الْعَمْدُ

وَكَمْ سَاجِعَاتِ الْأَيْكِ فِي عَـذَبَاتِهَا
أَثَارَتْ شُجُونِي فَهْيَ فِي إِثْرِهَا تَشْدُو

وَكَمْ فِي رُبَاهَا مِنْ كُمَاةٍ أَشَاوِسٍ
تَصُولُ بِهِمْ بِيضٌ وَتَعْدُو بِهِمْ جُرْدُ (١)

أَلاَ إِنَّمَـــا يَهْفُو إِلَيْهَا أَخُو جَوًى
يَهِمُّ بِهَا مُنْذُ اسْتَقَلَّ بِهِ الْمَهْدُ

وَمَا وَلَّهَتْـنِي فِي هَـــوَاهَا ظِبَاؤُهَا
وَلاَ الْخَفِرَاتُ الْبِيضُ وَالْفَاحِمُ الْجَعْدُ (٢)

وَلَـكِنَّنِي قَدْ هِمْتُ فِيهَا لِأَنَّهَا
مَبَاءَةُ شَرْعِ اللهِ وَالْكَوْكَبُ الْفَرْدُ

تَمَثَّلَتْ فِيهَا عِزَّةُ الدِّينِ وَالتُّقَى
وَمَا فَرَضَ الْقُرْآنُ أَوْ أَبْرَمَ الْمَجْدُ

فَأَنْشَدْتُ ـ وَالْإِيمَانُ مِلْءُ جَوَانِحِي
مُغَلْغَلَةً ما إِنْ يَضِلُّ لَهَا قَصْـــدُ (٣)

قَدِمْنَا فَأَمْضَيْنَا إِلَى مُتَطَـــوِّلٍ
مَطَالِعُهُ نُورٌ وَأَعْمَالُهُ رُشْـــدُ

---

(١) البيض : السيوف ، والجرد : الخيل .

(٢) الفاحم الجعد : الشعر القصير ، أو غير السبط .

(٣) مغلغلة : قصيدة عظيمة .

أَتَيْنَاكَ مِنْ ضَبٍّ الْحِجَارِ بِبَيْعَةٍ
تَوَطَّدَ فِيهَا الأَمْرُ فَاسْتَحْكَمَ الْعَهْدُ

تَكَادُ إِذَا مَا اسْتُنْطِقَتْ عَنْ سُطُورِهَا
تُجَاوِبُ بِالْإِخْلَاصِ لَوْ أَمْكَنَ الرَّدُّ[1]

وَقَدْ حَمَّلَتْنَا أُمَّةٌ فِى رُبُوعِهِ
أَمَانَتَهَا الْكُبْرَى وَفِى طَيِّهَا حَشْدُ

وَلَوْلَا عَظِيمُ الشَّعْبِ لَمْ يَرْضَ سَيْرَهُ
جَمِيعًا لَعَادَاكَ الْبُكُورُ إِذَا يَغْدُو

نَعَمْ إِنَّ هَذَا الْحُبَّ يَغْمُرُ قَلْبَهُ
وَفِى الْحَقِّ أَنَّ الْحُبَّ مَعْنًى هُوَ الْحَمْدُ

وَهَلْ فِى نِزَارٍ أَوْ مَعَدٍّ بِأَسْرِهَا
كَمَنْ هُوَ فِى آسَاسِهَا الرُّوحُ وَالْكَبْدُ

تَخَيَّرَهُ الرَّحْمَنُ فِيهَا مُتَوَّجًا
وَآفَاقُهَا بِالْجَوْرِ تَشْكُو وَتَرْبَدُ

فَأَنْقَذَهَا مِنْ دَائِهَا بِدَوَائِهِ
فَزَالَ وَشِيكًا وَاسْتَطَاعَ لَهَا الْجَدُّ[2]

(١) لعل هذا البيت مأخوذ من قول الشاعر :

يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلا   يكلمه من حبه وهو أعجم

(٢) استطاع : بمعنى .. انطاع .. أى : انقاد لها الحظ، وسار وراءها .

فَذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَا
فَسُبْحَانَهُ الْقُدُّوسُ لَيْسَ لَهُ نِدُّ

وَشَتَّانَ مَنْ يَبْغِى الْحَيَاةَ لِلَذَّةٍ
وَمَنْ هَمُّهُ فِيهَا يُجَاذِبُهُ الْخُلْدُ

عَقِيدَةُ مَنْ لَوْ شَاءَ قَبَّلَ رِدْفَهُ
أَفَانِينَ يَسْتَهْوِى الْعُقُولَ بِهَا الْكَيْدُ

تَوَرَّعَ عَنْهَا بِالإِلَهِ فَصَانَهُ
وَصَيَّرَهُ فَوْقَ الْعُرُوشِ هُوَ الطَّوْدُ

فَلَا بِدْعَ أَنْ تَفْدِيهِ كُلُّ نُفُوسِنَا
وَأَنْ جَاءَهُ التَّوْفِيقُ وَالْحَلُّ وَالْعَقْدُ (١)

أَمَوْلَاىَ فَاقْبَلْ بَيْعَةً مِنْ خِيَارِنَا
فَأَنْتَ لَهَا الْمَأْمُولُ وَالْبَطَلُ الْوَرْدُ (٢)

* * *

والشاعر عبدُ الله عمرُ باخَيْرِ : يُغَرِّدُ فى حفل الاستعراض الذى أقيم فى « مكة » فيقول [من قصيدة جيدة] تحت عنوان :

---

(١) سكنت ، الياء فى الفعل « تفديه » للضرورة ، وكان الواجب فتحها لأن الفعل منصوب بأن .

(٢) الورد : من صفات الأسد ، ومعناها الجرىء ، وقد غلب إطلاقها على الأسد ، وأصبحت من أسمائه .

ثلاثة أعياد(ا)

لِمَنْ مَوْكِبٌ قَدْ سَارَ يَتْلُوهُ مَوْكِبُ
بِأَوَّلِهِ سَالَ « النَّقَا » وَ« الْمُحَصَّبُ » ؟؟[1]

أَ« هَارُونُ » فى الرَّكْبِ الْعَظِيمِ تَوَافَدَتْ
إِلَيْهِ الْوَرَى أَمْ سَارَ فى الْجَيْشِ « يَعْرُبُ » ؟؟[2]

أَمِ الْبَطَلُ « الْمَنْصُورُ » مَاجَتْ بِخَيْلِهِ الْ
بِلَادُ أَمِ « الْجُمْعَانِ » فِيهَا « الْمُهَلَّبُ » ؟؟[3]

أَمِ « الْفَيْصَلُ » الْغَازِى تَبَدَّتْ شُمُوسُهُ
فَقَامَتْ لَهُ كُلُّ الْبِلَادِ تُرَحِّبُ ؟؟[4]

تَبَدَّى فَأَمْسَتْ كُلُّ عَيْنٍ قَرِيرَةً
وَكُلُّ فُؤَادٍ بِالسُّرُورِ مُكَهْرَبُ

(ا) وحى الصحراء (ص ٢١٢) .

(١) النقا : القطعة من الرمل تكون مُحْدَوْدِبَةً ، والمقصود: كثبان مكة والمحصَّبُ : موضع رمى الجمار بِمِنًى .

(٢) هارون : هو الرشيد ، والكلام على التشبيه ، ويعرب : هو ابن قحطان جد اليمن والعرب جميعاً ، وقد توفى الرشيد سنة (١٩٣هـ/ ٨٠٩م).

(٣) المنصور : يعنى به أبا جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس المتوفى سنة (١٥٨هـ/٧٧٥م).أو الأمير منصور بن عبدالعزيز وزير الدفاع السعودى ، والمهلب : هو ابن أبى صفرة القائد الإسلامى الشهير .

(٤) الفيصل : هو الملك فيصل بن عبد العزيز ــ وكان أميراً وقتها ــ مليك العربية السعودية الحالى .. أمد الله فى عمره .

قُدُومٌ بِهِ « أُمُّ الْقُرَى » قَدْ تَزَيَّنَتْ
فَفِي كُلِّ حَيٍّ مِهْرَجَانٌ وَمَوْكِبُ(١)

وَلَوْلَمْ يَعِجَّ «السَّيْلُ» بِالشَّعْبِ يَوْمَ أَنْ
قَدِمْتَ وَكُلٌّ لِلِّقَا يَتَرَقَّبُ

لَوَافَى إِلَيْكَ « الْحِجْرُ » يَمْشِي مُرَحِّباً
وَسَارَ يُلَاقِيكَ « الْفِنَاءُ الْمُحَجَّبُ »(٢)

تَوَالَتْ مَسَرَّاتٌ عَلَى الشَّعْبِ مُنْذُ أَنْ
قَدِمْتَ فَكُلٌّ بِالْمَسَرَّةِ مُطْرَبُ

ثَلَاثَةُ أَعْيَادٍ : قُدُومُكَ سَالِماً
وَإِقْبَالُ عِيدِ الْفِطْرِ بِالْيُمْنِ مُعْرِبُ

وَعِيدُ جُلُوسِ الْعَاهِلِ السَّنَدِ الَّذِي
تَسِيرُ بِهِ « نَجْدٌ » وَتَفْدِيهِ « يَثْرِبُ »

---

(١) أم القرى : مكة المكرمة ، وقد وردت تسميتها بذلك فى قوله تعالى: « وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا » : الآية ٩٢ من سورة الأنعام .

(٢) السيل : الماء الكثير الهائل ، والمراد : مكانه .. أى: الموضع الذى تسيل فيه المياه أيام الأمطار ، وهو مكان معروف بهذا الاسم فى مكة ، والحجر ماحواه الحطيم المُدَارُ بالكعبة شرفها الله ، ولعله يقصد بالفناء المحجب : فناء الحرم وهذا الشطر مأخوذ من قول البحترى فى المتوكل :

فَلَوْ أَنَّ مُشْتَاقاً تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا فِي وُسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمِنبَرُ

فأَنْعِمْ بِهِ يَوْماً لِذِكْرَاهُ كُلَّمَا
يُرَدِّدُهَا التَّارِيخُ يُزْهَى وَيُعْجَبُ(١)
هُوَ النِّعْمَةُ الْكُبْرَى عَلَى الْعُرْبِ كَيْفَ لاَ
وَفِيهِ ابْتَدَا عَصْرُ السُّعُودِ الْمُذَهَّبُ؟
وَفِيهِ خَطَوْنَا خُطْوَةً سُجِّلَتْ لَنَا
عَلَى صَفَحَاتِ الدَّهْرِ بِالْفَخْرِ تُصْحَبُ
وَفِيهِ غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً
بِأَمْثَالِهَا الْأَمْثَالُ فى النَّاسِ تُضْرَبُ(٢)
وَفِيهِ أَرَيْنَا النَّاسَ كَيْفَ مُجُودُنَا
فَأَعْجِبْ بِرُوحِ الْمَجْدِ إِنْ كُنْتَ تَعْجَبُ(٣)
وَفِيهِ الْتَقَى « نَجْدٌ » بِقُطْرِ « مُحَمَّدٍ »
فَسَارَ إِلَى الْقَصْدِ الَّذِى هُوَ مَطْلَبُ(٤)

---

(١) فى الأصل : « يزهو » وهى لغة باطلة أو نادرة ـ وإن كانت شائعة فى أزماننا ـ ولذلك بدلناها بالفصيح .

(٢) اقتباس من قول بشار بن برد الشاعر العباسى المتوفى سنة ١٧٦هـ / ٧٧٤م) :

إِذَا مَاغَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً
هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمَا

(٣) فى الأصل : « كيف أمجادنا » وهو مخل بصحة الوزن ، ولذا صححناه

(٤) فى الأصل : « الذى يحن » وهو مخل بصحة الوزن ، ولامعنى له ولذا صححناه .

إلَى الْوَحْدَةِ الْكُبْرَى يَقُودُ جُمُوعَهُمْ
فَوَحَّدَهُمْ « عَبْدُ الْعَزِيزِ » الْمُحَبَّبُ

مَلِيكٌ لَهُ تَاجٌ « بِنَجْدٍ » مُرَصَّعٌ
وَعَرْشٌ عَلَى أُفْقِ « الْحِجَازِ » مُطَنَّبُ

دَعَائِمُهُ فَوْقَ الْحَطِيمِ وَزَمْزَمٍ
وَقِمَّتُهُ الْعُلْيَا إلَى الشَّمْسِ أَقْرَبُ

تَحُفُّ بِهِ مِنَّا الْقُلُوبُ وَدُونَهُ
يَلَذُّ لَنَا الْمَوْتُ الزُّؤَامُ وَيُضْرَبُ

* * *

وعنـدما اشتد أُوار الصراع بين النظريات السياسية التى بدأ ظهورها وانتشارها بين أبنـاء المنطقة العربية فى أواخر القرن الثَّالِثَ عَشَرَ الهجرىّ ، وبلغت أَوْجَها فى مطلع هـذا القرن ، فساروا فى تجاهلها يتخبطون ويضربون فيها بأفـكارهم يَمْنَةً وَيَسْرَةً على غير هدى .. وَجَدَ أُدباؤنا من ذلك مَخْلَصًا ومَنْجَاةً بأن جعلوا الإسلام فى تحليلهم لها مِحْوَرَ رغباتهم .. لأنه النظام الأمثل .

وكيف لا ؟ والله سبحانه وتعالى [هو] الواضع له ومرتضيه للإنسانية.. إلى أن يرث الأرض ومن عليها ، فالشذوذ عنه هلاك ، وابْتِغاءُ الرُّشْدِ من غيره ضلال .

* * *

فمن كلمة للأديب أمين بن عَقيلٍ تحت عنوان :

خواطر متناثرة(١)

الحجاز : يدعو للجامعة الإسلامية ، أم للوحدة العربية ، أم للرابطة الوطنية؟؟؟

الحجاز قلب الجزيرة النابض، ودماغها المفكر ، وفؤادها الخفّاق ، ترامى فى

---

(١) وحى الصحراء (ص ١٠٦) .

أعماق الصحراء ، وتغلغــل فى الأودية القاحلة الجرداء ، ليَخْلُصَ من أرْجَاس المدنية الزائفة الخلاَّبة ، وأوضار الرفاهية والترف المُميت ، فالعواطف والشعور فتبقى فيه الحيــاة سليمةً هادئة هانئة ، وتعنو لوجود بارئها ، وتُخلِصُ له الطاعة والعبادة ، وتزكو النفوس وتتألف القلوب.. على الإخلاص فى القصد ، والدأب المستمر على العمل .. بحسب القوى الموجهة ، ولإرادة المَسيرة للزعامة المتعالية ، يعززها النفوذ الدينى الأخَّاذُ ، وجلال الإسلام عزته المثلى فى كل مَنْفَرٍ وموضع قدم من هذه البلاد المقدسة .

وكان الحجاز قبل ثلاثة عشر قَرْناً موطن الحكمة والمعرفة ، ومبعث النور لهذا العالم ، من شعلة الهداية(١) والناس فى ظلمات الجهل يعمهون ، فأخرجهم بهَدْيِ القرآن وصفاء الشريعة المحمدية من دَيْجُورِ الضلالات ، وسخافات(٢) الاعتقادات ، وجعل الناس كلَّهم سواسيةً فى الحقوق والواجبات ، كما كان الحجاز مدرسة كبرى تخرَّج من محيطها أولئك الأشاوس الكُماة الذين سيروا النهضة الإسلامية بخطا(٣) رزينة هادئة لميدان العظمة والمجد والفتح المبين ، وفى مُدَّةٍ يسيرة صارت الشمس لاتغرب [عن] أملاكهم .

كذلك لا تزال فى الحجاز اليوم مظاهر زعامته الإسلامية وسلطته الروحية وموقعه الجغرافى ، واستقلاله النـاجز ، وعدم تدهور [ه] .. فى ريادة للملاهى والخلاعات(٤) ، ولا تزال فيه القُوَى الكمينة ، والمؤهلات المختبئة ، وموجباتُ العظمة للنفوس [والأرواح] .

---

(١) فى الأصل : « الهادية » وهو تحريف .

(٢) « « : « شفافات » وهو تحريف .

(٣) « « : « بخطوى » وهو خطأ .

(٤) « « : « قيادة » وهو تحريف .

وَإِذَا اتِّكَالُ الْجِيلِ طَالَ فَإِنَّهُ ... لَا شَكَّ تَرْجُمُ أَمْنَهُ الأَوْجَالُ(١)

وَطَنِي الْعَرِيقَ مَتَى أَرَاكَ مُجَلِّيًا ... لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا عَلَيْكَ جَلَالُ؟

أَتُرَى أُعَمَّرُ كَيْ أَلَذَّ بِنَهْضَةٍ ... مَبْثُوثَةٍ بِفُرُوعِهَا الآمَالُ(٢)

يَاغَيْبُ بَشِّرْ فِي بِلَادِيَ عَنْ غَدٍ ... إِنَّ الْفُؤَادَ يَؤُودُهُ الإِمْهَالُ(٣)

فَامْشِ الْعُجَيْلَى يَا زَمَانُ فَإِنَّنِي ... صَبُّ الْعَيَانِ وَمَا لَدَيَّ خَيَالُ(٤)

* * *

أوْ على هذا النحو الذى سار عليه إبراهيم العواجى [حيث يقول] فى قصيدته [التى عنوانها] :

ياموطنى(ب)

مُنْذُ الطُّفُولَةِ شَعَّ فِي نَفْسِي ضِيَاكْ ... وَأَلِفْتُ أَنْ أَبْقَى سَعِيداً فِي رُبَاكْ

وَنَعِمْتُ مِنْ خَيْرَاتِ جُودِي مِنْ عَطَاكْ

وَشُعَاعُ شَمْسِكَ حِينَ تُرْسِلُهُ سَمَاكْ

بِالرَّحْمَةِ الْكُبْرَى الْعَمِيقَةِ مِنْ رُؤَاكْ

وَمَنَافِعٍ شَتَّى يَجُودُ بِهَا ثَرَاكْ

وَمَعَالِمٍ لِلْمَجْدِ خَلَّدَهَا أُولَاكْ ... وَعَرَفْتُ مَعْنَى الصَّبْرِ مِنْ مَعْنَى بَقَاكْ

---

(١) فى الأصل : « أمنية الأوجال » وهو تحريف ، والأوجال : جمع « وَجَلٍ » وهو الخوف ، والمعنى : يكون أمنه مهدداً دائماً .

(٢) تُرَى : تظن ، وأُعَمَّرُ : أعيش طويلا .

(٦) يؤوده : يهلكه ويدمره .

(٤) العجيلى : الإسراع ، .. ضد « الهُوَيْنَى » أى : التؤدة والمهل .

(ب) المرجع السابق ص٢٥.

فَعَبرْتُ فِي دُنْيايَ أَحْتَمِلُ الْعِرَاكْ

وَتَشَبَّعتْ روُحِي بِنَفْحٍ مِنْ شَذَاكْ

بِالْحُبِّ بِالْإِيمَانِ يَبْعَثُهُ صَدَاكْ

هَدَفِي الْمُقَدَّسُ أَنْ أُنَاضِلَ فِي حِمَاكْ

حُرًّا نَشَأْتُ وَسَوْفَ أَفْنَى فِي رِضَاكْ

مَجْدِي وَعِيدِي حِينَ تَحْقِيقِي مُنَاكْ

فِي أَوْجِ عِزِّكَ عَالِيًا يُزْهَى بَهَاكْ[1]

وَالنَّهْضَةُ الْكُبْرَى يُبَارِكُهَا دُعَاكْ

وَالزَّحْفُ نَحْوَ الْمَجْدِ يُلْهِبُهُ لَظَاكْ

سَأُذِيبُ نَفْسِي كَيْ أُشَيِّدَ مِنْ عُلَاكْ

حَتَّى أَرَى التَّارِيخَ يُقْبَسُ مِنْ سَنَاكْ

ويشتد بهم البلاء، ويَكْرُبُهم الكرب، فلا يتجهون إلى نبيٍّ أو ولى أو صالح، وَلا يَطُوفُونَ بِقَبْرٍ أو ضريح.. يتوسلون أو يستمدون العونَ، وإنما يطلبون ذلكَ من الْقوِيِّ القادر عليه، فيستمدونه، ويطلبون منه العون، ويسترحمونه فى كشف كربهم، وذلك ما نَشَّأتهمُ عليه الدعوة، وغذّتهم به، وربّتْهُمْ فيه، وناهيك بذلك من تربية ونهج قويم.

وحينما اختلطت ثقافة أبناء هذه البلاد القديمة بالثقافة الحديثة أقبلوا عليها بِنَهَم وحماس مُنْقَطعِي النظير، ومع ذلك لا تستطيع تلك الثقافة الجديدة - على رغم ما بها من مغريات وما فى مصادرها من فساد — أن تُغَيِّرَ ما هم عليه من نهج

---

(١) فى الأصل: « يَزهُو »، والأفصح: بل الأصح « يُزْهَى ».

وما يتّسم به تعبيرهم من نزاهة، بل تظل روح الدعوة مسيطرة عليهم، وتعاليمُها مسدِّدة لهم، منها ينهلون، وعنها يَنْزِعونَ ويُصْدِرُون، وفي موكبها يَحْذُون، وبلسانها يَشْدُون، لا يَصْرِفهم عن وِرْدِها صَارِفٌ، ولا يصدف بهم عن نهجها صَادِفٌ، فهم فيها كما كان أسلافهم .. عقيدةً وعملاً، وإخلاصاً ووفاء وبَذْلاً .. وإن اختلفت نوعية السلاح، ولكل ظرف سلاحه .

* * *

[تائية عبد الحميد الخطيب[1]]

فمن تائية مطولة لعبد الحميد الخطيب — قوله :

يَارَبِّ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ اسْتُضْعِفُوا وَتَفَرَّقُوا فِي الرَّأْيِ وَالْكَلِمَاتِ

صَدَقَ الرَّسُولُ فَقَدْ تَدَاعَتْ فَوقَهُمْ

أُمَمٌ تَدَاعِيهَا عَلَى الْقَصَعَاتِ[1]

مَاذَاكَ عَنْ قُلٍّ وَلَكِنْ قَدْ غَدَوْا كَغُثَاءِ سَيْلٍ يَحْمِلُ الْفَضَلَاتِ[2]

نُزِعَتْ مَهَابَتُهُمْ وَأُشْرِبَ قَلْبُهُمْ بِالْوَهْنِ وَانْقَادُوا إِلَى الشَّهَوَاتِ

---

(١) تائية عبد الحميد الخطيب (ص ١٧) .

(١) إشارة إلى الحديث النبوى الشريف : « تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأَكَلَةُ على القَاصِعَاء » .. والقَصَعَاتُ — كالقِصَع والقِصَاع — : جمع قَصْعَة ، وهى الصحفة .

(٢) إشارة أيضا — إلى ما جاء فى الحديث الشريف — حين سأل سائل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى حديث الفتن . . « ونحن يومئذ من قلة يارسول الله ؟ — فقال ، وأنتم من كثرة ، ولكنكم غُثَاءٌ كَغُثَاء السيل » .

أَغْرَاهُمُ حُبُّ الْحَيَاةِ وَهَالَهُمْ ... شَبَحُ الْمَمَاتِ فَطَأْطَئُوا الْهَامَاتِ
ظَهَرَ الْغُلُولُ وَشَاعَ بَيْنَهُمُ الزِّنَا ... وَتَنَاقَصُوا فِي الْوَزْنِ وَالْكَيْلَاتِ [1]
وَتَعَمَّدُوا نَكْثَ الْعُهُودِ وَلَمْ يُرَا ... عُوا الْحَقَّ عِنْدَ الْحُكْمِ وَالنَّصَفَاتِ
ضَنُّوا بِمَالِ اللهِ فِي مَرْضَاتِهِ ... وَتَبَايَعُوا بِالْعِيْنِ وَالسُّلْطَاتِ [2]
وَقَدِ اسْتَسَاغُوا الذُّلَّ فِي أَوْطَانِهِمْ ... عَنْ أَنْ يُلَبُّوا وَاجِبَ الْهِجْرَاتِ
لَا غَرْوَ أَنْ رَعَبُوا وَقُطِّعَ رِزْقُهُمْ ... وَقَدِ ابْتُلُوا بِالدَّمِّ وَالْهَلَكَاتِ [3]
وَتَسَلَّطَ الْأَعْدَا عَلَيْهِمْ عَنْوَةً ... وَأَذَلَّهُمْ مَنْ كَانَ فِي الذِّلَّاتِ [4]
حَتَّى غَدَوْا غُرَبَاءَ فِي أَوْطَانِهِمْ ... وَلِضَعْفِهِمْ حُسِبُوا مِنَ الْأَمْوَاتِ

وإن كان الله تبارك وتعالى — مِنَّةً منه وتَكْرِمَةً — قد نَزَّه مَهْدَ هذه الدعوة المباركة، وألسنة أبناء هذه البلاد.. من أن تنزلق فيما وقع فيه الكثير ممن أشرك مع الله غيره.. عن طريق التوسل بالمخلوقات والكائنات، والحلف بغير الله، كالشرف والحياة وما إلى ذلك .. فإنه قد هداهم إلى طريق الحق والصواب فيما يَنْشُدُونه مِنْ حَالٍ ومآل، فكانت نظرتُهم فى مشاكل الحياة والناس

---

(١) الغُلول ـ كالإغلال ـ : الخيانة مطلقاً، أو فى الفيء خاصة، وتناقصوا: وطلبوا النقص وعملوا به.

(٢) فى الأصل: « بالعينة والسلطان »، وهو تحريف.

(٣) رعبوا — هنا — لازم .. مطاوع « رَعَبَه أو رَعَّبَه » المتعدى « فرعَبَ » بوزن « منع » .. أى: خاف، والدم — هنا — القتل .. مجاز مرسل علاقته اللازمية.

(٤) لعل الشاعر يقصد اليهود .. الذين « ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ والْمَسْكَنَةُ وبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ »، ثم استذلوا المسلمين وسلبوا منهم فلسطين.

نظرةَ المسلم المؤمن الذى امتلأت نفسه باليقين وعَمُرَتْ، واتصفت أعماله وتصرفاته بالصدق والنزاهة والإخلاص ، واتسمت أهدافه ومقاصده ينشدان الحقيقة المجرَّدة من الأهواء والنزوات ، والانطلاق وراء الشهوات الرخيصة المُثقلة بأدناس المادِّيَّة الملحدة .

فوازَنوا الأُمور، وقوَّموا الأشياء بمعايير العدالة الإسلامية .. التى وضع نظامها رَبُّ العزة والجلال ـ فيما أوحى به إلى نبيه وصفيه ـ عليه الصلاة والسلام .

من هنا طاب لنا أن نورد نَظْرَتيْن لمشكلتين .. أُولاهما لكاتب قدير ، وثانيتهما لشاعر مُجِيد .

* * *

العقبى للإسلام(1)

تتنازع العالَمَ دياناتٌ ومبادىء مختلفة ، وكلٌّ يدَّعى أنه الذى أصاب كبد الحقيقة وأدرك السر العظيم، وأن فيما توصل إليه من معتقدٍ أو مبدإ: محضَ(1) الصواب ، وما عداه باطل .

ويشتد السعى من كل فئة ، ولا يدخرون وُسعاً فى جذب الآخرين إلى مايعتنقونه ، حتى وإن كان غاية فى السخف والنُّكرِ ، أو على الأقل [كانوا] لا يرتضون بديلا لما أَلِفُوه، وما اتخذوه نِحْلَةً ومذهباً .

والإنسان مضطر اضطراراً ـ لايقل عن احتياجه ـ للطعام والشراب إلى المعتقد والدين ، والمرء غير المتدين تائه فى بيداء قاحلة ، ويعيش فى خِضَمٍّ

(1) نشرت فى المنهل «المجلد ٢٦ ذو القعدة سنه ١٣٨٥ وطبعت فى كتاب «سبيل الإسلام» .

(1) فى الأصل « ومبدإ هو الصواب » وهو أسلوب غير محكم هنا .

الاضطراب النفسى ، والقلق الروحى ، والحياة الفوضوية ، ولكن .. أىُّ دينٍ هو الجدير بالاعتناق ؟ وأى مبدأ هو الَحرَى بالاتباع ، وكُلٌّ يُغَنِّى على لَيلاهُ ؟ ؟

إن الإنسان الباحث المتجرد عن الهوى والتعصب ، والذى لم يتحجر بمادِّيَّة الإلحاد ، ووثنية الخرافات ، وتقليد الآباء على غير بصيرة : لا يترددُ مطلقاً فى أن يقول بملءِ فيه : إن الإسلام خاتِمُ الأديان ، ومكمِّل الشرائع ، والناسخ للشرائع قبله .

فاليهوديَّةُ قد شُوِّهَتْ بالتحريف والتبديل ، وكانت فى الأصل لِقَوْمٍ مُعَيَّنِين هم بنو إسرائيل ، وفيها من الآصارِ والأغلال ما يَصْعُبُ تطبيقه ، ويُحْرِجُ تنفيذُه ، والنصرانيةُ دخلتها الوثنية ، وغَيَّرَ القُسُسُ والرُّهبان والبابَواتُ كثيراً .. حتى امتلأت بالخرافات والمتناقضات .

والوثنياتُ من مجوسية وَزَارْدُشْتِيَّة وبوُذِيَّة وهِنْدُوسِيَّة : كلها ينفر منها الذوق ويَمُجُّهَا الطبع السليم ، وتُجَافيها العقولُ الصحيحة ، وهى لا تحقق للمرء ما يصبو إليه فى حياته .

والشيوعية المُلحِدَةُ وما يشابهها ويدانيها لم تجْلُبْ لأهلها سوى الدمار والفشل والخراب الاقتصادى ، والانحلال الاجتماعى ، والامتهان لكرامة الفرد وتسخيره .. كالآلة بلا إرادة ، ولا رأى ، ولا تفكير ، وهو فى خَوَاءٍ وفراغ قاتل ، لأنه قد فقد أَهَمَّ مقوِّمات البشر ، وهو الإيمان بالله وبالدين .. الذى ينتج عنه الاطمئنان والسعادة والهناءة ، والذى شَرَعَ ما فيه صَالِحُ البشر وراحتهم .

وقد أثبتت الأيام فشلَ دعاةِ الإلحاد ، وبَوَارَ الشيوعية الحمراء ، وبعد تجربة نصف قرن من حياة العالم الشيوعى الاشتراكى .. تكَشَّفَتِ الحقائق الرهيبة عن الدعاوَى الزائفة ، والحكم الطاغى والتدهور الاجتماعى ، وزالت الغشاوةُ عن أعين من يُبْصِرُونَ ويُمَيزُونَ بين الحقيقة والخيال ، والممكن والمُسْتَحِيل ،

وبين الغَثِّ والسمين . وبدأت تتضح حقيقة الشيوعية وواقعُها من تصريحات زعمائها وكتابها والمروجين لها ، واتخذت الحكومة الروسية قراراتٍ عديدةً لا تتفق والماركسية القاسية ، واللينينية المتبعة ، وضَرَبَتْ بتعاليم المؤسسين للشيوعية عُرْضَ الحائط ، لأنها لا تواكب الحياة بمختلف ضروبها ، وشتى ألوانها ، وقُمِعَتِ الشيوعية ووُئِدَتْ فِى مهدها . فى بلدان أخرى[1] .

ولا شك أن العالم مهما تخبط فى الفوضى الفكرية ، وتشتتت معتقداته .. فإن الحق الناصع واضح ، وهو أن البشرية إذا ما أرادت أن تعيش حياة كريمة

---

(١) الواقع أن هذه الكلمات تنزل على القلوب الفطرية ، والأفكار العميقة بَرْدًا وسلاما ، وأن هذه الأديان والمذاهب المنسوبة إلى الأديان والفلسفات السابقة ، أو الملحدة .. كالشيوعية : لا يمكن قط أن تساوق العقول ، أو ترضى النفوس ، أو تنيل طالب الإنسانية بِغُيته ورجاءه ، . . والحقيقة التى لا خلاف عليها أن الإسلام هو الدواء الطِّبُّ ، والعلاج الناجع للحياة الإنسانية المريضة ، التى كسبها التحلل والتبذُّل شقاء على شقاء ، وأورثها خيبة بعد خيبة .. حتى انحسرت العقول عن أداء رسالتها ، وكفت الإرشادات عن إبلاغ أمانتها .

وأعتقد اعتقادا جازما أنه لولا ما عليه المسلمون من بعدٍ عن دينهم ، وفرار من عقائدهم ، وانفلات من واجباتهم . لكان الإسلام الآن هو المهيع الذى يفر الناس إليه ، والملجأ الذى يُهْرَع الناس نحوه . . ولكنْ بين المسلمين ودينهم بون شاسع ، وشرخ عميق .. فالسفور بالغ أشده ، والتبذل واصل لغايته ، والخمور والقمار ، والزنا والفجور ، وتعطيل فروضِ وحدودِ الله : منتشر فى كل مجال والشواطىء والملاهى مزدحمة بالمسلمين العُراة والمسلمات الكاسيات العاريات .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وارفة السعادة، مستقرةً آمنة .. فعليها أن تقتبس من نور الإسلام ، وتستهدىَ بهدايته ، فهو دين البشر أجمعين ، وشَرْعُ العالم كله — بقطع النظر عن معتقده وجنسه ولونه ووطنه — وبه تُحَقِّقُ الأمم حكومات وشعوباً بُغْيَتها فى كل ناحية. من اجتماع وسياسة وعسكرية، وتنظيم للحالات الفردية والجماعية والأُمَمِيَّة والشعوب والحكومات .

وإذا كانت حُجُبُ الدَّعَاوَى والتضايلات .. التى تحاول طمس الحقيقة وتريد تنفير الناس من اعتناقه ، والتمسك به .. قد أثَّرت فى إخفاء معالم هذا الدين الذى بعث الله به خاتم رسله . إلى الناس كافة، فإن واجب المسلمين على اختلاف مستوياتهم — وعلى الأخص حكوماتهم وعلماؤهم أن يُجْلوُا الغامض ، وأن يوضحوا دعوة الإسلام، ودِينَ الله .. بكل الوسائل .. إنفاذاً لأمر الله . وحرصاً على أن يستتب الاستقرار والسعادة فى أنحاء الدنيا .

* * *

ثانيا : ومن قصيدة للشاعر محمد حسن الفقى بعنوان :

« العروبة والإسلام »(١)

قُلْ لِلرَّسُولِ بِأَنَّنَا فِى مِحْنَةٍ نَكْرَاءَ تَسْتَهْدِى بِغَيْرِ قِيَاسِهِ

قَدَحَتْ بِهَا الشَّرَرَ الْمُبِيدَ عِصَابَةٌ
كَانَتْ مِنَ الْإِسْلَامِ شَرَّ أُنَاسِهِ

قَالُوا عَنِ الدِّينِ الْحَنِيفِ بِأَنَّهُ تُزْهَى حَضَارَتُهُمْ بِغَيْرِ لِبَاسِهِ(٢)

وَتَسَتَّرُوا خَلْفَ الْعُرُوبَةِ وَالْهَوَى
بَلَدٌ يُمِيطُ السِّتْرَ عَنْ أَحْلَاسِهِ

---

(١) ديوان «قدر ورجل» ص ١٨٣.
(٢) فى الأصل : « تزهو » وقد تقدم مرات أن الأفصح والأصح: « تُزْهَى »

يا وَيْحَكُمْ إنَّ العُرُوبَةَ قَدْ زَكَتْ ... بالدِّينِ وَهْيَ تُعَدُّ مِنْ حُرَّاسِهِ

هِيَ مَنْ أقَامَ صُرُوحَهُ فتطاوَلَتْ ... وَهْيَ الَّتِي نَشَرَتْهُ فِي آماسِهِ(١)

وَهْيَ الَّتِي فِي يَوْمِهِ تَمْشِي بِهِ ... فَخَّارَةً وَتَشُدُّ مِنْ أمْرَاسِهِ(٢)

وَلَهَا الْغَدُ الْمَأْمُولُ حِينَ تُعِيدُهُ ... لِشَبَابِهِ وَتَدُقُّ مِنْ أجْرَاسِهِ

لَكِنَّهَا سَارَتْ وَقَدْ دَاَّتْ بِهِ ... وَتَحَسَّبَتْ أجَالَيْنِ مِنْ أخْمَاسِهِ(٣)

لَوْلاهُ ضَلَّتْ فِي الْمَهَامِهِ وَاسْتَوَتْ ... فِي سَفْحِ هَذَا النَّجْمِ لا فِي رَأْسِهِ

نَشَرَتْهُ واسْتَعْلَتْ بِهِ فَخَّارَةً ... مِنْ بَأْسِهَا وفَخَارُهَا مِنْ بَأْسِهِ(٤)

لاَ تَنْبُذُوهُ فَإنَّ فِي أصْلاَبِكُمْ ... دَمَهُ وَإنَّ الْهَدْيَ فِي أطْرَاسِهِ

أوْ تُنْكِرُوا مِقْيَاسَهُ فَلَرُبَّمَا ... وَجَدَ الْخُصُومُ الْحَقَّ فِي مِقْيَاسِهِ

مَجْدُ الْعُرُوبَةِ مَجْدُ كُلِّ يَرَاعَةٍ ... عَرَبِيَّةٍ خَطَّتْ عَلَى قِرْطَاسِهِ

فَتَنَفَّسُوا مِنْهُ الْمَكَارِمَ إنَّهَا ... لَوْ تَعْلَمُونَ تَفِيضُ مِنْ أنْفَاسِهِ

هُمْ أنْكَرُوا الدِّينَ الْحَنِيفَ وَإنَّمَا ... أخَذُوا جَزِيلَ الْعِلْمِ مِنْ كُرَّاسِهِ

مَا ضَاعَ فِي أجْنَاسِهِمْ كَمَنَارَةٍ ... تَهْدِي فَكَيْفَ يَضِيعُ فِي أجْنَاسِهِ؟

عَجَبًا وَهَذَا الْكَنْزُ يَخْطَفُ مَاسُهُ ... أبْصَارَنَا أنْ نَسْتَخِفَّ بِمَاسِهِ

هُوَ كَنْزُنَا لاَ كَنْزُهُمْ وَنُضِيعُهُ ! ... وَنَجِدُّ كُلَّ الْجِدِّ فِي إفْلاَسِهِ !!!

---

(١) آماس: جمع « أمس » وكذلك: « آمُسٌ وأُمُوسٌ ».

(٢) الأمراس: جمع » مَرَسٍ » ، وهى جمع « مَرَسَة » ، وهى الحبل.

(٣) الأخماس: جمع « خِمس » وهو أظماء الإبل ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع وترتاح الخامس ، والمعنى على التشبيه .

(٤) فى الأصل: « فخرها » ، وهى جائزة أيضا بالزحاف .

مظهر آخر لتأثير الدعوة فى الأدب

وإذا كانت الدعوة قد تركت أثرَها ظاهراً فى الألفــــاظ والأغْرَاض والاستعمالات والمقاصد .. ظَاهِرِها وخَفِيِّهَا ، خاصِّها وعامِّها ، وإذا كان ذلك التأثير قد شَمِلَ أنواع الأدب .. شعراً وكتابة وخطابة .. فإن هنالك معْرَضًا يتجلى فيه أثر الدعوة التاريخى فى حياة الأدب .

وذلك هو إثراء المكتبة الأدبية بما دَفَقَتْهُ أقلام كلٍّ من المؤيدين لهــا والمنافحين عنها ، والمعاندين المعارضين لهــا .. إذ بلغت معارك النقــد والجَدَل والأخذ والرد .. أقصَى حدٍّ من الضَّرَاوة ، ووقف الباطل فيها يسجل ضلاله وتضليله أمام الحق والهُــدى ، محاولا القضاء عليه أو تعويقه ، فَدَبَّجَ النَّظْم والقصيدَ ، وسُطِّرَتِ المقــالاتُ والبحوثُ ، فــكانت الدواوينُ والمؤلفــاتُ الضخمةُ التى حَفِلَتْ بها سجلات مؤلفات العصر الحــديث .. لذا كانت حرباً كلامية صال فيها وجال كل من الفريقين ـ ما بين ناثر وناظم ـ استخدما ما أوتياه من فصاحة لسان وقوة بيان .. لتجليله ما لــكُلٍّ منهما من حُجَّةٍ وبرهان .

* * *

وممن يذكر فى هذا المجال من المعاندين المعارضين ، داودُ بن سليمان بن جرجيس ، وجميل أفندى صدقى الزَّهَّاوى ـ وهما عراقيان ـ والشيخ أحمد زين دَحْلَان .

ومن أئمة الدعوة الذين تَصَدَّوْا للرد على ضلالات أولئك وتزييف شبهاتهم وكشف أقنعة آرائهم الشِّرِّيرة ، الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن ، والشيخ سليمان بن سَحْمان ، والشيخ السهوانى الهندى .

وإنه ليطيب لنا أن نختم وقفتنا هذه بنصٍّ مما سالت به قرائح أولئك العلماء فلقد أكثر الشانئون المبْغِضُون فى ذم أَئِمَّةِ الدعوة ومؤلَّفاتهم ، وحاولوا حملها على غير وجهها ، فتصدَّى لهم أرباب اللَّسَن والبيان .. من رجال الدعوة ، أمثال

محمد بن عثيمين الذى سلّ عضبَ لسانه فى وجوههم ، وغرسَ سنان بيانه فى نحورهم ، فى مثل قوله من قصيدة بعنوان :

شموس من التحقيق (١)

شُمُوسٌ مِنَ التَّحْقِيقِ فِى طَالِعِ السَّعْدِ
تَجَلَّتْ فَأَجْلَتْ ظُلْمَةَ الْهَزْلِ وَالْجِدِّ
قَوَاطِعُ مِنْ آيِ الْكِتَابِ كَأَنَّهَا
بِأَعْنَاقِ أَهْلِ الزَّيْغِ مُرْهَفَةُ الْحَدِّ
إِذَا مَا تَلاهَا مُنْصِفٌ وَمُحَقِّقٌ يَقُولُ هِيَ الْحَقُّ الْمُبِينُ بِلاَ جَحْدِ
وَيَصْدِفُ عَنْهَا مُبْطِلٌ مُتَعَسِّفٌ يُقَلِّدُ آرَاءَ الرِّجَالِ بِلاَ نَقْدِ
يَجُرُّ أَقَاوِيلَ الرَّسُولِ وَفِعْلَهُ
إِلَى رَأْيِهِ الْغَاوِى وَمَذْهَبِهِ الْمُرْدِى
كَفَانَاهُمُ مَنْ لَمْ يَزَلْ مُتَجَرِّداً
لِنَصْرِ الْهُدَى وَالدِّينِ أَكْرِمْ بِهِ مُهْدِى
سُلَيْمَانُ مَنْ سَارَتْ فَضَائِلُ مَجْدِهِ
مَسِيرَ مَهَبِّ الرِّيحِ فِى الْغَوْرِ وَالنَّجْدِ
وَمَا قَالَهُ الصَّفَّارُ آيَةُ جَهْلِهِ وَعُنْوَانُ بُطْلَانِ الْعَقِيدَةِ وَالْقَصْدِ
وَلَوْ كَانَ ذَا عَقْلٍ لأَصْبَحَ سَائِلاً
أُولِى الْعِلْمِ وَالتَّحْقِيقِ مِنْ كُلِّ مُسْتَهْدِى

(١) ديوانه ص ٤٣٧ .

فَقَـــالَ بِعِلْمٍ إِذْ تَفَوَّهَ قَائِلاً
وَإِلاَّ رَأَى الإِمْسَاكَ خَـــيْراً فَلَمْ يُبْدِ

لَعَمْرُكَ مَا التَّقْوَى بِلِبْسِ عِمَـــامَةٍ
وَلَا تَرْكِهَا فَاسْلُكْ سَبِيلَ أُولِى الرُّشْدِ

وَلَـكِنْ بِجَوْفِ الْمَرْءِ وَاللهِ مُضْغَةٌ
عَلَيْهَا مَدَارُ الْحِلِّ فِى الدِّينِ وَالْعَقْـدِ

فَـكُنْ وَاقِفــــــاً عِنْدَ الْمَحَارِمِ زَاجِراً
عَنِ الْبَغْىِ نَفْساً تَسْتَبِيكَ بِمَا يُرْدِى

وَخُذْ يَمْنَةً وَاسْلُكْ سَبِيلَ الأُولَى مَضَوْا
مِنَ الرُّسْلِ وَالآلِ الْـكِرَامِ أُولِى الْمَجْدِ

وَإِيَّاكَ وَالإِقْدَامَ بِالْقَوْلِ حَاكِماً
بِحِلٍ وَتَحْرِيمٍ بِلَا حُجَّةٍ تُجْدِى

فَتُصْبِحَ فِى بِيدِ الضَّلَالَةِ هَائِمــاً
وَتَصْدِفَ يَوْمَ الْحَشْرِ عَنْ جَنَّةِ الْخُلْدِ

وَنَهْيُــكَ أَنْ تَقْرَا رَسَائِلَ عَالِمٍ
لَدَيْـكُمْ بِخِذْلَانٌ لَـكُمْ وَاضِحٌ مُرْدِى

أَلَيْسَ بِهَا آيَاتُ حَقٍّ قَوَاطِعٌ
تَدُلُّ عَلَى الأَمْرِ الْمُرَادِ مِنَ الْعَبْدِ

وَأَقْوَالُ خَــيْرِ الْمُرْسَلِينَ وَصَحْبِهِ
وَأَهْلِ النُّهَى وَالْعِلْمِ مِنْ كُلِّ مُسْتَهْدِى

فَمَنْ كَانَ يَوْماً نَابِذاً مِثْلَ هَذِهِ
يَقُولُ بِأَقْوَالِ الْمَلَاحِدَةِ اللُّدِّ

تم بحمد الله وحسن توفيقه

بسم الله الرحمن الرحيم

الأدب الحديث فى نجد

كلمة تقريظ : بقلم الدكتور / محمد عبد المنعم خفاجى

— ١ —

قرأت كتاب « الأدب الحديث فى نجد » فى نسخته الخطية المعدة للطبع .. وهو بقلم الأديب الجليل الأستاذ محمد بن سعد بن حسين ، ولقد أكبرت جهد المؤلف وما بذله فيه من دأب ومثابرة وحرص .. على أن يفى تاريخ بلاده الأدبى حقه من البحث والدراسة ، والكتاب فى كثير من موضوعاته جديد ، وبحوثه فى أغلبها غير مطروقة وهو يُضيف إلى تاريخنا الأدبى الحديث إضافات غنية . توضح صورة الأدب العربى فى بيئة من أكبر وأقدم بيئاته ، وهى بيئة نجد العربية الخالصة قد يلتقى فى بعض الأحايين مع كتاب جليل آخر سبقه بالصدور وهو كتاب « شعراء نجد المعاصرون » للأديب الكبير / عبد الله بن إدريس / ولكنه التقاء الفكر بالفكر . والرأى بالرأى ، وهذا الالتقاء من شأنه أن يثرى الأدب ، وأن يوضح الصورة ، وأن يرسم الأبعاد ، وأن يجلو ما غمض أو خفى من جوانب حياتنا الأدبية .

— ٢ —

تناول المؤلف الجليل ابن سعد فى كتابه دراسة : « الشعر والشعراء فى نجد » من منتصف القرن الثانى عشر إلى اليوم فى محاضرتين ضخمتين :

أولاهما : عن الشعر والشعراء فى نجد .. من منتصف القرن الثانى عشر الهجرى

إلى منتصف هذا « القرن الرابع عشر » ، وثانيهما عن الشعر فى نجد بعدمنتصف القرن الرابع عشر ، وتتسم هذه الدراسة بالدقة والشمول والعمق وقد تحدث فى مقدمتها عن الإمام / محمد بن عبد الوهاب / وأثره الضخم فى تاريخ نجدالحديث وعن أحفاده ، الذين بنوا دولة حضارية كبيرة صارت موضع أمـل المسلمين وتقديرهم .. وتحدث عن ظهور الشعر فى نجد فى العصر الحديث ، وعن بعض أعلامه، ومن بينهم : عبد العزيز بن طوق . والشيخ / عبداللطيف بن عبدالرحمن الأزهرى، وسليمان بن سحمان / وأفاض فى الحديث عن أغراض الشعر ، وعن شاعرين من أشهر الشعراء فى نجد ، وهما ابن عثيمين وابن بليهد .

وعندما يدرس الشعر بعد منتصف القرن الرابع عشر الهجرى يذكر أهم المدارس الشعرية الحديثة :

مدرسة خليل مطران — مدرسة الديوان — مدرسة المهجر — وإن كنت أحب أن يضيف إليها مدرسة أخرى مشهورة هى مدرسة أبولو التى قامت بجهود الشاعر الكبير الدكتور المرحوم / أحمد زكى أبو شادى /[1] ويذكر المؤلف أثر هذه المدارس فى الشعر الحديث فى نجد ، ويعرض أثرها فى الشعراء المعاصرين من أمثال :البواردى وخالد الفرج /وعبد الله ابن خميس/وحمدالحجى/ الذى أشبهه بشاعر مصرى أصيل هو المرحوم / عبد الحميد الديب الذى يسمى شاعر البؤس والحرمان ،ولا يزال ديوانه مخطوطا حتى اليوم وإن كان قد ظهر عنه دراسة فيها الكثير من شعره وهى بقلم الدكتور / عبد الرحمن عثمان .

---

(١) راجع عن هذا المدرسة كتابى بدار « الشعر الحديث » وما كتبته عنها فى كتبي « الأدب العربى الحديث ومدارسه » « وقصص من التاريخ » « ودراسات فى الأدب المقارن » و «قصة الأدب فى ليبيا » .

الدراسة التى كتبها المؤلف ابن سعد عن حمد الحجى ، وشعره وشاعريته دراسة خصبة مطولة وجديدة ، وهى المحاضرة الثالثة من المحاضرات التى اشتمل عليها الكتاب .

وتجىء المحاضرة الرابعة عن الخطابة والكتابة فى العصر الحديث فى نجد . وهى تضيف إضافات جديدة فى دراسة الأدب فى نجد ، وقد عرض فيها للخطابة وأثر الإمام محمد بن عبد الوهاب / فى تطورها . كما عرض للكتابه بجميع أقسامها من كتابة ديوانية ، وكتابة فنية تشمل الرسالة والمقالة والقصة ، ويذكر أن الرسائل الإخوانية قد كان للشيخ / عبد اللطيف بن عبدالرحمن المقلب بالأزهرى ـ لكونه درس فى الأزهر ـ أكبر الأثر فى نشأتها وتطورها ، وقد توفى هذا الشيخ الجليل عام ١٢٩٣ هـ ـــ ١٨٧٥ رحمه الله .

وفى آخر هذه المحاضرة يدرس حياة الأمير محمد بن سعود وأثره فى تاريخ نجد الحديث وفى قيام الإمام محمد بن عبد الوهاب بدعوته الكبرى .

— ٣ —

دارسات طويلة مرهقة فيها خصوبة وجدة وثراء وفيها أضواء كاشفة لمعالم الأدب الحديث فى نجد شعره ونثره لابد للدارسين أن يستضيئوا بها لكشف الطريق ومعرفة الأبعاد وإيضاح الصور ، ومن ثم كان لابن سعد فضل وأى فضل بما قدم لقراء العربية وآدابها من زاد خصب ودراسات شيقة مفيدة . وأشهد للمؤلف بجمال الأسلوب وحسن الذوق وسعة الإدراك وعمق الفهم : للقضايا التى درسها فى كتابه ، وهو منصف فى كثير من أحكامه ، مجيد فى كثير من جوانب دراسته ، متأن غاية التأنى فى إبداء الرأى .. حتى يقدم له الحجج ويمهد له الأسانيد ، ولا أترك ملاحظة عابرة وقفت عندها طويلا هى ما ذكره المؤلف من موقف مصر من الوهابية والوهابيين ، وقد كرر ذلك فى مواضع ثلاثة من كتابه ، ففى صفحة ١٣ يشير إلى

مما أصاب البلاد من المحن الجسيمة التى جرها الاتراك والمصريون للقضاء على الوهابية ، وفى صفحة ٩٩ من الأصل المخطوط يذكر أن (العالم العربى والإسلامى وقف من الحركة الوهابية موقفاً عدائياً ، وحمل لواء المناهضة والحرب أكبر البلاد الإسلامية والعربية آنذاك : تركيا ومصر) وفى الصفحة الخامسة يذكر استخدام تركيا لمحمد على حاكم مصر لضرب الوهابية والوهابيين .

وللمؤلف هنا صادق لأنه يسير مع أحداث التاريخ الظاهرة ، ولكنه بفطنته وذكائه وألمعيته يدرك تمام الادراك الحقائق الآتية :

١ ــ كانت تركيا دولة الخلافة الإسلامية ، وكانت مصر آنذاك تابعة لها تبعية كاملة ، وحاكم مصر / محمد على / هو حاكم تركى معين بقرار من الخليفة العثمانى وهو منفذ لأوامر الخليفة ولسياسته .

٢ ــ فرض محمد على نفسه على مصر والمصريين فرضا بما أنشأه من جيش ضخم كونه من كل العناصر الغريبة عن المصريين .

٣ ــ ليس للمصريين ـ فى الموقف الذى وقفه محمد على وجيشه فى حربه للوهابية ـ خيار ، ولا رأى ولا مشيئة ، لأن الأمر كان بيد الخليفة العثمانى أولا وبيد حاكمه التركى (غير المصرى) ثانياً ـ ولو كان الشعب المصرى آنذاك مستقلا عن دولة الخلافة ولو كان هو المسئول عن حكامه وسياستهم لصح أن ينسب ما صنعه محمد على الحاكم التركى فى مصر .. إلى المصريين .

ولقد كتب الإمام محمد عبده فصلا طويلا عن سياسة محمد على فى مصر وأنها كانت سياسة تخالف كل رغبات وآمال وتطلعات المصريين وأنه كان حاكما تركيا لا ملكا مصريا ، وهذا الفصل منشور فى كتاب (محمد عبده) الذى ألفه الشيخ / محمد رشيد رضا ـ رحمه الله .

٤ — وليس هناك صلات من الحب والتقدير والأخوة الاسلامية الصادقة والمسالمة الفكرية والروحية أكثر مما بين : المصريين والسعوديين .

— ٤ —

وبعد فإن تقديرى للمؤلف ولثقافته العميقة وذوقه العالى وإدراكه السليم للأمور يجل عن الذكر والتنويه . وقد عرفت المؤلف من قرب ومن قريب إنسانا وأديباً وشاعراً ومؤلفاً وعالماً ضليعاً فى مادته ، وعرفته طموحا دؤوبا وعاملا مجدا ، ومثابرا صبوراً على القراءة والعلم ، وهو يتمتع بذكاء شديد وقريحة خصبة ، ومواهب متعددة .

وأعده مفخرة من مفاخر الأدب المعاصر فى نجد، وأحد الخريجين الممتازين من كلية اللغة العربية فى الرياض وهى كلية تخدم اللغة العربية والأدب العربى بكل ما تستطيع وتربى أجيالا من العلماء ، الذين سوف يكون لهم أثر صدق فى بناء النهضة ، وتكوين الأمة وخدمة الإسلام والمسلمين .

— ٥ —

ولماذا ـ بعد ذلك كله ـ الحديث عن الأدب الحديث فى نجد وحدها؟ والمملكة العربية السعودية وَحْدةٌ سياسية كاملة . ولم يعد هناك مجال للفصل بين جزء من أجزائها وجزء آخر . وقد عاشت كما تحب أن تعيش فى الماضى أمة متحدة . وشعبا متلاحما . ودولة قوية متماسكة، ولو أن مؤلفاً معاصراً أراد اليوم أن يكتب كتابا فى اقليم الصعيد مثلا لما استطاع من جانب ، ولكان مثاراً للنقد الشديد من جانب آخر .

ولكن الأمر هنا مختلف تماماً، فالدراسات عن نجد وبخاصة فى العصر الحديث

قليلة ونادرة وشبه معدومة، ولا يمكن الوقوف على أدب المملكة كله إلا إذا اتضحت صورة الأدب في نجد ، بعد أن اتضحت صورته فى الحجاز ، وأود ألا يطول عصر الكتابة عن الأدب فى أقاليم المملكة .. نجد والحجاز وعسير والأحساء، وأن تبرز صورة الأدب فى هذه الأقاليم كلها على أنها وحدة أدبية واحدة فى القريب من الزمن على أيدى الدارسين والمتخصصين من أبناء الشعب العربى السعودى العريق فى المجد والتاريخ . والفضل كل الفضل فى كل خطوة بناءة راجع إلى حماس العلماء والأدباء السعوديين، وإلى نشاطهم المحمود فى خدمة الثقافة الإسلامية العربية . وفى خدمة الأدب العربى فى مختلف عصوره وبيئاته .

وهو كذلك راجع إلى مشاركة الخريجين من جامعة الرياض ومن كليتى اللغة العربية والعلوم الشرعية فى هذا النشاط المثمر المحمود الموفق :

وما التوفيق إلا بالله :

أول رمضان ١٣٩٠هـ — ٢ أكتوبر ١٩٧٠ م

ملاحظات للمحقق :

(أ) لقد استطاعت العامية المُعْرَبَةُ أن تتسلل إلى مِهَاد العربية الفصحى ثم ترميها بِشُوَاظٍ من نارها ـ لتترك فيها بعض النُّدُوب ، وتصمها ببعض العيوب ، وتشوه نصوعها وسطوعها ببعض الـكَلَفِ الذى ينقص من درجات الجمـــال .

والعجيب أن تدق هذه التأثيرات .. حتى تجوز على أرباب المقامات ، وتتخلج إلى ذوى الفصاحات ، فتسرى فى أدبهم مَسْرَى السم فى الدَّسَم ، وتجرى فى تركيبهم مجرى التوانى فى الهمم ، وتفعل فى لغتهم فعل « الميكروب » فى الشىء المطـــوب .

وقد تأليتُ أن أطهر هذا الـكتاب من كل الأدران ، وأن أستل ما لحقه من وَصَبٍ أو عاب .. نتيجة لانفتاح الأبواب ، لدخول العامية بغير حساب .

ومما شاع بين الفصحاء ، واستُعْمِل فى أسلوب الأدباء .. التعبيرات الآتية :

١ ــ « لابد وأن يكون كذا » : وصحتها : « لابد أن يكون » ولا معنى للواو هنا .

٢ ــ « تطوَّر الأمرُ » ، وهى كلمة اختُرِعَت وافتُرِعَتْ واستعملت بدون حدود . . مع أن هذه المادة « طور » لم يأت فيها إلَّا « طَوْرٌ » و « أَطْوَارٌ » ولم يُرَ منها فعل ، ولا مشتقاتُ فِعْل . ولهذا لا يجوز استعمالها . ولو أجازها المجمع اللغوى وجهابذته ، ويمكن الاستعاضة عنها بكلمة « تدرج » أو « تصعد » أو « تصوب » حسب المعنى المراد .

٣ ــ «أهاجه» على أن الهمزة من «أفْعَلَ » والمعروف فى اللغة «هَاجَهُ» وهَيَّجَهُ » ، فإن كانت الهمزةُ للاستفهام ساغ ذلك كقول مهلهل بن ربيعة :

أَهَاجَ قَذَاةَ عَيْنِى الادِّكَارُ ؟ هُدُوءاً فالدُّمُوعُ لَهَا انْهِمَارُ

٤ — « عمل كمحرر ، أو كمالم ، أو كصحفي » ، وهو أسلوب عامي . . صحته : « عمل محرراً » . . إلخ .

٥ — « فلان شغوف بكذا » ، وهو تركيب غير مأثور ، والصحيح : « مَشْغُوفٌ بكذا » .

٦ — « لئن فعل كذا فإن حدوث كذا ممكن » : وهو أسلوب باطل ، وصحته ، « لئن فعل كذا إنَّ حدوث كذا ممكن » . . قال ابن مالك فى الألفية :

واحْـذِفْ لَدَى اجْتِماعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ
جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهوَ مُلْـتَزَمْ

وعلى هذا فالفاء هنا باطلة .

٧ — « ماهى العوامل » والصحيح : « ماالعوامل ؟ » ، ولامعنى للضمير المنفصل هنا .

٨ — «عازب» . . بمعنى : غير متزوج ، وهو خطأ . . صحته « عَزَبٌ » أو « أعْزَبُ » .

٩ — « ساهم فى حركة كذا » غير مستعمل ، والموجود « أسْهَمَ » .

١٠— « بسيط » بمعنى « قليل » ، و «البساطة» . . بمعنى : « السهولة » والصحيح : « يسير » ، و « الْيَسَارَة » لأن « البسيط » بمعنى « المبسوط » ، أى : الممدود .

١١ — « ولئن كان إلا أنه » ، وصحته : « و لئن كان إنه » ، ولا معنى لأداة الاستثناء هنا .

١٢ — « الشيء الْوَفِير » . . بمعنى : « الكثير » ، وهو خطأ ، والمستعمل « الوفْرُ والْوَافِرُ والْمَوْفورُ » .

١٣ — « وماهى إلا دقائق ثم يخرج » ، والصحيح : « حتى يخرج » .

١٤ — « سبق وأن قلنا » ، والصحيح : « سبق أن قلنا » ، ولا معنى للواو هنا مطلقاً .

١٥ — « فما هو إلا كذا فلا تكاد تسمع » وهو خطأ ، وصوابه :« حتى لا تكاد تسمع ».

١٦ — « أمور طبيعية » ، وهو خطأ ، والصواب : « طَبَعِيَّةٌ » .. قال ابن مالك :

.. . . « وَفَعَلِيٌّ فِي « فَعِيلَةَ » الْتُزِمْ »

١٧ — « أمور أخلاقية » وهو خطأ . صوابه ، « أُمُورٌ خُلُقِيَّةٌ » لأن النسب يكون للمفرد ، أما للجمع فهو باطل ، واللَّبْس فى هذا الباب مُغْتَفَر ـ كما قال النحاة :

١٨ — « من سنة سبعة وثمانين » ، وهو خطأ ، والصواب : « من سنة سبع وثمانين » .

١٩ — « مازالت وما تزال متعارضة » ، وهو خطأ ـ صوابه : « مازالت ولن تزال » .

٢٠ — « سكرتير » وهى كلمة أجنبية ، وصحتها : « أمين سر » .

* * *

هذه بعض العبارات التى رأيت بحكم الأمانة أن أُعمِلَ فيها يد التشذيب والتهذيب ، وأطهر منها ذلك السفر السافر .. بأفصح الأساليب ، وأصح التراكيب حتى يكون بعيداً كل البعد عن مجالى القيل والقال .. ولو من أدق الزوايا ، وأرق الهجمات .

* * *

(ب) إكمالاً للنسق الأدبى الأخّاذ ، واعتداداً بالنمط الكتابى الممتاز ـ الذى عُرِفَ للمؤلف ، وعرف هو .. به ـ زدت بعض الكلمات أو التراكيب أو الحروف ـ

حفاظاً على رُوَاءِ الكتاب ، وإيضاحاً لبعض عباراته ، وتزييناً لبعض أساليبه ٠ حتى يظل فى مستواه الرفيع ٠

وقد وضعتُ كل الزيادات بين معقوفات .. ليتميز الأصل عنها كل التمييز ولينسبها القارىء إلىَّ أنا .. إذا وجد أنها فى غير موضعها ، أو أنها لا لزوم لها ٠

* * *

(ح) وضعتُ على رأس كل صفحة إشارات ضوئية تنير للقارىء معالم الطريق فى القراءة ، وتدله على الموضوعات الكثيرة ٠ المنبثة فى كل الصفحات

* * *

وعقيدتى أن المؤلف الجهبذ سيرضى عما فعَلْتُ ، كما أن القارىء اللبيب لن يضيره ماقدَّمت ، وأملى كبير فى الله -جلَّ عُلاهُ ـ أن يوفق المؤلِّفَ النابغة إلى إخراج بقية مؤلفاته القيمة ، وأشعاره القوية ٠ فى الثوب القشيب الذى تستطيع أن ترفل فيه ، وعلى النمط العالى الذى يحقق أمانيه ، ويرضى أماليه ٠٠ إنه نعم المولى ونعم النصير ؟

◆◆◆◆

وقد تم طبع الكتاب ومراجعته ـ بفضل الله وعونه ـ مساء الأربعاء ٢٣ من شعبان المعظم ١٣٩١هـ ـ الموافق ١٣ من أكتوبر ١٩٧١ م ، والحمد لله على تمام إنعامه .. ؟

دكتور عبد السلام سرحان

العدد	اسم المصدر واسم مؤلفه
١	ابتسامات الأيام ـ ديوان ابن بلهيد .
٢	أدبنا وأدباؤنا فى المهجر . . لجورج صيدح .
٣	أغنية العودة . . لسعد البواردى .
٤	أوراق مخطوطة . . لمحمد بن حسين « جد المؤلف » .
٥	الأدب العربى المعاصر . . لأنور الجندى .
٦	التائية .. .. لعبد الحميد الخطيب .
٧	التيارات الأدبية فى قلب الجزيرة العربية.. لعبد الله عبد الجبار .
٨	الدرر السنية فى الأجوبة النجدية . . جمع الشيخ عبد الرحمن ابن قاسم .
٩	العقد الثمين .. من شعر ابن عثيمين .
١٠	الفواكه الشهية . . فى الخطب المنبرية .
١١	الموسوعة الأدبية . : لعبد السلام طاهر الساسى .
١٢	النهضة الأدبية بنجد . . لحسن محمد محمود الشنقيطى .
١٣	الوجديات . . لمحمد فريد وجدى .
١٤	تاريخ الأدب . لمحمود مصطفى .
١٥	تاريخ نجد .. .. للألوسى .
١٦	تاريخ نجد .. .. لعبد الله فلبى .
١٧	تاريخ نجد الحديثة . . لأمين الريحانى .
١٨	جريدة « القصيم » .
١٩	جريدة « اليمامة » .

العدد	اسم المصدر واسم مؤلفه
٢٠	ديوان ابن زيدون .
٢١	ديوان ابن سحمان .
٢٢	ديوان ابن مشرف .
٢٣	ديوان خالد الفرج .
٢٤	روضة الأفكار والأفهام .. لحسين بن غنام .
٢٥	شعاع الأمل .. لصالح بن عثيمين .
٢٦	شعراء نجد المعاصرون .. لعبد الله بن إدريس .
٢٧	صحيح الأخبار .. .. لابن بليهد .
٢٨	صحيح البخارى .. ..
٢٩	عنوان المجد فى تاريخ نجد .. لابن بشر
٣٠	قدر ورحل .. . لمحمد حسن الفقى .
٣١	مجلة الفكر التونسية .. ..
٣٢	مجلة المنهل .. ..
٣٣	مجموعة الخطب .. للامام محمد بن عبد الوهاب .
٣٤	من أدبنا المعاصر .. للدكتور طه حسين .
٣٥	من أغانى الحياة .. لأبى القاسم الشابى .
٣٦	من وحى الصحراء .. جمع محمد سعيد عبد المقصود وعبد الله بالخير
٣٧	وحى الحرمان .. لعبد الله الفيصل .

الفهرست

رقم الإيداع
(١٩٧١ / ٥٢٩٧)

خريطة المملكة العربية السعودية

ويظهر فيها إقليم نجد بوضوح

